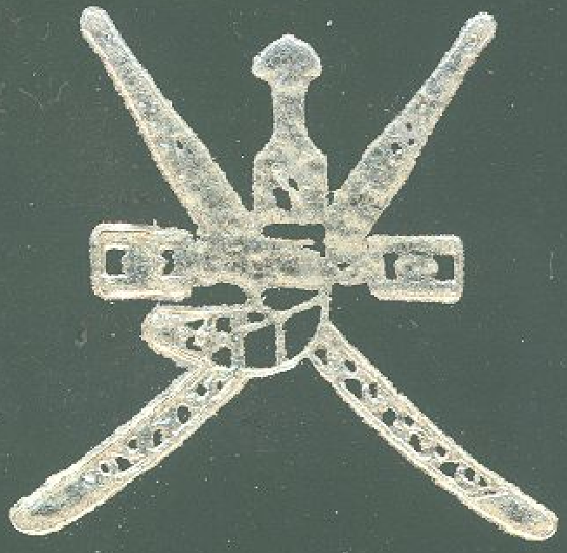


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

حصاد

ندوة الدراسات العُمانية

البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة

ذو الحجة ١٤٠٠هـ - نوفمبر ١٩٨٠م

المجلد الثاني

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

حصاد

ندوة الدراسات العُمانية

البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة

ذو الحجة ١٤٠٠ هـ - نوفمبر ١٩٨٠ م

الطبعة الثانية

المجلد الثاني

نواصل فى هذا المجلد ما بدأناه فى المجلد السابق عن

تاريخ عُمان ونشاطها الداخلى

من مطلع الإســلام حــتى الآن .

الدولة العثمانية : نشأتها وازدهارها

صادق حسن عبد والي

تقـــديم واهـــداء

يتناول هذا البحث جانبا مهما من تاريخ عمان وبالأحري الجانب الذى كان محل اعتزاز وفخر للعمانيين عبر اجيال عديدة خلال القرون الماضية ، ولازالت آثار ذلك الاحساس قائمة حتى اليوم • فعندما يشار الى عمان فى المحافل الدولية ، فان أهم ما يشار اليه انها دولة لها تاريخها الذى تمتد جذوره الى مئات السنين قبل الميلاد وانها دولة استطاعت أن تجابه أساطيل الامبراطورية البرتغالية بل التفوق عليها وانشاء دولتها الخاصة على انقاض الامبراطورية البرتغالية فى شرق افريقيا •

وكلمة الامبراطورية فى الواقع حساسة وغير دقيقة وهى تطلق عادة على أية دولة استطاعت أن تمد سيطرتها ونفوذها خارج مناطق حدودها ، خصوصا اذا كانت هناك فواصل جغرافية بين حدودها الأصـلية وحـدود الأجزاء التابعة لها •

وكلمة الامبراطورية بدىء باستعمالها على عهد الدولة الرومانية التى استطاعت أن توسع من رقعة الأراضى التابعة لها لتشمل مناطق فى بقـاع مختلفة من العالم وكانت الكلمة مرادفة فى بداية استعمالها للنظام السياسى السائد فى الامبراطورية الرومانية والبيزنطية حيث كان رئيس الدولة يلقب بالامبراطور ، ولكن لعدم وجود كلمة مشابهة تشمل الدولة الأصلية والمناطق التى تم فتحها أو الاستيلاء عليها فان كلمة الامبراطورية استعملت تجاوزا على أوضاع أية دولة كانت لها سلطة حكم على أراضى دول أو شعوب أخرى حتى لو لم يكن النظام السائد بها نظاما امبراطوريا •

ومن هذا المنطلق استعملت كلمة الامبراطورية تجاوزا على الأراضى التى كانت خاضعة للدولة الاسلامية ، فسميت لدى العــــديد من المؤرخين بالامبراطورية الاسلامية • وبنفس الأسلوب اطلقت كلمة « الامبراطورية البريطانية » على بريطانيا والأراضى التابعة لهـــا وكلمة « الامبراطورية الفرنســـية » على فرنســـــا والأراضى التابعـــة لها • وبنفس المعنى تطلق « الامبراطورية العمانية » على عمان والأراضى التى كانت تابعة لها فى حقبة زمنية من التاريخ •

ويتألف هذا البحث من أربعة فصول • الفصل الأول : أوضاع عمان قبل نشأة الامبراطورية العمانية • والفصل الثانى : نشأة الامبراطورية العمانية فى عهد دولة اليعاربة • والفصل الثالث : نمو وازدهار الامبراطورية فى عهد أسرة البوسعيد • والفصل الرابع والأخير : يتناول اضمحلال الامبراطورية العمانية بعد وفاة سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦م •• ويتناول كل فصل باسهاب الأسباب والمقومات والعوامل الداخلية والخارجية التى ساهمت فى نشأة الامبراطورية وازدهارها أو تلك التى ساهمت فى اضمحلالها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

ولـــا كانت عمان تشهد فى الفترة الحالية بقيادة مولانا جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم نشأة حضارة جديدة على أنقاض الحضارة التى اضمحلت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وتقديرا للجهود المخلصة التى بذلت خلال السنوات العشر الماضية من النهضة المباركة والتى استطاعت نقل عمان من دولة متأخرة الى دولة مسايرة لمقومات حضارة القرن العشرين ، فاننى أتشرف باهداء هذا البحث الى قائد نهضتنا جلالة السلطان المعظم ، حفظه الله •

المؤلف

١/١١/١٩٨٠م

عمان فى المرحلة السابقة لنشأة الدولة العمانية :

يطلق عادة تعبير « العصر الذهبى » لمنطقة الخليج على الفترة التاريخية لهذه المنطقة الواقعة بين عامى ٧٥٠ و ١٥٠٧ م حين استطاعت هذه المنطقة أن تلعب دورا بارزا كوسيط تجارى بين تجارة الشرق والغرب والتى أدت الى ازدهار المنطقة ونشوء مراكز جديدة عادت بالخير على أهلها • وبرغم أن العمانيين لعبوا دورا مهما وقدموا اسهامات بارزة فى عمليات التبادل والنقل التجارى فى تلك الحقبة من التاريخ • وبرغم أن تلك الاسهامات أفادت العمانيين باكسابهم مزيدا من الخبرة فى عمليات التبادل التجارى وصناعة السفن والعلوم البحرية ، فان تلك الفترة لم تكن هى « العصر الذهبى » لعمان ؛ بل الواقع ان العصر الذهبى العمانى ابتدأ بعد ما يقرب من قرن ونصف من انتهاء العصر الذهبى لمنطقة الخليج وذلك على أثر تزايد دور الملاحة العمانية فى المنطقة ونشوء حكومات مركزية قوية مهدت لانشاء أول امبراطورية عمانية فى التاريخ واستطاعوا خلالها اخضاع العديد من المدن والمراكز التجارية فى الخليج وشرق افريقيا تحت سيطرتهم • وأصبحت عمان لمدة تزيد عن قرنين من الزمن قوة سياسية واقتصادية مهمة فى المنطقة تتعامل مع القوى الدولية الكبرى وتلعب دورا بارزا فى سياسات المنطقة وتقرير مستقبلها •

ويجدر بنا أولا ان ندرس بعناية العوامل السياسية والاقتصادية والطبيعية التى مهدت وساهمت فى توفير المقومات والقدرات اللازمة لتحقيق الفتوحات العمانية وانشاء أول امبراطورية عمانية فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ذلك ان تحقيق مثل هذا الهدف الكبير لا يتأتى الا بتوافر قدر كاف من الارادة السياسة ووسائل حربية تقنية متطورة الى جانب الخبرات القتالية تكون متمشية مع روح العصر وامكاناتها •

من المعروف أن عمان تعتبر من أكثر الأقاليم عزلة من الناحية

الجغرافية ، فالى جانب احتواء البحر لعمان من جهات ثلاث ، فان رمال الربع الخالى تحيط بها من الجانب الرابع • وفى الوقت الذى أدت هذه العوامل الجغرافية الى فرض عزلة عمان عن العالم الخارجى ، فان السلاسل الجبلية الممتدة من الشمال الى الجنوب قسمت البلاد الى مناطق متباينة تعانى من صعوبات الاتصال الداخلية بسبب وعورة الطرق الجبلية مما خلق نوعا من العزلة بين المناطق الساحلية والداخلية الا عبر طرق محدودة ومعروفة •

الوحدة والتكاتف بين الشعب العمانى :

ورغم تلك العوامل الجغرافية والعزلة الطبيعية ، فقد استطاع الشعب العمانى أن يخلق الاتصالات الحضارية خارجيا وداخليا • فعن طريق البحر استطاع البحارون العمانيون وصناعوا السفن بجهودهم المتواصلة عبر قرون من الزمن أن يخلقوا أسطولا بحريا قويا ويصبحوا سادة البحار فى المنطقة • كما أن توافر المياه فى الشريط الساحلى بين الجبال والبحار وكذلك فى المناطق الداخلية الواقعة فى السلاسل الجبلية قد ساعدت على اقامة كيان زراعى متطور ، وبرغم صعوبات الاتصالات الداخلية من ناحية والتناحر القبلى فى فترات مختلفة من التاريخ من ناحية أخرى ، الا أن هذه العوامل لم تمنع من تلاحم الشعب العمانى وتكاتفه وتعاونه ، فقـــد كانت عوامل التعاطف والتعاون أقوى بكثير من عوامل التفرقة وصعوبات الاتصال •

ومن العوامل التى ساعدت على الوحدة والتماسك والتعاون ، أن الغالبية الساحقة من المواطنين العمانيين هم عرب جاءت هجراتهم الأولى على موجتين فى فترتين زمنيتين قبل ظهور الاسلام بقرون •

وعرف المهاجرون العرب الأوائل الذين جاءوا من اليمن حوالى القرن التاسع ق•م باليمانيين أو الأزد أو القحطانيين والدفعة الثانية التى هاجرت من شمال وأواسط الجزيرة العربية حوالى القرن الرابع أو الخامس الميلادى ، عرفت بالنزاريين أو العدنانيين •

وكان التنافس بين المجموعتين أمرا طبيعيا ، الا أن الأهداف المشتركة بينهما وخصوصا مواجهة عدو مشترك قد أذاب ذلك الجو المشحون من التنافس وبالتعاون المشترك تم طرد الفرس الذين كانوا يحكمون أجزاء كبيرة من عمـــــان •

وفى فترات لاحقة من التاريخ العمانى فى القرن الثامن عشر •• ؟ظهرت صراعات سياسية حادة على السلطة وانقسمت القبـــائل الى مجموعتين سياسيتين هما الهناوية والغافرية • ويحاول العديد من المؤرخين الربط بين الصراعات الهناوية الغافرية وبين الصراعات النزارية والقحطانية الا أنه بالدراسة المتأنية يثبت لنا أن العديد من القبائل النزارية والقحطانيين كانت متداخلة فى مجموعتى الغافريين أو الهناويين وبالتالى فان الصراعات الأخيرة كانت بالدرجة الأولى صراعات سياسية •

ومن العوامل التى ساعدت على الوحدة والتكاتف انتماء المجتمع العمانى ككل الى الاســــلام وانتماء غالبيتهم الى المذهب الاباضى • بل ان ولاء الشعب العمانى لهذا المذهب ، خصوصا فى القرون الأولى من الاسلام ساعد كثيرا نتيجة فلسفة هذا المبدأ على اختيار زعامات دينية استطاعت أن تحقق السلطة المركزية فى البلاد ، انضوت تحت لواءه كل القبائل العمانية•

ومن العوامل الأخرى التى ساعدت على الوحدة والتماسك أيضا وجود « العدو المشترك » ففى فترات مختلفة من التاريخ التحم الشعب العمانى وتوحد ودافع عبر نضال شاق عن ترابه ومكتسباته ضد عدو مشترك مثل الفرس أو البرتغاليين • بل ان وحدة النضال ضد البرتغاليين كان عاملا أساسيا من عوامل انشاء الامبراطورية العمانية •

والاختلافات الوحيدة التى تواجدت فى عمان بين أبناء الساحل والداخل هى تلك الاختلافات التى تفرضها عوامل الطبيعة فى أى بلد فى العالم • كاشتغال أبناء الساحل فى حرفة الصيد متميزين عن أبناء الداخل وتأثرهم

أكثر بعادات وتقاليد الشعوب الأخرى نتيجة الاحتكاك الحضارى مع العالم الخارجى • فكان أبناء الساحل عموما أكثر انفتاحا فى تعاملهم مع أجناس أخرى وأكثر اكتسابا لعادات مجتمعات أخرى : ممـا كان يخلق نوعا من الاختلافات الفرعية فى الممارسات التقليدية بين أبناء الساحل الأكثر تأثرا بالحضارات الخارجية وأكثر اعتدالا فى ممارسة الشعائر الدينية ولكن هذه الاختلافات لم تكن تؤثر على مسائل عقائدية جوهرية أو الحفاظ على وحدة التراب من الأعداء أو التعاون المثمر فى المجال الاقتصادى والاجتماعى مثل الزراعة والزواج وغير ذلك •

دور العمانيين خلال العصر الذهبى لمنطقة الخليج :

وكما سبق أن قلنا ، فان فترة « العصر الذهبى » لمنطقة الخليج تقع بشكل عام بين سنة ٧٥٠م وهى بداية نشأة الخلافة العباسية فى بغداد وعام ١٥٠٧م عندما استولى البرتغاليون على « هرمز » التى كانت أهم مركز تجارى فى منطقة الخليج •

وعلينا أن نتفهم أنه خلال هذه الفترة الطويلة التى تسمى بالعصر الذهبى كانت تتداخل فترات ركود تجارى نسبى تفرضه عوامل الحروب والتغيرات الدولية فى مناطق مختلفة • وأهم العوامل التى ساعدت على رواج التجارة بين الشرق والغرب من ناحية وزيادة الطلب على كثير من المنتجات الشرقية فى داخل العالم الاسلامى هو استقرار الحكم وازدهاره فى العديد من مناطق العالم •

ففى بغداد كانت الامبراطورية الاسلامية بزعامة الخلفاء العباسيين فى أوج ازدهارها وفى الصين كانت أسرة شانج قد استعادت نفوذها فى البـلاد كما استطاعت الامبراطورية البيزنطية اعادة تحقيق الازدهار فى الجزء الشمالى الشرقى من البحر المتوسط بينما استطاعت أوربا الغربية بقيـادة

الملوك الكارولنجبين أن تتخلص ممن الفوضى التى أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية •

ولما كانت الطرق البرية بين غرب وجنوب آسيا محدودة فان نمو واتساع النشاط الاقتصـــادى العالمى استوجب استخدام الطرق البحرية ، وانحصر الخيار بين طريقى البحر الأحمر ومنطقة الخليج لأن الطريق حول رأس الرجاء الصالح لم يكن قد بُدِئ فى استعماله بعد • وكان طبيعيا أن يستوجب استعمال طريق البحر الأحمر ومنطقة الخليج استخدام محطات انتقال تقع فى تلك الطرق الملاحية الى جانب محطات الانتقال فى كل من مصر والعراق والشـــام •

ومن المراكز التجارية التى احتلت مكانة الصدارة فى منطقة الخليج خلال فترة العصر الذهبى ميناء سيراف على الجانب الايرانى من منطقة الخليج ، وخلال الفترة بين عامى ٩٠٠ و ١١٠٠م • كانت سيراف أهم محطة تجارية عبر الطريق البحرى الرئيسى الذى يربط بين الشرق والغرب وكانت منطقة التجمع والمنفذ الرئيسى للسلع القادمة من بلاد فارس ومنها كانت تتدفق شحنات الحرير الايرانى من شيراز •

وخلال الفترة من عامى ١١٠٠ — ١٣٠٠م حل ميناء « قيس » محل سيراف كأهم محطة تجارية فى المنطقة • و « قيس » هى جزيرة تقع على بعد عشرة أميال تقريبا من الجانب الفارسى من الناحية الجنوبية للخليج • ورغم ازدهارها الكبير وتبوأها مكان الصدارة ، فان ازدهارها ونشاطها التجارى لم يرق الى مستوى « سيراف» ، ذلك لأن البحر الأحمر فى هذه الفترة كان يلعب دورا مهما ومنافسا للتجارة الدولية مما أضعف الى درجة معينة ازدهار منطقة الخليج ، واستطاع حكام قيس أن يخضعوا ســيراف تحت سيطرتهم عام ١١٧٠م •

وفى أواخر القرن الثالث عشر برزت الى الوجود دولة هرمز التى غدت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية وأكبر منافس لميناء قيس •

ودولة هرمز بدأت تأخذ دورها التجارى منذ القرن الحادى عشر الميلادى الى أن استطاعت أن تتبوأ مكان الصدارة فى أواخر القرن الثالث عشر • وتعود أهمية دولة هرمز الى موقعها الاستراتيجى فى المضايق المؤدية الى الخليج • وبرغم صغر مساحة الدولة ، فان ملوك هرمز كانوا يحكمون البلاد اسميا وكانت السلطة الفعلية فى يدى مجموعة أوليجركية من التجار ، وكان مجلس الملك برئاسة الوزير هو الذى يقوم بتعيين الولاة فى مناصبهم ويشرف على القوات البحرية والجيش •

وقد ساعد على نمو وازدهار جزيرة هرمز بعدها عن مراكز القلاقل السياسية داخل دولة فارس • وقدرت عدد سفنها عام ١٥٠٣م بثلاثمائة سفينة ولكن فى عام ١٥٠٧م استطاع البرتغاليون أن يستولوا على هرمز • وباستيلاء البرتغاليين بدأت هرمز تفقد مكانتها التجارية الرئيسية نتيجة اهمال البرتغاليين لشؤون التجارة ، وفقدت هرمز جزءا كبيرا من دخلها من التجارة بحلول عام ١٥٨٥م • وبسيطرة البرتغاليين على هرمز انتهى العصر الذهبى لمنطقة الخليج وبدأ ما يسمى بالعصر الفضى •

وخلال تلك الحقبة من التاريخ ، بدأت مكانة العمانيين كبحارة ذو خبرة واسعة تبرز على الصعيدين المحلى والاقليمى • وخلال العصر الذهبى لدولة هرمز (١٣٠٠ — ١٥٠٧م) كان أغلب البحارة لسفن تلك الدولة من عرب عمان واليمن ، واستطاع البحارة العمانيون أن يكتسبوا خبرات ملاحية فعلية وأصبحوا يجوبون المحيطات بكل ثقة وطمأنينة ، وليس أدل على خبرات البحارة العمانيين فى تلك الحقبة الزمنية من التاريخ من أن الملاح العمانى ابن ماجد هو الذى أرشد فاسكو دى جاما الطريق الى الهند عام ١٤٩٨م •

الحملات البرتغالية ضد عمان :

حل البرتغاليون فى القرن السادس عشر محل تجار البندقية بايطاليا كوسطاء للتجارة الدولية • وحتى منتصف القرن الخامس عشر كان بحارو البندقية فى أوج ازدهارهم كوسطاء للتجارة بين الشرق والغرب ، وكان أسطولهم التجارى يعتبر من أقوى الأساطيل فى أوربا • وجاءت الضربة الأولى ضد أهل البندقية عندما تمكن الاتراك من الاستيلاء على قسطنطين عام ١٤٥٢ ونتج عنها تدهور فى التجارة القادمة من منطقة الخليج والشام • كما أن الحروب بين أهالى جنـــوة والبندقية شكلت عاملا آخر من عوامل تدهور مكانة البندقية •

وفى عام ١٤٩٨ كما أسلفنا ، تمكن البحار البرتغالى فاسكو دى جاما من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان لهذا الاكتشاف نتائج رهيبة للطرق التجارية الدولية مؤداها امكانية نقل البضائع والمؤن وغيرها عن طريق البحر من الشرق الى أوربا دون الحاجة الى مرور تلك الشحنات عبر محطات التجارة البرية فى الخليج والشام ومصر وتركيا •

وبرغم محاولات سلطان مصر والأتراك ودوق البندقية منع البرتغاليين من ممارسة التجـــارة فى البحـــر العربى ، الا أن البرتغاليين استمروا فى نشاطهم وزادت كثافة سفنهم •

وفى عام ١٥٠٤ عندما عاد البوكيرك من رحلته ، عرض على ملك البرتغال خطة كاملة للاستيلاء وضم أراضى كثيرة فى الشرق الى البرتغال تمهيدا لفرض احتكار وسيطرة كاملة على التجارة بين الشرق والغرب •

وفى عام ١٥٠٦ عين البوكيرك نائبا للملك وحاكما عاما فى الشرق وكلف بمهمة تحقيق الفتوحات البرتغالية فى الشرق ، تلك الأراضى التى تكون من شأنها ضمان سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج وقد ضمت الحملة الكبيرة

ثلاثة أساطيل أحدهما مكون من ١٦ سفينة بقيادة تريستان دوكونها • وقد تمكن هذا القائد فى يوليو ١٥٠٧ من تحقيق انتصار نهائى فى جزيرة سقطرة حيث تم ابادة الحامية المدافعة عن القلعة •

فى أغسطس من عام ١٥٠٧ ظهرت لأول مرة السفن البرتغالية فى الميـــاة الاقليمية لعمان • وبعد ان تجاوز أسطول البرتغاليين جزر كوريا موريا . ثم جزيرة مصيرة وصل يوم الحادى عشر من أغسطس قبالة رأس الحد ؛ حيث بدأ عملياته الحربية باطلاق النار على جميع السفن العربية الموجودة هناك والتى قدرت بحوالى ٣٠ الى ٤٠ سفينة ، وبعـــد أن تمكن من اضرام النار فيها اتجه الأسطول البرتغالى الى الأمام تجاه صور التى وصفت فى ذلك الوقت بأنها قرية صغيرة من قرى الصيد •

ووصل الأسطول بعد ذلك الى مدينة قلهات • فأمر البوكيرك أسطوله بالرسو مع احداث أكبر استعراض وضجة ممكنة • وكان هذا أول استعراض لسفن أوروبية فى خليج عمان منذ عهد الاســـكندر الأكبر قبل ١٨ قرنا من ذلك التاريخ •

كانت قلهات من المدن الساحلية العمانية المزدهرة ، وهى القرية الساحلية التى زارها ابن بطوطة قبل حملة البرتغاليين بحوالى مائة وثمانين عاما • وفى هذه الفترة كانت سلطة الحكومة المركزية لأئمة عمان ضعيفة على المدن الســاحلية •

ويبدو أن ملوك هرمز كانوا قد استطاعوا اخضاع قلهات ضمن نفوذهم السياسى • فعندما بعث البوكيرك وفدا من أسطوله فى اليوم الثانى من وصوله أبلغ بأن المدينة تخضع للحكم السياسى لملك هرمز ، كما أبلغهم والى المدينة بأنه على استعداد لتزويد الأسطول البرتغالى بالمؤن المطلوبة • وفى اليوم التالى تم تقديم هدايا للبوكيرك الذى رفض تناولها وأصر على الاستسلام غير المشروط للمدينة واعلان الولاء لملك البرتغال •

اتخذ والى قلهات الفارسى موقفا سياسيا مرنا ، فلم يرغب أن يعرض المدينة للدمار ، وهنا طلب من البوكيرك التفاوض مع ملك هرمز على الشروط مؤكدا أنه سواء أدت الاتصالات مع ملك هرمز الى السلم أو الحرب ، فانه سيعلن ولاءه للملك البرتغال • وبناء على نصيحة مستشاريه قرر البوكيرك التوجه الى هرمز بعد أن تزود بالمؤن •

كانت المحطة التالية للبوكيرك قريات ، وكان أهل قريات متأهبين للدفاع والاستبسال أمام الغزو البرتغالى ، وفى اليوم التالى عندما وضع البوكيرك خططه الهجومية ، كان أهالى قريات قد أعدوا مدفعين هاون احدهما مجهز بأربع هاونات للدفاع عن المدينة • وبرغم بسالة أهل قريات وفدائهم ، فان القوى الدفاعية والهجومية لم تكن متكافئة •

وعندما تمكن البرتغاليون من انزال قواتهم ، قاموا بمذبحة رهيبة لم يميزوا فيها بين الرجال والنساء والأطفال ولاظهار مدى انتصاراتهم على الأهالى ، فقد تم نقل المسجونين الى سوق المدينة بعد أن تم جدع أنوفهم وآذانهم • وتم بعد ذلك نهب المدينة وحرقها والاستيلاء على أسلحة الدفاع المتوفرة • كما تم احراق كافة السفن الصغيرة والكبيرة التى وجدت فى الميناء وتقدر بحوالى ٣٨ سفينة •

الاستيلاء على مسقط :

وصف البوكيرك نفسه مدينة مسقط عندما شن حملته للاستيلاء عليها : بأنها مدينة كبيرة وآهلة بالسكان ، تحيطها من الجانبين جبال شاهقة وواجهتها قريبة جدا من أطراف مياه البحر . وخلفها نحو الداخل يوجد سهل كبير مثل ساحة لشبونة • وتوجد بها برك كثيرة من المياه الحلوة التى يستعملها سكانها ، وتوجد هناك بساتين وحدائق وأشجار النخيل والتى تروى من مياه الآبار • والميناء صغير على شكل حدوة حصان ومحمى من الرياح • وهو مركز

تجارى مهم حيث تضطر جميع السفن المبحرة فى تلك المناطق ان تدخله ، وذلك لتجنب الساحل الضحل فى الطرف المقابل •

وفى مسقط سوق قديمة لتصدير الخيل والتمور ، وهى مدينة جميلة وبها مساكن جميلة وتزود من الداخل بكثير من المنتجات الزراعية مثل القمح والشعير والدخن والتمور • وتستقبل أى عدد من السفن التى تقدم اليها •

كانت السلطة المركزية فى تلك الفترة بيد الامام محمد بن اسماعيل بن عبد الله الحاضرى الذى تولى الامامة خلال الفترة ٩٠٦ — ٩٤٢ هـ (١٥٠٠ — ١٥٣٠ م) وكانت السلطة المركزية بشكل عام ضعيفة على الموانى ، كما أن ملوك بنى نبهان كانت لهم سلطة فى بعض المناطق من عمان والذين جاءوا الى الحكم حوالى عام ١١١٦م ودام حكمهم لمدة ٥٠٠ عام تقريبا بصورة متقطعة . الا أن البوكيرك يشير فى روايته أن ملك عمان فى تلك الفترة هو « بن جابر » والواقع ان بنى جابر هم قبيلة من القبائل الرئيسية التى كانت تتمتع بنفوذ سياسى ودور تاريخى متعاظم • وكان مركزهم الرئيسى الجزء الغربى من عمان ، ونتيجة شهرتهم وبأسهم يوجد وادى يسمى باســمهم • ودورهم التاريخى يعود الى فترات مختلفة من التاريخ •

فقبل الحملات البرتغالية بقرنين ونصف تقريبا كان لهم دور بارز فى الحاق الهزيمة للقوة التى بعثها ملك هرمز ركن الدين محمد عام ١٢٤٣م ، حاول خلالها غزو المناطق الداخلية بعد أن تمكن من اخضاع قلهات تحت نفوذه، كما لعب بنو جابر دورا بارزا فى فترات لاحقة من التاريخ فى القرن الثامن عشر الميلادى عندما أصبح بنو جابر يشكلون القوة الرئيسية فى التكتل السياسى الذى سمى بالغافريين ضد التكتل السياسى الآخر وهم الهناويين ، وذلك برغم أن بنى جابر ينتمون الى المذهب الاباضى مثلهم مثل معظم الفروع فى التكتل الهناوى •

من الواضح اذا أن القوة البحرية للعمانيين كانت متعاظمة فى تلك الفترة . فاذا أخذنا فى الاعتبار أن البرتغاليين دمروا عشرات السفن العمانية فى حملتهم ، فمما لاشك فيه ان مجموع السفن العمانية كانت تصل الى عدة مئات ، اذا أخذنا فى الاعتبار السفن التى كانت مشغولة فى التجارة الخارجية وقت الحملة والسفن التى تكون قد بعدت عن السواحل تجنبا للدمار البرتغالى .

وفى مسقط حاول السكان فى البداية تجنب الحرب بايفاد بعثة من اثنين من أعيان البلاد للتفاوض مع البوكيرك ولكنه رفض تلك البعثة لانها لم تكن مزودة بتفويض رسمى من والى مسقط . وكانت شروط البوكيرك ان تدفع مسقط ضريبة سنوية وأن تزود أسطوله بالمؤن والمياه أثناء عملياتها الحربية المقبلة ضد هرمز .

ولكن وصول امدادات من عمان الداخل فى مساء اليوم التالى حفز المواطنين على المقاومة خصوصا وانهم كانوا قد انتهوا من بعض استعدادات الدفاع . فبنوا سورا بين تل وآخر قبالة الشريط الساحلى فى مسقط .

تمكن البوكيرك بعد ان قسم اسطوله الى قسمين تولى ميمنته الكابتن دادافورا داكوستا والميسرة بنفسه ، ان يحقق انزالا بحريا على جانبى الحصون ثم دفع المدافعين الى خارج المدينة وأجرى مذبحة رهيبة بين السكان العرب شملت النساء والأطفال .

وكانت مذبحة البوكيرك بين النساء رهيبة الى درجة ان قائدين من قواده تمردا عليه وهما انطوا دا كامبو وجودا دا نوفا وتم الاستيلاء على ٣٠ مدفعا وأنواع أخرى من الأسلحة .

وبقى البوكيرك ٨ أيام فى مسقط يجهز أسطوله بالمؤن والمياه ، كما قام باشعال الحرائق فى المدينة قبل أن ينسحب وذلك بعد أن فشل سكان

المدينة من دفع الفدية الباهظة التى طلبها البوكيرك والتى حـددت بعشرة آلاف اشرفية من الذهب • كما التهمت الحرائق ٣٤ سفينة كبيرة الى جانب سفن صغيرة للصيد وكذلك المسجد فى مسقط والذى كانت تزينه زخارف من الخشب المحفور •

كانت صحار هى المحطة التالية فى الحروب البرتغالية ضد المـوانىء العمانية • ويبدو أن صلات صحار بالداخل كانت أقوى من بقية المدن ، فقدمت الى صحار قوة قوامها ٧ آلاف مقاتل من الداخل من قبيلة بنى جابر ، وحاول والى صحار اظهار قوته والتهديد بان صحار ستقاوم بوسائل مختلفة عن الوسائل التى واجهها البوكيرك فى مدن أخـرى • ولـكن ازاء اصرار البوكيرك بالاستسلام واعلان الولاء لملك البرتغـال واثقا من قدرته على الاستيلاء على صحار وافق الطرف العمانى على التفاوض •

وبموجب شروط الاستسلام السلمى تم تعيين والى صحار نائبا عن ملك البرتغال وتم فرض جزية سنوية عليها • كما تم التوقيع من جانب والى صحار على تعهده بالولاء لملك البرتغال وتعهد البوكيرك من جانبه على حماية صـحار •

وكانت المحطة الأخيرة من حملات البوكيرك فى الأراضى العمانية ميناء خور فكان ، حيث قدمت قوات كبيرة من المشاة والفرسان • ولم يقم أهالى خور فكان بايفاد بعثة تفاوض الى البوكيرك فقام القائد البرتغالى بالهجوم على البلدة وتمكن من الاستيلاء على قلعتها بعد مقاومة باسلة • ولكن الغنائم لم تكن بالحجم الذى كان يتمناها البرتغاليون اذ أن التجار الهندوس الذين كانوا فى البلدة غادروها فى أسطول صغير قبل الحملة البرتغالية حاملين معهم معظم ثرواتهم وبضائعهم •

وعلى أية حال فان العديد من الأسرى تم اطلاق سراحهم بعد ان تم جدع أنوفهم وآذانهم •

ويصف البوكيرك خور فكان بأنها تقع تحت جبل شاهق وكانت بلدة كبيرة يقطنها الكثير من التجار الهنود (البانيان) والطقس كان صحيا وتوجد فيها زراعة للقمح والدخن والبرتقال والليمون والنخل والتين والميناء كان جيدا يحميه حصنان والخيول كانت تصدر منها الى الهند •

بنجاح البرتغاليين فى الحاق الهزيمة بالمقاومة الباسلة لأهالى خور فكان، أصبحت العديد من المدن العمانية الساحلية خاضعة للبرتغاليين •

وهكذا أصبحت عمان خاضعة لثلاثة سلطات : الامام محمد بن اسماعيل، ومركزه الرستاق ومناطق فى الداخل كانت لا تزال خاضعة لبنى نبهان والمدن الساحلية : صور ، مسقط ، مطرح ، قريات ، قلهات ، صحار ، خور فكان ، دبا ولوى خاضعة للبرتغاليين • الا ان القرى الساحلية الواقعة بين تلك المدن الساحلية كانت تخضع فى ولائها للسلطة المركزية للامام •

عمان تحت الحكم البرتغالى :

ان النظام الذى اتبعه البرتغاليون من أجل ضمان السيطرة السياسية والتجارية على المدن الساحلية فى عمان ، كان يتمثل فى احكام السيطرة على الحصون والموانىء والجمارك وفى المدن المهمة كان يتم تعيين قائد برتغالى تسانده قوة عسكرية محدودة مع تزويده بكمية من الأسلحة تمكنه من الدفاع فترة زمنية محددة ، معتمدة أساسا على دوريات أساطيلها التى كانت تجوب المنطقة وتزور المدن العمانية الساحلية للتأكد من استمرارية ولاء تلك المدن للبرتغال • ولم يكن هذا النظام يسمح لها بالتوغل فى المدن الداخلية لعمان ، ذلك لان البرتغاليين كدولة بحرية كانت ستحتاج الى عدة ألوف من الجنود فيما لو حاولت التوغل داخل المدن نظرا للكثافة السكانية فى المدن الداخلية الامر الذى كان سيضعها فى حروب مستديمة تؤدى بها الى أفدح الخسائر وتحرمها من جنى الأرباح التى كانت تهدف الحصول عليها من خلال السيطرة على المدن التجارية الساحلية •

ونتيجة لذلك فقد فضل البرتغاليون عدم التدخل فى الشؤون الداخلية أو الدينية للسكان والاكتفاء بالسيطرة على الجمارك والموانىء والحصون •

ونظرا الى ان الولاة فى بعض المدن الساحلية العمانية قبـــل مجىء البرتغاليين كانوا خاضعين لملك هرمز وبعد سقوط هرمز بأيدى البرتغاليين وقبول ملك هرمز سلطة البرتغاليين والولاء لملكها ، فانها أبقت على الولاة الفرس فى المدن العمانية مع ضمان ولائهم لملك البرتغال • وفى بعض الاحيان كانت تقوم بتثبيت شخصيات عمانية فى بعض المدن اذا ثبت لها بأن تلـــك الشخصية راغبة فى التعاون مع السلطات البرتغالية واعـــلان الولاء لملك البرتغال ودفع الضرائب السنوية •

وخلال الفترة من ١٥٠٧ بداية السيطرة البرتغالية الى عام ١٦٣٣ بداية طرد البرتغاليين بقيادة الامام ناصر بن مرشد اليعربى ، شـــهدت عمـــان والمنطقة تطورات وتداخلات سياسية معقدة ، فكان البرتغاليون من ناحيتهم يحاولون احكام السيطرة على المدن العمانية وجمع الضرائب السنوية وقمع أى تمرد من جانب ملك هرمز أو الولاة التابعين له •

وكان الفرس من جانبهم يحاولون استغلال الفرصة المواتية للاعلان عن استقلالهم والتخلص من السيطرة البرتغالية الى جانب محاولات تمرد من بعض الولاة الفرس فى المدن العمانية ضد ملك هرمز •

والعمانيون من جانبهم خاضوا صراعا على مرحلتين ، تمثل ذلك الصراع فى المرحلة الأولى باحلال ولاة عمانيين محل الولاة الفرس فى المدن العمانية الساحلية مع بقاء الولاء لملك البرتغال • ثم المرحـــلة اللاحقـــة للتخلص من الاستعمار البرتغالى •

والى جانب ذلك شهدت المنطقة صراعات دولية كبيرة ، فقـــد حاول الأتراك من جانبهم بدون جدوى تخليص المنطقة من السيطرة البرتغالية ثم دخل الانجليز والهولنديون طرفا فى الصراعات الا أن صراعاتهم انحصرت

فى حروب ضد الأساطير البرتغالية ولم يقدموا أية مساندة للعمانيين لتحرير بلادهم •

وبالنسبة لمحاولات البرتغاليين احكام السيطرة على المدن العمانية جاءت العمليات الأولى عام ١٥٠٨ م ضد مدينة قلهات عندما قدم الأسطول البرتغالى بقيادة البوكيرك نفسه لتوجيه ضربة انتقامية ضد والى وسكان قلهات بسبب مساعدتهم لملك هرمز أثناء الحملة البرتغالية ضد هرمز •

وعندما فشل نورونها ابن أخ البوكيرك فى اقناع الوالى شريف الدين بالتوجه الى سفينة القائد لمقابلة قائد الأسطول : البوكيرك خوفا على حياته ، قام الأخير بانزال قواته الى البر فالتجأ شريف الدين الى التلال الخلفية للمدينة وبعد أن جمع القائد البرتغالى أكبر كمية ممكنة من المؤن والأشياء الثمينة قام بحرق المدينة بما فى ذلك الجامع الذى كانت تزخرفه نقوش رائعة كما جاء فى وصف البوكيرك نفسه وهو نفس الجامع الذى زاره ابن بطوطة قبل قرنين تقريبا من ذلك العام •

حافظت هرمز كما كانت فى عصرها الذهبى على مكانتها كزعيمة للمدن التجارية فى منطقة الخليج حتى بعد خضوع ملكها لسلطة البرتغاليين •

وكانت قلهات تتزعم مسؤولية جمع الضرائب من باقى المدن العمانية وتقوم بارسالها الى ملك هرمز لتسليمها الى البرتغاليين • وقد بلغت تلك الضرائب التى كانت تجمعها قلهات فى العقد الثانى من القرن السادس عشر ١٩٫٢٠٠ أشرفية كانت تساوى ٥٧٦٠ ريالا ماريا تيريزا بالاضافة ٧٫٥٠٠ أشرفية كانت تدفعها مناطق ساحل جلفار (رأس الخيمة حاليا) وكذلك ١٥٠٠ أشرفية كانت تدفعها السفن المختلفة مقابل صيد اللؤلؤ بالخليج والتى كانت تجبر على الذهاب الى هرمز للحصول على تصريح المرور • وبالتالى فان

مجموع ايرادات الضرائب من عمان والسفن التابعة لها كانت تبلغ ٢٠٠ر٢٨ أشرفية • وكانت مسقط لوحدها تدفع أكبر مبلغ كمدينــة مســتقلة ٤٠٠٠ أشرفية مما يوضح مركز مسقط التجارى فى تلك الفترة •

وفى الوقت الذى كان يسعى ملك هرمز أن يدبر تمردا ضد البرتغاليين ويحصل على استقلال بلاده والعودة الى العصر الذهبى لملكته ، فانه كان حريصا كل الحرص على قمع أى محاولة من جانب أى من ولاته فى المدن الأخرى •

ففى عام ١٥١٩ وجد ملك هرمز ان لديه المبررات الكافية التى تدعو الى كبح جماح الوالى فى قلهات ، ونظرا لمناعة قلهــات وقدرتها التجأ ملك هرمز الى البرتغاليين لمساعدته فى تلك العملية •

وحاول الكابتن دوات ميديز دا فاسكونسيللو بالمؤازرة مع دوم جورج والبوكيرك انزال قوة صغيرة فى ظلام الليل للتوجه الى مسكن الوالى ريس شهاب الدين ، الا ان القوة فشلت فى مهمتها نظرا لأن الوالى وقواته كانوا على حذر من تلك العملية •

وفى العام التالى تم تسوية الأمور وديا من قبل الحاكم العام ونائب الملك دوم ديجو لويس دا سيكويرا •

فى عام ١٥٢١ ، قام ملك هرمز بمحاولة الاستقلال بملكه من البرتغاليين وجاء ذلك نتيجة تفاقم الأوضــاع الاقتصــادية والسياسية معا ونتيجــة التدخلات السافرة من جانب البرتغاليين فى النظام الجمركى لهرمز وأساليب وتصرفات المسئولين البرتغاليين هناك •

وقد وضــع ملك هرمز بالتعاون مع وزرائه خطــة محكمة وسرية تم بموجبها اخطار كافة الولاة فى المدن الساحلية بالتمرد على الســـلطات البرتغالية فى يوم معين ومحدد ، وذلك لحرمان البرتغاليين من اللجوء الى مدن أخرى •

وقد كان تواجد الأسطول البرتغالى فى هرمز يشكل عائقا لتنفيذ هذه الخطة • وبناء عليه لجأ ملك هرمز الى حيلة طلب بموجبها من قائد الأسطول البرتغالى التوجه الى البحار لمعاونته فى قمع عمليات القرصـــنة التى كانت تتعرض لها بعض الموانى على الساحل العمانى ، وهكذا تمكن ملك هرمز من ابعاد نصف عدد القطع الحربية البرتغالية من هرمز •

ابتدأ التمرد فى هرمز يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٥٢١ م ، وقامت قوات ملك هرمز بالهجوم على السفينتين المتواجدتين فى ميناء هرمز • وبعد أن تم أسر السفينتين واشعال الحريق فى احدى تلك السفينتين بدأت المذبحة ضد البرتغاليين حيث تم قتل حوالى ٦٠ شخصا من البرتغاليين والتجأ الباقون الى الحصن المنيع •

وفى المدن الأخرى انتشر التمرد فى نفس الوقت ، ففى البحـــرين واجه المسيحيون الاعتداء من الأهالى حيث قتل أيضـــا قائد الحامية البرتغالية روى بيل •

وفى صحار استطاع عدد قليل من البرتغاليين النجاة والمحافظة على حياتهم •

وفى قلهات كانت معلومات التمرد قد وصلت الى سكانها قبل حدوثه فتمكن عدد كبير من البرتغاليين النجاة واللجوء الى القوارب حاملين معهم ثمائنهم •

أما فى مسقط فان الظروف كانت مختلفة ، فقد كان الوالى فى تلك الفترة عربى وهو الشيخ راشد وهو أول ذكر لوالى عربى فى المدن الســــاحلية العمانية • ويبدو ان الوالى آثر معاونة البرتغاليين وكان على خلاف مـــع الفرس ، فمنع القيام بأى تمرد ، كما انه استغل مجىء الوكيل البرتغالى فاس دو فايجا فى قلهات والمسؤول عن الساحل العمانى ليعلن فسخ ولائه عن ملك هرمز واعلان ولائه لملك البرتغال •

ونتيجة لهذا الموقف من جانب الشيخ راشد ، فانه واجه مشكلة انتقام الولاة الفرس منه .

وفى أوائل عام ١٥٢٢ قام والى قلهات ريس ديلامير شاه بمحاولة انتقامية ضد الشيخ راشد ، فبعث بقوات برية الى مسقط ، الا أن الشيخ راشد تمكن بشجاعته من الحاق الهزيمة فى قوات والى قلهات وقتل الوالى نفسه ، الا ان انتصاره هذا لم يحل دون سداده الضرائب السنوية بانتظام الى ملك هزمز .

قاد البرتغاليون بعد ذلك حملة لاسترداد سيطرتهم على المدن الساحلية فى الخليج . فبعث الحاكم العام من جوا فور تلقيه الأنباء بقوة بحرية بقيادة دوم جو نسالو وفى الوقت نفسه جهز أسطولا آخر بقيادة دوم لويز دو منيرزيس لمساعدته . وكان وصول قوات دوم جونسالو كافية لاعادة السيطرة البرتغالية الى هرمز .

ويبدو أن زعماء القبائل العربية فى عمان قد حاولوا استغلال هذه الفرصة لفرض حكم عربى على المدن الساحلية العمانية . فعندما وصل دوم لويز فى نفس العام الى صحار وجد أن قبيلتين عربيتين كانتا تحاولان انتزاع الحكم من الوالى الفارسى ريس شهاب الدين . وكانت احدى القبيلتين بزعامة سلطان بن مسعود الذى كان يقود قوة من الفرسان تقدر بـ ٢٥٠ فارسا و ٣٠٠٠ من المشاه . والقبيلة الأخرى كانت بزعامة الشيخ حسين بن سعيد من بنى جابر الذى كان يقود قوة من الفرسان قوامها ٥٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاه .

ونجح القائد البرتغالى فى عقد تحالف مع الزعيمين العمانيين لمهاجمة الفرس برا بقوات القبائل العمانية وبحرا بقوات برتغالية ، على أن يؤول حكم صحار للزعامات العمانية .

وقد تمكن الوالى ريس شهاب الدين من اللجوء الى سفنه والفرار قبل نزول القوات البرتغالية • وبعد انتصار القـوات المتحالفة عين الشـيخ حسين بن سعيد واليا على صحار كما تم تعيين وكيل برتغالى مقيم بغرض جمع الضرائب السنوية •

وفى عام ١٥٢٦ ، ظهرت بوادر تمرد جديد من جراء تصرفات القـائد البرتغالى دييجو دو ميللو فى هرمز والتى شملت أيضا بعض المدن الساحلية فى عمان ، الا أن القائد البرتغالى دو سابيايو استطاع احتواء الأزمة وحلها وديا عن طريق تقديم تنازلات الى والى قلهات والشيخ راشد فى مسقط مع وعد بتأديب قائد الحامية البرتغالى فى هرمز دو ميلو •

محاولات الأتراك طرد البرتغاليين من المياه الخليجية :

فى عهد السلطان سـليمان الأول الملقب بالقانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) جرت محاولات طرد البرتغاليين من مياه الخليج •

ففى عام ١٥١٧ خضعت مصر للحكم العثمانى • وخلال الفترة التالية من حكم سليمان الأول تمكن الأتراك من اخضاع اليمن وعدة موانىء عربية تحت سلطتهم ، الا أن عملياتهم الحربية فى المياه الخليجية لم تبدأ الا عام ١٥٤٦ م عندما قامت قوة بحرية من أربعة سفن بقصف ظفار ثم مسقط • ولم تحاول البحرية التركية انزال القوات على البر ، ولكى يضـمن والى مسقط الحماية لظفار طلب من السفن البرتغالية أن تزور ظفـار بين فترة وأخرى أثناء رحلاتها البحرية •

وفى عام ١٥٥٢ م جرت المحاولة الثانية للأتراك لطرد البرتغاليين من المياه الخليجية ، وتم تجهيز الحملة الثانية بكفاءة عالية • فقد عهد داوود باشا والى مصر قيادة الحملة الى بيرى باشا ادميرال مصر وتكونت الحملة من أسطول من ٣٠ سفينة مختلفة الحجم وقوات قوامها ١٦ ألف مقاتل •

وكان قائد الحامية البرتغالية فى مسقط فى تلك الفترة دوم جودا ليسبوا والذى أوفده ملك البرتغال خصيصا لبناء حصن فى مسقط لحماية البرتغاليين. وقام قائد الحامية البرتغالية بتجهيز الحصن الذى لم يكن بناؤه قد اكتمل بالمؤن وبالقوات المتوافرة لديه . الا أن هذه القوات لم تــكن كافية لصد هجوم الأتراك الذين تمكنوا من النزول فى المدينة وجمع الغنائم ثم الهجوم على القلعة التى تمكنت من الصمود أكثر من ١٨ يوما ، اضطر بعدها القائد البرتغالى الاستسلام نهائيا .

ورغم ذلك لم يحاول الأتراك ابقاء قوة عسكرية لهم فى مسقط وانما اكتفوا بجمع الغنائم والتوجه الى هرمز معقل البرتغاليين فى الخليج ، حيث تمكنوا من انزال قواتهم على البر وجمع الغنائم الا ان القلعة اســتطاعت الصمود . وبعد قصف دام عشرين يوما يأس قائد الحملة التركيــة ورفع حصاره عن القلعة .

وعندما قدم الأسطول البرتغالى من جوا لمطاردة الأسطول التركى لم يحاول قائد الحملة التركية بيرى باشا صد الحملة أو مقاومتها . بل العكس من ذلك قام بتجميع الغنائم فى السفن الثلاثة التى كان يملكها والتى فقدت واحدة منها فى مياه البحرين واتجه بالباقيتين الى السويس ، الا أن تصرفاته هذه أدت الى قطع رأســه فى مصر بتعليمات من القسطنطينية ومصــادرة غنائمــه .

لم يؤد الفشل الذى لحق بالحملتين السابقتين للاتراك الى تثبيط همم السلطان سليمان ، اذ أن جزءا كبيرا من ذلك الفشل كان يعود الى ســوء تصرفات قواد حملته الذين هدفوا فى النهاية الى جمع الغنائم وبالعكس من ذلك ، فان نجاح الأسطول التركى فى حملته على مسقط وتمكنه من أسر قائد الحامية البرتغالى هناك خلق مزيدا من الحوافز على محــاربة التواجــد البرتغالى فى منطقة الخليج .

وبناء على تعليمات السلطان سليمان ، قاد مراد باشـــا والى قطيف ، حملة فاشلة أخرى عام ١٥٥٣ ، حين تمكن القائد البرتغالى الذى كان على علم مسبق بتلك الحملة القادمة من البصرة ، من الحاق هزيمة نكراء فى قطع أسطوله فى مداخل الخليج • ولكن سرعان ما أمر السلطان سليمان باعـــداد حملة أخرى الى مياه الخليج ، وكان يقود الحملة هذه المرة سيدى على بن حسين وهو بحار متمرس ، شارك فى حملات بحرية تركية سابقة تحت أمرة قواد مشهورين مثل بربروسا وخير الدين ، وكان قد عين أدميرالا فى مصر مكافأة له على خدماته السابقة ، الا أن القائد التركى وضع تقديرات متدنية لقدرات البرتغاليين •

وقامت أقوى معركة فاصلة بين الأسطولين فى المياه الاقليمية لمسقط انتصر فيها البرتغاليون مرة أخرى ولاذ سيدى على بالفرار الى الهند خوفا من اعدامه فى حالة العودة الى اسطمبول وبقى يتنقل بين سورات والمـــدن الاخرى فى الهند لمدة ثلاثة أعوام عاد بعدها الى اسطمبول حيث وجد أن القضية قد خفت حدتها فأحيل هو وخمســـون آخـــرون من مرافقيـــه الى التقاعد •

ولمدة تزيد عن عشرين عاما كانت المياه الخليجية هادئة من أية محاولة تركية مستجدة • ولكن فى عام ١٥٨٠ م وصلت شـــائعات الى مســـقط بأن الأتراك يستعدون لحملة بحرية يتم تجهيزها فى عدن • الا أن قائد الحامية البرتغالية فى هرمز لم يصدق تلك الأنباء ، وبرغم محـــاولات والى مسقط التأكد من مدى صحة تلك الأنباء الا انه لم يتم اتخاذ اجراءات دفاعية واقية لتلك الحملة فى مسقط •

كان قائد الحملة التركية تلك مثابر تركى اسمه سير على بيج الذى قاد حملة من أربع سفن فقط من عدن فى أغسطس ١٥٨٠ م • وكان وصوله الى مسقط فى ٢٢ سبتمبر من ذلك العام • واتبع المغامر التركى تكتيكا جـــديد

لتحقيق الانتصار . فبدلا من مهاجمة مسقط من الساحل فقط ، فانه نزل بجزء من وحداته تقدر بـ ١٥٠ مقاتل فى قرية سيداب فى الجانب الخلفى من مسقط ، ووزع ليلا تلك الوحدات على أبواب سور مسقط الثلاثة على أن يبدأ الهجوم برا من الخلف فى نفس الوقت الذى تبدأ السفن باطلاق نيرانها من الأمام .

وبرغم أن عدد البرتغاليين فى مسقط فى تلك الفترة كان يصل الى ٥٠٠ شخص الا أن ٧٠ شخصا منهم فقط كانوا قادرين على حمل السلاح . وأدى الظهور المفاجىء للعدو من الأمام والخلف الى اثارة البلبلة بين صفوف المدافعين والمدنيين الذين هرب أكبر عدد منهم مع أسرهم الى مطرح .

وأدرك على بيج بعد تحقيق انتصار سريع انه ليس من مصلحته البقاء كثيرا فى مسقط خوفا من قدوم نجدات للبرتغاليين ، فاكتفى بالغنائم التى استطاع جمعها فى يوم واحد وبعد شحنها على السفن توجه الى عدن ، ليقوم بعدها بغارات خاطفة على المواقع البرتغالية فى شرق افريقيا ، الا أنه أثناء حملته عام ١٥٨٩ وقع أسيرا بيدى قائد الحامية البرتغالى فى ممباسا : دوم داسوزا كوتينهو ونقل الى لشبونة حيث تنصّر ومات ربما من أثر التعذيب الذى لقاه .

الصراعات الأوروبية فى مياه الخليج :

خلال الفترة من آخر حملة تركية سنة ١٥٨٠ الى ١٦٢٠ بداية الصراع البرتغالى مع القوى الأوروبية الأخرى ، بقيت المدن الساحلية على ضفاف عمان هادئة بالنسبة للبرتغاليين ، وقد تعلم البرتغاليون درسا من الحملة التركية على مسقط عام ١٥٨٠ ، فبدأوا بتقوية استحكاماتها عن طريق بناء قلعتين ضخمتين على جانبى الميناء فى مسقط هما قلعة سان جوا (جلالى حاليا) وانتهوا منها عام ١٥٨٧ ثم قلعة كابيتان (ميرانى حاليا) انتهوا من بناءها عام ١٥٨٨ م .

وخلال فترة الهدوء النسبية كانت الملاحة العمانية ودور البحـــارة العمانيين فى نمو متزايد • وفى عام ١٦١٥ م ، أصبح الأســطول التجارى لصحار ينافس أسطول مسقط ، الأمر الذى كان يقلق البرتغاليين • وفى نفس العام أو بداية ١٦١٦ م قام والى صحار محمد بن مهنا بهجوم كاسح على السيب التى كانت خاضعة لنفوذ الأمير عمير بن حمير حيث قتل شقيقه على ابن حمير • وقد آثر البرتغاليون مساندة الأمير عمير بن حمــير فى حملته الانتقامية ضد والى صحار ، فقدموا اليه عوضا بحريا بأسطول مكون من ٥ سفن بقيادة دوم فاسكودا جاما انضم اليه فيما بعد أســطول مكون من ٦ سفن بقيادة دوم فرانسيسكو وليم الذى جاء بسفن من جوا مركز نائب الملك والحاكم العام للسلطات البرتغالية فى الشرق • وقد انتصرت الحملة المشتركة حيث قتل الوالى محمد بن مهنا وقام البرتغاليون بنهب المدينــة وسبى النساء قبل اشعال النيران فى المدينة وتدميرها تماما •

الفصل الثانى

الدولة العمانية فى عهد دولة اليعاربة

نشأة الامبراطورية العمانية فى عهد اليعاربة :

تحرير الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية :

تكاثفت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية لتساهم ليس فى طرد البرتغاليين الغزاة من الأراضى العمانية فقط ، بل الى نجــاح العمانيين فى انشاء أول امبراطورية لهم فى تاريخهم الذى تمتد جذوره الى عدة قرون قبل الميلاد .

ومن أبرز العوامل الداخلية ظهور قيادات وطنية قوية استطاعت أن توحد الكلمة وتزيل الخلافات الداخلية وتتمتع بمزايا شخصية فريدة ، منها الايمان بالله والتضحية بالذات والعمل المتواصل الدؤوب دون كلل أو بأس . كما ان تطور الوعى بين السكان ووحدة كلمتهم ضد العدو المشترك ســاعد كثيرا على انجاح مهمة تلك الزعامات الوطنية .

وكانت العقيدة الدينية والمتمثلة بالجهاد فى سبيل الله من العــوامل المهمة فى نجاح تلك القيادات ، ذلك أن الانسان المسلم عندما يحارب عدوا غير مسلم ، فان السعادة تمتلك جوارحه سواء أدت الحروب الى النصر أو الشهادة . والى جانب تلك العوامل الفكرية كانت الأداة تجارى الأهداف . تلك الأداة كانت تتمثل فى قوة البحرية العمانية التى نمت عبر عدة قرون . وكذلك وعى القيادات الوطنية بضرورة تقوية البحرية وتدريب الجنــــود وتقوية الاستحكامات قبل وأثناء الخوض فى الحروب ضد العدو .

أما العوامل الخارجية والظروف الاقليمية والدولية التى ساهمت فى نجاح جهود المسلمين العمانيين ضد عدوهم البرتغالى هى أولا : صراعات الدول الأوروبية ببعضها فى مياه الخليج • فبرغم ان الانجليز لم يقدموا أية مساعدة للعمانيين فى حروبهم ضـد البرتغاليين الا أن صراعاتهم ببعضهم واتخاذ الانجليز موقف الحياد فى الصراعات العمانية البرتغالية ، قد أدت بلا شك الى اضعاف قدرات البرتغاليين فى النمو والحـد من سـيطرتها ونفوذها فى مياه الخليج •

ومن العوامل الخارجية الأخرى سقوط هرمز بيد الانجليز عام ١٦٢٢ • اذ أن سقوط هذه المدينة أدى الى زوال السيطرة البرتغالية عن أهم معقل لهم فى الخليج وبالتالى خلق المناخ النفسى لظهور حركات تحرير الموانى من كل سيطرة برتغالية •

لقد تم انشاء الامبراطورية العمانية عبر مرحلتين أساسيتين ، تمثلت المرحلة الاولى فى طرد البرتغاليين من المدن العمانية السـاحلية الى جانب تحقيق الوحدة الوطنية وتأسـيس حكم مركزى شـامل على كافة التراب العمانى •

وتمثلت المرحلة الثانية فى تحقيق الفتوحات العمانية فى المدن الساحلية على ضفتى الخليج وفتوحات أخرى فى الموانىء المهمة على الساحل الشرقى من افريقيا • كانت أداة المرحلة الأولى أساسا القوات البرية بينمـا كانت أداة المرحلة الثانية القوات البحرية •

تولى تحقيق أهداف المرحلة الأولى ، الامام ناصر بن مرشد اليعربى والذى حكم عمان قرابة ربع قرن • وبرغم أنه بويع اماما بترشيح من قبل مجلس العلماء يقوده العالم الدينى القاضى خميس بن سعيد الشقصى والذى كان زوجا لأم الامام ناصر بن مرشد ، الا أن مؤثرات شخصيته وقوتهـا

واخلاصه هيأت المناخ ليتولى الامامة من بعده أبناؤه وأحفاده قرابة قرن من الزمن • وقد ساعد على انتخـابه اماما الى جانب مواهبـه الشخصية واتصافه بالاستقامة والنزاهة والتدين ، انتشار الفوضى فى العهد الأخير من حكم بنى نبهان • فبرغم أن سلطة بنى نبهان لم تكن قوية لفترة طويلة قبل هذه الأحداث الا أن نشأة الصراعات على الزعامة بينهم زاد من تدهـور أوضاعهم وخلق الحاجة الى البحث عن زعامة جديدة • ففى عام ١٦٠٧ برز التنافس حادا بين نبهان بن فلاح وابن عمه عمير بن حمير الذى استطاع أن يحقق انتصارا على قوات نبهان فى ينقل • ولكن بموت عمير بن حمير بعـد ذلك بعدة أعوام ، وقعت البلاد مرة أخرى فى فوضى كاملة •

كانت عمان فى هذه الفترة مقسمة الى مناطق شـبه مستقلة فى معظم الأجزاء • وكان اليعاربة أيضا يتقاسمون تلك السلطات • فالرسـتاق كان يحكمها مالك بن أبى العرب اليعربى ، ونخل يحكمها سلطان بن أبى العرب وسمائل مانع بن سنان العميرى ، وسمد الشـأن على بن قطان الهـلالى ، وعبرى محمد بن جفير بن جابر ، وبهلى وبلاد سيت كانتا خاضعتين لسـيف ابن محمد الهنائى ، وحصن الجابى كان خاضعا لنفوذ بنى هـلال ومقنيات كانت خاضعة لسيف بن محمد بن جيفر ومنطقة جلفـار كانت بها قلعتـان احداهما تابعة للفرس تحت حكم ناصر والأخرى للبرتغاليين تحميها سفينتان برتغاليتان • والى جانب ذلك فان المدن الساحلية المهمة : مسقط ، صحار ، قلهات ، صور ، قريات ، لوى كانت خاضعة للنفوذ البرتغالى •

كان من الطبيعى أن يوجه الامام جهوده فى المرحلة الأولى نحو تحقيق الوحدة الوطنية واخضاع معظم المناطق تحت سيطرة الحكومة المركزية • ولم يفرق الامام فى ذلك بين أبناء قبيلته وزعماء المناطق الاخرى ، بـل بالعكس من ذلك ، فان أولى حملاته توجهت نحو ابن عمه مالك بن أبى العرب

اليعربى حاكم الرستاق ؛ وبعد حصار قوى حول قلعتها استطاع اخضاعها ثم توجه بعد ذلك الى النخل الخاضعة لعمه سلطان بن أبى العرب وتمكن من اخضاعها أيضا بعد حصار دام عدة أيام ، وعين عبد الله بن سعيد الشقصى واليا عليها • كما تمكن بعد ذلك من اخضاع سمائل تحت سلطته نتيجة تأييد الأهالى • وكانت نزوى من أهم المدن التى سعى الامام لاخضاعها خصوصا وأنه وردت اليه رسائل من أهلها تعلن ولاءهم له • وقاد الحملة بنفسه مرورا بازكى التى أعلنت ولائها له • ثم تمكن من اخضاع نزوى تحت سلطته حيث بنى حصنا جديدا •

وكانت لانتصارات الامام الى جانب الأخبار المتناقلة عن عدله ورأفته بالعفو عن المعارضين السابقين أثر فى اعلان مزيد من الولاء من جانب السكان فى مناطق مختلفة • فتمكن بعد ذلك من اخضاع سمد الشأن حيث استطاع الحاق الهزيمة بقوات على بن قحطان الهلالى ؛ كما أخضع ابرا حيث أتاه سكانها معلنين البيعة • وفى منطقة الظاهرة بذل الامام جهودا مضنية لاخضاعها قتل فيها شقيق الامام جاعد بن مرشد ، الا أن الامام تمكن من اخضاع المنطقة تحت سلطته • ولم تحد فتوحات الامام الداخلية من محاولات التمرد الا ان انتصاراته المتلاحقة كانت كفيلة بالقضاء على تلك المحاولات •

أدت الفتوحات الداخلية للامام ناصر بن مرشد وسيطرته على أهم المدن والقلاع فى عمان الداخلية والشرقية والظاهرة الى تهيئة الظروف المناسبة لبدء عملية تحرير التراب العمانى من السيطرة البرتغالية • واعتمد الامام فى حربه التحريرية على قوات القبائل البرية ولم يكن للأسطول العمانى دور رئيسى فى تلك الحملات •

توجهت أولى حملات الامام نحو جلفار (رأس الخيمة حاليا) وتعرف تلك المنطقة عند المؤرخين العمانيين بالصير • ففى بداية الثلاثينيات عندما

فشل البرتغاليون فى استئجار هرمز مرة أخرى من الحكام الفرس بعـــد أن فقدوها عام ١٦٢٢ قرر القائد روى فرير بناء حصن فى جلفار قرب حصـــن للفرس هناك • الا أن الامام ناصر وجه حملة بقيادة على بن أحمـــد حيث دارت معركة بين مدافعى القلعة الفارسية بزعامة ناصر الدين والمدافعين عن القلعة البرتغالية التى كانت تحميها سفينتان حربيتان ، وقد تمكن القـــائد العمانى على بن أحمد من تحقيق الانتصار على القلعة الفارسـية برغم أن البرتغاليين كانوا يمدونها بالمؤن والذخيرة • وكافأه الامام بتعيينه واليا على حصن الصير •

وبعد ان انضمت الى القائد العمانى احـــدى القبائل العربيـــة بزعامة خميس بن مخزوم الذى عاهد على بن أحمد على الاخلاص والوفاء ، استمرت الحرب التحريرية ضد الحصن البرتغالى • استطاعت القوات العمانية اجبار البرتغاليين على الاستسلام بطلب الامان فوافق القائد العمانى بشرط تسلم الحصن ، وبعد ان عين أحد أقاربه واليا عليها عاد الى نزوى منتصرا •

وفى هذه الفترة التجأ حاكم لوى الشيخ سيف بن محمد ، الذى كان فى حالة عداء مع الامام ، الى البرتغاليين طالبا مساعدته ضد قوات الامام فقام البرتغاليون بامداده بقوات صغيرة أرسلت من صـــحار التى كانت لا تزال خاضعة للبرتغاليين • فقام الامام بتوجيه حملة الى لوى اســـتطاع خلالها الحاق الهزيمة بقوات الشيخ سيف بن محمد وتعيين وال من قبله •

وقد شجعت هذه الانتصارات الامام على المضى قدما لتحرير صحار ، المعقل الرئيسى الثانى للبرتغاليين بعد مسقط • فأعد حملة بقيادة واليه على لوى حافظ بن سيف الذى أمره الامام ببناء حصن جديد فى مواجهة الحصن البرتغالى •

وقد وصـــلت قوات الوالى حافظ بن ســـيف عام ١٦٣٣ الى صـــحار فعسكرت بقرية عمق • وبرغم ان البرتغاليين استعملوا أكبر قدر من النيران

المكثفة الا أن القائد العمانى تمكن من بناء حصن جديد كما أمره الامام • وقد كلفت هذه المعارك فقدان واحد من أبرز القادة العمانيين العسكريين : راشد بن عباد •

وأدت هذه المعركة الى تحرير صحار من الحكم البرتغالى برغم ان الحصن ظل تحت سيطرة البرتغاليين حتى عام ١٦٣٤ م ، وقد أدى نجاح تحرير صحار الى توجيه الحملات نحو صور وقريات والتى استطاع الامام تحريرها من البرتغاليين أيضا •

أما بالنسبة لتحرير مسقط ، فقد جرت أكثر من محاولة خلال الأربعينات من القرن الخامس عشر ، الا أن نجاح العمانيين كان حليفا عام ١٦٤٨ م • ففى هذه الحملة التى تولى قيادتها الشيخ مسعود بن رمضان ، استطاع القائد العمانى أن يفرض حصارا على مسقط خلال الفترة من ١٦ أغسطس الى الحادى عشر من سبتمبر ، وخلال فترة الحصار تمكنت القوات العمانية من الاستيلاء وهدم برج المراقبة الساحلية فى مسقط ، وهدم القلعة البرتغالية الى درجة أن البرتغاليين عرضوا البحث عن اتفاقية سلام • وقد تضمن العرض العمانى على الشروط التالية :

١ — تسليم وتدمير الحصون البرتغالية فى قريات وصور •

٢ — الغاء الجمارك التى كان يدفعها العمانيون لمنتجاتهم القادمة من الداخل الى مسقط وتدمير سور المدينة •

٣ — أن يدفع البرتغاليون جزية مقدارها ٢٠٠ ألف بارادوس •

واذ وجد البرتغاليون أن تلك الشروط باهظة الثمن حاولوا الاستمرار فى المقاومة لمدة ٦ أسابيع أخرى اضطر بعدها القائد البرتغالى دوم جولياو دا نورونها التوقيع على اتفاقية الاستسلام فى ٣١ أكتوبر • وبموجب تلك الاتفاقية وافق البرتغاليون على شروط الوفد العمانى اضافة الى هدم حصن

مطرح وتسليم كافة الممتلكات البرتغالية فى صحار ودفع جزية سنوية للعمانيين ، الا أن الحصون فى مسقط بقيت بأيدى البرتغاليين .

بموت الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ ، فان جزءا مهما من عوامل انشاء الامبراطورية العمانية قد تم تأسيسه . ويتمثل ذلك فى نجاح الامام ناصر بن مرشد من تصفية الوجود البرتغالى من عمان باستثناء مدينة مسقط . ويمكن اعتبار هذه المرحلة مهمة وأساسية للمرحلة التالية التى تم خلالها انشاء الامبراطورية العمانية والتى تولى زمامها الأئمة اليعاربة الأوائل الذين خلفوا الامام ناصر بن مرشد وبالدرجة الأولى الامامين سلطان بن سيف الأول وسيف بن سلطان الأول .

تحرير مسقط :

وقد تحققت فى عهد الأئمة الأوائل من اليعاربة ثلاثة أهداف رئيسية :

١ — تحرير البقية الباقية من الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية .

٢ — توسيع سلطة ونفوذ عمان فى منطقة الخليج والمحيط الهندى .

٣ — سيطرة العمانيين على أجزاء كبيرة من شرق افريقيا واخضاعها للحكم العمانى بعد تحريرها من السيطرة البرتغالية .

وكانت الأداة الرئيسية لهذه الأهداف التطور الذى أصاب الأسطول العمانى والقدرات القتالية للمحارب العمانى . ولم تكن تلك الاهداف لتخلو من عراقيل كبيرة ... فقد حدثت عدة أشكال من التمرد والعصيان خصوصا عند انتخاب أو تعيين امام جديد . الا أن الأئمة الأوائل من اليعاربة كانوا قادرين على درأ تلك المخاطر وقمع محاولات التمرد والعصيان وفرض السلطة المركزية مرة أخرى .

كانت أولى المهام التى التزم بها الامام سلطان بن سيف والذى خلف الامام ناصر بن مرشد ، هو تحرير بقية الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية • وكانت مسقط هى الهدف الرئيسى والنهائى لهذه المرحلة من الصراعات العمانية البرتغالية • ولم يكن تحرير مسقط عملية سهلة أبدا • فقبل الوصول الى مسقط كان يستلزم السيطرة على مطرح حيث كان حصنها مزودا بوسائل دفاعية قوية من قبل البرتغاليين • ومسقط نفسها كانت محاطة بسورين من الخلف تجمعها عدة حصون مزودة بالأسلحة • كما أن تحرير الميناء كان يستلزم السيطرة على القلعتين الغربية والشرقية (ميرانى وجلالى حاليا) واللتين كانت تحميها حامية برتغالية مزودة بأسلحة دفاعية متطورة الى جانب المبنى البرتغالى بين القلعتين والذى كان يسميه البرتغاليين (جريزا) وكان بمثابة مركز مؤن وذخيرة للبرتغاليين ، الى جانب وجود سفينتين برتغاليتين فى عرض البحر ، كانت تطلق نيرانها على المهاجمين • فكان من الواضح أن محاولة الامام سلطان بن سيف تحرير مسقط عملية تعتبر من الناحية العسكرية من أصعب المحاولات •

اتخذ الامام سلطان بن سيف عدم سداد البرتغاليين للخزينة السنوية ذريعة لاعلان الحرب فى أواخر عام ١٦٤٩ أو بداية ١٦٥٠ م • وبعد أن وجه نداء الى القبائل العمانية بالتجمع فى سيح الحرمل ، بدأ بشن هجماته من الأسوار الخلفية لمسقط ••• وبدأ الامام هجمات خاطفة على الأسوار الخلفية لمسقط ، كما انه فرض حصارا طويلا حول مسقط لمنع المؤن من النفاذ الى البرتغاليين ••

وكانت الحاميات البرتغالية فى الحصون الخلفية قادرة على صد الهجمات ، وتكبد العمانيون بين ٤ — ٥ آلاف شهيد فى محاولة تحرير مسقط • وقد استغل الامام كل الفرص الممكنة لتحقيق هدفه مستغلا نفاذ المؤن والذخيرة • واختار فجر يوم الأحد توقيتا ملائما لشن هجمته الحاسمة، وذلك بناء على نصيحة أحد الهندوس المقيمين فى مسقط واسمة ناروتام ،

والذى أبلغ الامام بأن البرتغاليين يكونون عادة سكارى يوم الأحد ، وكان هذا الهندوسى على خلاف مع أحد القواد البرتغاليين بسبب اصرار الأخير على التزوج من ابنته ٠

وقد تمكن العمانيون من شن تلك الحملة المفاجئة ونجحوا فى الاستيلاء على أسوار مسقط الخلفية ، واحتـلال المدينة وكانت نتيجة انتصـارهم استسلام قائد الحامية البرتغالى فى مطرح واحاطة العمانيين بعد ذلك مبنى « الجاريزا » المطلة على الساحل ٠ فآثر القائد البرتغالى تركها واللجوء الى قلعة كابيتان (ميرانى حاليا) تاركا مسألة الدفاع عنها للحرس المكون من البلوشيين ٠

ولم تستطع السفينتان البرتغاليتان اللتان كان يتولى قيادتهما الكابتن براز كالديرا دورا مهما فى المعركة ، فاضطر القائد البرتغالى الى الاستسلام الكامل يوم ٢٣ يناير ، وبرغم أن الفارين من البرتغاليين وصلوا الى الهند وأبلغوا السلطات البرتغالية فى جوا ، الا أن النجدة البرتغالية عندما وصلت الى مياه مسقط ، كانت القلعتان ميرانى وجلالى قد استسلمتا للعمانيين ٠

ويبدو ان الامام سلطان بن سيف قد تمكن فى نفس العام من تحرير خصب من البرتغاليين ٠

وكانت تأثيرات تحرير مسقط بالغة الأهميـة ليس بالنسـبة للقضية الوطنية فى عمان ، بل أيضا بالنسبة لازدهار التجارة الدولية عبر منطقـة الخليج ٠ فتشير التقارير الاقتصادية أن تحرير مسقط قد أدى الى ازدهار فى تجارة الهولنديين ، فوصلت فى عام ١٦٥١ أحـد عشر سـفينة محمـلة بالبضائع من هولندا الى جمبرون ، المركز التجارى للهولنديين فى الخليج ٠ كما ان الامام سلطان بن سيف عرض على الهولنديين استعداده للمساهمة فى نقل البضائع برا من أبو ظبى عبر القطيف الى البصرة ، مما يؤكد متانة مركز الامام واهتماماته الاقتصادية ٠

بداية الفتوحات العمانية :

كما سبق وان قلنا ، فان الفتوحات العمانية خارج المياه الاقليمية لعمان كانت أداتها الرئيسية الأسطول البحرى • وقبل الخوض فى تفاصيل العمليات البحرية التى امتدت فى اتجاهين رئيسيين : منطقة الخليج والمحيط الهندى وشرق افريقيا ، فانه من الأجدر الالمام ببعض المعلومات عن القوة البحرية العمانية فى عهد اليعاربة أى فى القرن السابع عشر •

وفى الواقع فانه لا توجد احصاءات دقيقة تبين عدد السفن البحرية من كل نوع ، ولكن هناك معلومات مهمة توضح نوعية تلك السفن وأنواع تجهيزاتها ، كما أنه من المعلوم أن حكام عمان فى أوقات الحرب كانوا يعتمدون على السفن التجارية الخاصة كأداة معاونة فى نقل الجنود والأسلحة والمؤن •

ويمكن تقسيم قطع الأسطول البحرى لعمان فى عهد اليعاربة الى ثلاثة أنواع : قوارب أو سفن للنقل الخفيف ، سفن متوسطة الحجم تصلح أساسا كأداة رئيسية للنقل الخارجى ثم سفن تجارية وحربية كبيرة بعضها مزودة بعشرات المدافع • والسفن أو القوارب الخفيفة عرفت أنواعها بالهورى والماشوا والعبرة والبقارة ، وهى سفن صغيرة تصلح لنقل المواد من السفن الكبيرة الى الشواطىء فى المياه الضحلة ، ومعظمها لا تستعمل الشراع ، ثم السفن المتوسطة : البغلة وهى تشبه البدن والبوم والسمبوك والجالبوت وهى سفن شراعية كانت تقوم برحلات النقل التجارى فى المحيطات •

وابتداء من امامة سلطان بن سيف الذى خلف الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ ، زاد الاهتمام نحو تطوير البحرية العمانية وتحديثها وأعقبه فى ذلك معظم الأئمة من اليعاربة فيما بعد • ونتج عن هذا الاهتمام امتلاك الأسطول العمانى لسفن على الطراز الأوروبى كانت تبنى فى موانىء الهند مزودة بمدافع وأسلحة ثقيلة •

وبمرور الوقت وبنهاية القرن السابع عشر ؛ أى بعد حوالى ٥٠ عاما من الجهود المضنية ؛ أصبحت البحرية العمانية أقوى بحرية فى المحيط الهندى باستثناء بعض السفن الأوروبية الضخمة • وكانت قادرة على ارهاب الأعداء فى المنطقة والملاحين الأوروبيين على حد سواء وأصبح الأسـطول العمانى يتولى مسؤولية رئيسية فى منح الحماية للتجارة الدولية عبر المحيطات •

وتأتى التقارير أكثر دقة فى نهاية عهد الامام سيف بن سلطان الذى توفى عام ١٧١١ بعد حكم دام حوالى ٣٢ عاما • فتشـير التقـارير الى أن السفن العمانية كانت رباعية الأشرعة ويقول هاملتون انه فى عام ١٧١٥ فترة حكم الامام سلطان بن سيف الثانى كانت القوة البحرية للدولة تتشكل من سفن أوروبية الطراز ، احداها مزودة بأربع وسبعين مدفعا واثنتان بستين مدفعا ، وواحدة بخمسين مدفعا و ١٨ سفينة كل منها مزودة بـ ٣٢ الى ١٢ مدفعا • ومجموعة أخرى بثمانية الى أربعة مدافع •

ويقول بادجر ان عدد السفن فى عهد الامام سيف بن سلطان بلغت ٢٨ سفينة • أما السالمى فيورد أسماء للسفن العمانية ويقول أنها سميت : الملك ، الفلك ، وكعب رأس والناصر والواف ، وان سفينة الملك كانت مزودة بثمانين مدفعا • ولم يتوان الامام سيف بن سلطان من الاستعانة بالخبرات الأوروبية فى سبيل تسيير تلك السفن ، فقد عرف ان الامام عين مجموعة صغيرة من البحارة الانجليز للعمل على السفن العمانية •

وقد توجهت الحملات العمانية صوب العديد من المنـاطق فى المحيط الهندى والخليج وشرقى افريقيا على شكل هجمات خاطفة فى البداية قبـل أن تتحول الى فتوحات مستقرة ، وقبل أن تصـبح تلك المناطق جزءا من الامبراطورية العمانية • وتجدر الاشارة هنا بأن التواجد العمانى فى الخليج والمحيط الهندى وعلى سواحل شرق افريقيا سبق بمراحل عمليات الحملات البحرية ومحاولات الاستقرار والفتوحات •

ففى منطقة الخليج والمحيط الهندى كان البحارة العمانيون كما أسلفنا يلعبون دورا بارزا فى عمليات النقل التجارى الدولى •

أما فى شرق افريقيا . فمنذ الأزمنة القديمة دأب الملاحون العمانيون على تسيير رحلاتهم وفق الظروف المناخية السائدة • فخلال فترة الرياح الموسمية القادمة من الشمال الشرقى خلال أشهر ديسمبر الى مارس من كل عام كان البحارة العمانيون يتجهون بسفنهم الى ســواحل شرق افريقيا ؛ وخلال فترة موسم الرياح الجنوبية الغربية وخلال أشهر أبريل حتى أواخر سبتمبر كانت تلك السفن تعود الى شبه الجزيرة العربية محملة فى ذهابها وايابها بالبضائع التى كانت محل تداول •

وأثناء تلك المبادلات التجارية بين البحارة العرب وسكان شرق افريقيا والتى كانت عناصرها الذهب والزجاج ، نتجت المحاولات الأولى للاستقرار المؤقت المحدود فى سواحل شرق أفريقيا • ثم بدأت موجات الهجرة العمانية تتتابع منذ القرن الهجرى الأول نتيجة الاضطرابات السياسية التى شهدها العالم الاسلامى بعد وفاة الرسول (صلعم) •

وتقول الروايات أن عرب عمان نجحوا فى تأســيس بعض الامارات العربية فى الشرق الأفريقى أثناء العشرين سنة التى تلت وفاة النبى (صلعم)، كما ان الاضطرابات التى حصلت فى بداية العهد الأموى قد أدت الى لجوء الحكام العمانيين عام ٦٨٢ هـ الى بلاد الزنج • وفى عام ٦٩٥ هـ أدت الخلافات السياسية بين الخليفة الأموى عبد الملك والزعماء العمانيين من أبناء الجلندى الى هجرة مجموعة من قبيلة الازد العمانية الى سواحل شرق افريقيا ومن المعتقد انهم استقروا فى جزيرة مافيا •

وقد أدت هذه الموجات المتلاحقة من الهجرة الى بداية ظهور السيطرة العربية القبلية فى العديد من المدن فى شرق افريقيا • وقد ساعد على نشأة

الحكم العربى فى تلك المدن ضعف الحكم المركزى للقبائل الافريقية . الى جانب تمسك العرب المهاجرين بلغتهم ودينهم ثم تزاوجهم من أبنـاء شرق أفريقيا والذى نتج عنه ظهور جيل من المسلمين الافريقيين العرب • كما أن خبرتهم التجارية المتفوقة على خبرة أبناء شرق افريقيا منحتهم السـيطرة الاقتصادية التجارية وما ترتب عليها من نفوذ سياسى متطور •

وعندما زار المسعودى ساحل شرق افريقيا فى القرن الخامس الهجرى . ذكر أن الامارات العربية تمتد من مقديشيو شمالا حتى سفالا جنوبا ، وتشمل عدة موانىء مثل برادة ومالندى وسيوه وكلوه والتى كانت أهمها • ورغم ذلك لم يحاول العرب انشاء دول مستقلة فى تلك المنـاطق ، اذ أن غالبيـة السكان كانت من الافريقيين . الا أن النفوذ العربى المتنامى قد هيـأ لأية محاولة عربية اسلامية لفتح تلك المناطق . خصوصا الكراهية التى كان يكنها العرب للبرتغاليين الذين تمكنوا من الاستيلاء على معظم تلك المدن •

ولهذه الاسباب عندما نجح الامام سلطان بن سيف من تحرير المـدن العمانية كلها من السيطرة البرتغالية ، فان أخبار تلك الانتصارات قد حفزت أبناء تلك المدن وخصوصا أهالى ممباسا الى طلب النجدة من الامام سلطان ابن سيف لتحريرهم من السيطرة البرتغالية • وقد قرر الامام سلطان بن سيف الذى انتقل من سياسة الدفاع الى الهجوم فى صراعه مع البرتغاليين التجاوب مع نداء العرب المسلمين المقيمين فى تلك المناطق • فوجه عام ١٦٥٥ أسطولا مكونا من عدة سفن لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا واستطاع الاسطول العمانى من تدمير استحكاماتها وكنيستها والاستيلاء على الغنائم •

وبرغم أن هذه الحملة لم تتمكن من فتح تلك المناطق وضمها الى عمان ، الا أن نجاح الحملة قد دفع بأهالى تلك المناطق الى اعلان تمرد شامل ضد

السلطات البرتغالية فى تلك المناطق • وقد تمكن البرتغاليون بعـد ذلك من ارسال حملة بقيادة فرنسيسكو سيكاساسى كابوا لقمع التمرد والانتقـام من المسلمين الثائرين •

كما أن جزءا من حملة عام ١٦٥٥ توجهت نحو التواجد البرتغـالى فى المحيط الهندى ، وقد تمكنت الحملة فى بومباى ، والتى كان يسميها العرب جلابه (بضم الجيم) من جمع الغنائم •

أصبح مهاجمة التواجد البرتغالى فى المحيط الهنـدى وشرق افريقيا ومحاولة تحرير تلك المناطق وضمها تحت الحكم العمانى سياسة ثابتة للامام سلطان بن سيف الاول • فقـام فى عام ١٦٦٠ م بمبـادرة جديدة ضـد البرتغاليين واستطاعت الحملة العمانية من الاستيلاء على فازا وممباسا •

وكان من نتائج هذه الحملة ضم ممباسا رسميا الى سلطة الحـكم العمانى وتعيين الشيخ محمد بن مبارك واليا على ممباسا • وبالتالى يمكن اعتبار هذه الحادثة بمثابة أول اعلان لقيام الامبراطورية العمانية ، ذلك برغم أن البرتغاليين تمكنوا فى العام التالى من اعادة اخضاع ممباسـا وحاولوا هذه المرة استرضاء المسلمين بتعيين مسلم : مهنا اغو •

خلف الامام بلعرب والده سلطان بن سيف الاول حوالى عام ١٦٦٨ • وبرغم ان هذا الامام لم يقدر له حكم طويل اذ مات منتحرا حـوالى عام ١٦٧٩ نتيجة صراعه القوى على السلطة مع أخيه سيف بن سلطان ، الا أنه خلال حكمه الذى أمتد ما يقارب من عقد كامل آثر على تتبع منهج والده فى محاربة البرتغاليين شرقا وغربا ، بل ان الامام بلعرب وسع من دائرة أهداف انشاء الامبراطورية فى محاولة لضم مناطق فى الخليج خاضعة للبرتغاليين • فوجه عام ١٦٦٩ حملتين صوب قشم التابعة للبرتغاليين وهرمز التابعـة للفرس •

وفى نفس العام أعد الامام أسطولا من ٢٨ سفينة حربية لتحـــرير ممباسا من السيطرة البرتغالية وأقسم بتحقيق هذا الهدف أو الموت دونه . وكانت قوة الحملة كبيرة الى درجة أن الامام تشجع الى توجيه الحمـــلة جنوبا الى موزمبيق فى محاولة لتحريرها أيضــا برغم أن الحملة لم تحقق هدفها هذه المرة بسبب الكثافة النـــيرانية من الحامية البرتغالية فى قلعتها بقيادة جاسبارا دسوزا دو لاكيردا .

وفى العام التالى أرسل الامام بلعرب حملة الى مدينة دبو فى الهنـــد والتى كانت تخضع للحكم البرتغالى . وقـــد استعمل العمانيون وســـائل تكتيكية معقدة ، فقد نزل الجنود ليلا فى المدينة فى جنح الظـــلام وفى وقت الفجر ، وعندما فتحت أبواب القلعة اندفع العمانيون الى الداخـــل ليقابلوا المدافعين البرتغاليين .

ولمدة ٣ أيام متتالية كان العمانيون يجمعون الغنائم ، ولم يجد القائد البرتغالى وسيلة لدرأ المخاطر سوى اطـــلاق سراح المساجين من العبيـــد ومنحهم الحرية مقابل الدفاع ضد العمانيين . ونتيجة لذلك تمكنت القوة البرتغالية المكونة من حوالى ٤٠٠٠ جندى وسجين من قتل حوالى ألف عمانى واجبار الباقين على الفرار .

وكما أسلفنا ، فإن الأئمة اليعاربة استطاعوا أن ينتقلوا من موقع الدفاع الى الهجوم ضد المراكز التجارية البرتغالية ؛ ولكن فى عام ١٦٧٣ م حاول البرتغاليون أن يتبنوا سياسة الهجوم مرة أخرى . وقام نائب الملك فى جوا بارسال أسطول ضخم هدفه تمشيط الســـفن العمانيـــة فى المحيط الهندى واظهار التفوق البرتغالى . وغادر الاسطول البرتغالى فى سبتمبر من هذا العام ولكنه عند وصوله الى مسقط تأكد عدم قدرته على مواجهـــة بطاريات الدفاع القوية فى قلاع مسقط ، فقرر بدلا من ذلك انزال القـــوة

فى قرية سداب قرب مسقط ونجح فى التوغل حتى الأسوار الخلفية لمسقط ثم عاد ادراجه •

ولم يقف الامام موقف المتفرج فسرعان ما جهز أسطولا من عشرة سفن تجارية فى ديسمبر من نفس العام وبعد تحويلها الى سفن عسكرية توجهت صوب الهند وتمكنت من تدمير معظم سفن الأسطول البرتغالى التى وجدتها قرب دبو • وفى شهر فبراير من العام التالى ١٦٧٤ م ، أرسل الامام قوة عمانية من ٦٠٠ مقاتل الى مستعمرة ياسين فى الهند واستطاعت القوة العمانية القيام بهجوم عنيف رغم تفوق الاسطول البرتغالى ثم نزول القوة وجمع الغنائم •

جهود الامام سيف بن سلطان الاول :

وبعد تلك الأحداث من الصراعات العمانية البرتغالية ، انتقلت البلاد الى صراعات داخلية بين الامام بلعرب وأخيه سيف ، وكان تأثيرها على ما يبدو عظيما على مجمل الصراع العمانى البرتغالى وحركة انشاء الامبراطورية العمانية • فلم تشهد الأعوام القليلة التالية مبادرات عمانية ضد البرتغاليين • وأدت نتائج الصراعات الداخلية الى انتخاب سيف بن سلطان الاول اماما على عمان ••• والذى استمر حكمه حتى عام ١٧١١ م ، أى ما يزيد عن ثلاثين عاما •

وتعتبر جهود الامام سيف بن سلطان الاول حاسمة فى انشاء الامبراطورية ، وفى عهده تم اخضاء العديد من المدن التجارية فى شرق افريقيا اخضاعا نهائيا للحكم العمانى ترتب عنها تعيين ولاة عمانيين •••

وفى نفس الوقت فان جهود الامام لم تتوقف أبدا عن توجيه الحملات ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى فى محاولة لاضعاف قوتها والاستيلاء على الغنائم منها •

استغل البرتغاليون فترة الصراع بين الامام بلعرب وأخيه سيف لاسترداد العديد من المدن فى الساحل الشرقى من افريقيا ، فقامت حملة برتغالية ضخمة عام ١٦٧٨ م بقيادة نائب الحاكم بيدرو دو الميدا بالتوجه من موزمبيق نحو باتا التى كانت تحتل مكانة رئيسية بين المدن العربية فى الساحل الشرقى من افريقيا • وتمكن البرتغاليون فى هذه الحملة من اخضاع باتا واستولوا بعدها على سيو ولامو وماندا رغم مقاومتها العنيدة حيث قتل البرتغاليون حكام تلك المدن وحوالى مائتين من أعيان البلاد واتخذوا من مسجد باتا مقرا للقيادة وحولوا مسجدا آخر الى اسطبل للخيول •

كانت شخصية الامام سيف بن سلطان الاول قوية جدا ، وكان النهج العلمى الذى يسير عليه هو تقوية الاستعدادات العسكرية وتقوية الاسطول العمانى وتحديثه ليجارى أحدث الأساطيل وذلك قبل أن يتفرغ فى جهاده مرة أخرى ضد البرتغاليين • ومن المعلوم تاريخيا ان الامام سيف بن سلطان الاول كان له دور كبير فى تحديث الاسطول العمانى • ولهذا نلاحظ انه لم تقم لعمان مبادرات وحروب ضد البرتغاليين الا عام ١١٩٤ أى بعد خمس سنوات تقريبا من تولى الامام سيف بن سلطان الحكم وذلك باستثناء الحملة الصغيرة التى بعث بها فى مطلع حكمه لاسترداد باتا من البرتغاليين فى شرق افريقيا •

وقد مكنت هذه الظروف البرتغاليين من توجيه حملات أخرى لاعادة اخضاع باتا عامى ١٦٨٦ و ١٦٨٧ م واستطاع البرتغاليون فى حملة عام ١٦٨٧ على باتا أسر حاكمها ونقله الى جوا فى الهند واجباره على توقيع وثيقة التعهد بطرد العمانيين وبناء قلعتين برتغاليتين فيها • ولكن بحلول عام ١٦٩٤ م بدأ الامام سيف بن سلطان جهاده ضد البرتغاليين غربا وشرقا •

توجه الاسطول العمانى شرقا صوب الهند وبعد أن تمكنت القوات

العمانية من النزول فى داماون وجمع الغنائم توجهت صوب مدينة سالسيت • وفى هذه المدينة كما يروى هاميلتون ، تمكن العمانيون من أسر حوالى ١٥٠٠ شخص وعادوا بغنائم وفيرة الى عمان • وفى نفس الوقت فان جزءا آخر من الأسطول العمانى توجه الى ميناء كونج فى الخليج حيث تمكن العمانيون من جمع غنائم قدرت بستين ألف تومان ، كما هددوا ميناء جمبرون •

وفى عام ١٦٩٥ م استغل الامام فرصة القلاقل فى بعض الموانى الهندية ووجه حملة صوب مدن باسالور ومانجالور الغنيتين فى غرب الهند حيث تمكن من الحاق الأضرار بهما وجمع الغنائم • وعندما نما الى علمه بأن البرتغاليين يحاولون بالتحالف مع بعض حكام الفرس توجيه حملة ضـد مسقط ، قام بمبادرة من جانبه فهاجم مرة أخرى مدينة مانجالور حيث تمكن من تدمير المركز التجارى البرتغالى هناك •

وفى عام ١٦٩٦ بدأت أقوى الحملات العمانية فى تاريخ دولة اليعاربة ضد البرتغاليين ــ هذه الحملات التى أدت الى فتح مدن عديدة فى القسـم الشمالى من ساحل افريقيا الشرقى ونشأة الامبراطورية العمانية وانهـاء الوجود البرتغالى •

فبناء على الرسائل والالتماسات التى وردت للامام من أهالى مومباسا ، بعث الامام فى مارس ١٦٩٦ أسطولا كبيرا يضم سبعة سفن حربية ضـخمة وحوالى عشرة سفن صغيرة تحمل قوة قوامها ٣٠٠ مقاتل لمهاجمة مومباسا • كان من الواضح أمام القوات العمانية أن الاستيلاء على قلعة يسـوع فى ممباسا من الأمور المستعصية ولما كان الهدف هو احتلال القلعـة وتحـرير ممباسا نهائيا فقد اتبعت القوات العمانية أسلوب حرب النفس الطويلة • ففى الوقت الذى تم فرض الحصار حول ممباسا والقلعة ، كانت المدافع البحرية العمانية تقصف المناطق المحيطة بالقلعة فى محاولة لعزلها والحيلولة

دون وصول المؤن والذخيرة اليها وقد ساعد على تحقيق هذا الهدف انقطاع القلعة عن البر الا عبر لسان ضيق كان باستمرار هدفا للمدفعية العمانية •

وخلال فترة الحصار التى دامت عامين و ٩ أشهر كانت التعزيزات ترد الى الأسطول العمانى من جانب ، وكان البرتغاليون من جانبهم يبعثون بحملات بحرية فى محاولة فك الحصار ، وبعد سبعة أشهر تقريبا تناقص عدد اللاجيئين فى القلعة من ٢٥٠٠ رجل الى ألف وخمسمائة ، وعدد الجنود البرتغاليين من ٥٠ مقاتل الى ٢٠ مقاتلا وذلك نتيجة انتشار الأمراض ونقص كمية المؤن •

وفى هذه الفترة وصلت حملة برتغالية مكونة من أربع سفن تحمل سبعمائة وسبعين رجلا ؛ ولكن الحملة البرتغالية لم تتمكن سوى امداد القلعة ببعض الذخيرة والغذاء ودخول حوالى مائة مقاتل لمساندة الحامية البرتغالية •

ولكن فى بداية عام ١٦٩٧ انتشر الطاعون بين المدافعين ولم يبق من أفراد الحامية الا عشرين رجلا ••• وفى سبتمبر من عام ١٦٩٧ قدمت نجدة برتغالية أخرى من قاعدتها فى موزمبيق وتمكن قائدها من دخول القلعة الا أنه مات فيها فى نوفمبر من نفس العام • وبعد عدة أسابيع قام أسطول برتغالى ثالث بمحاولة فاشلة لفك الحصار الذى استمر عاما آخر • وفى منتصف ديسمبر من عام ١٦٩٨ وجد الأسطول البرتغالى القادم من جوا مركز نائب الملك ؛ أن القلعة بات يرفرف عليها العلم العمانى الأحمر •

كان لسقوط قلعة يسوع أثر كبير فى نفوس المسلمين والعرب واظهار تفوق الأسطول العمانى على الأسطول البرتغالى • وفى العام التالى نجح الامام سيف فى تحرير عدة مدن أخرى من السيطرة البرتغالية ، حيث تمكن من تحرير بمبا وكلوه وباتا وزنجبار ، وعين الشيخ ناصر بن عبد الله واليا على

تلك المدن من مقره فى ممباسا • وهكذا نشأت أول امبراطورية عمـــانية فى التاريخ • وبقيت تلك المدن خلال البقية من عمر الامام سيف خاضعة كلية للعمانيين برغم الحملات الفاشلة التى بعثها البرتغاليون من لشبونة مباشرة خلال أعوام ١٦٩٩ و ١٧٠٣ و ١٧١٠ م •

وخلال المدة الباقية من عمر الامام سيف بن سلطان وبعد اخضـــاع الجزء الشمالى من ساحل شرق افريقيا ، انحسرت موجة الحروب الى حـــد كبير • وعندما نما الى علم السلطات العمانية نبأ تواجد أسطول برتغـــالى قرب رأس الحد فى المنطقة الشرقية من عمان قام والى مطرح بارسال أسطول عمانى لدرء الخطر فى ١٣ مايو من عام ١٦٩٨ م •

وبرغم أن النصر فى هذه المعركة كان للبرتغاليين ، فان الامام سرعان ما قرر توجيه حملة انتقامية فى العام التالى صوب المركز التجارى البرتغالى فى سالسيت فى الهند • وقد تمكن الاسطول العمانى من تكبيـــد البرتغاليين خسائر فادحة وابقاء حامية عمانية مكونة من ٣٠٠ رجل لمراقبـــة التحركات البرتغالية • ولم تنحصر أعمال الامام ســـيف بن ســـلطان الاول فى المحيط الهندى وشرق افريقيا فقط ، بل انه فى العقد الأخير من القرن السابع عشر تمكن من انزال قوة عمانية فى جزيرة البحرين التى كانت خاضعة للحـــكم الفارسى فى تلك الفترة •

وتعتبر فترة حكم الامام سيف بن سلطان الاول الذى كان أقوى أئمة اليعاربة فى التاريخ العمانى ، نقطة تحول فى التاريخ العمـــانى • وفى عهده زادت الاهتمامات ببناء دولة تساير المقتضيات الحضارية • ففى الداخل وجد الاستقرار فى عهده وقام بالعديد من أعمال اصلاح الأوضاع الزراعية عن طريق تعمير مجموعة من الأفلاج • ويقول الرحالة لوكـــير عام ١٧٠٥ م بأن السفن العمانية كانت تصنع فى سورات وبعضها فى نهر أندوس بالهند والتى

لم يعرف عنها الأوروبيون الا قليلا • كما انه أحصى فى ميناء مسقط وحده ١٤ سفينة حربية ••• وكانت السفن الاخرى التى تمخر البحـار كبـيرة واحداها تحمل ٧٠ مدفعا •

خلف الامام سيف بن سلطان الاول ابنه سـلطان حوالى عام ١٧١١ واستمر حكمه زهاء ٨ سنوات قام خلالها ببناء قلعة حـزم الشهيرة التى اتخذها مقرا لسكناه • وبرغم الفترة القصيرة لحكم الامام سلطان بن سيف الثانى فان البلاد شهدت استقرار ونموا متزايدا ، كما أن التجارة الدولية شهدت نموا متعاظما •

وفى مجال شئون الامبراطورية العمانية ، بقيت كافة المدن التى افتتحها العمانيون فى الجزء الشمالى الشرقى من افريقيا ، خاضعة للحكم العمانى • بل أن عدة جزر فى الخليج فى هذه الفترة وقعت تحت حكم العمانيين • كمـا أن الامام سلطان بن سيف الثانى قام بحملة مجددة عام ١٧١٧ ضد البحرين وتمكن من تقوية الحامية العمانية هناك • أما فى مجال حروبه ضد البرتغاليين فقد حدثت عدة معارك مع الأساطيل البرتغالية الا أن تلك المعارك لم تـكن ذات طبيعة استراتيجية •

ففى فبراير من عام ١٧١٤ م اصطدم الأسـطول العمانى بأسـطول برتغالى خارج مدينة سورات فى الهند وكانت نتيجة المعركة استشهاد ٢٨ قتيلا وجرح ٣٤ آخرين من العمانيين •

وفى عام ١٧١٩ م استنجد الفرس بالبرتغاليين لمساعدتهم فى محـاربة مسقط نتيجة فقدانهم العديد من الجزر فى الخليج وجزر البحرين فأرسـل نائب الحاكم العام من جوا أسطولا برتغاليا الى الخليج فى فبراير ١٧١٩ م •

وعندما وصلت تلك المعلومات للامام قام بارسال أسطول عمانى الذى احتدم فى معركة يوم الرابع من أغسطس أمام سواحل ميناء كونج فى مداخل

الخليج واستمرت المعركة زهاء يومين انسحب بعدها الأسطول العمانى ، الا أن الأسطول البرتغالى قام بملاحقته فى مضايق هرمز وكانت نتائج تلك المعارك استشهاد وجرح حوالى ٥٠٠ مقاتل عمانى •

ضعف دولة اليعاربة ونهايتها

كان موت الامام سلطان بن سيف الثانى حوالى عام ١٧١٩ م ذا أثر بالغ فى الحياة السياسية والاقتصادية لعمان • فالفترة التى تلت وفاته شهدت صراعات وحروبا أهلية تعتبر أفظع أنواع الحروب الأهلية فى تاريخ عمان قاطبة • كما أن نتائج تلك الحروب امتدت بصورة دراماتيكية على أوضاع الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا ومنطقة الخليج • وقبل تناول تأثيرات تلك الأحداث على أوضاع الامبراطورية يجدر بنا تبيين ملامح تلك الأحداث التى امتدت قرابة ثلاثين عاما والتى انتهت بالعودة الى الوحدة الوطنية ونمو وازدهار أوضاع الامبراطورية العمانية بعد انتخاب أحمد بن سعيد البوسعيدى اماما على عمان حوالى عام ١٧٤٩ م •

بعد موت الامام سلطان بن سيف ظهرت مشكلة الخلافة ، وبرغم أن اليعاربة استطاعوا الاحتفاظ بمنصب الامامة بشكل وراثى منذ تم مبايعة ناصر بن مرشد اماما عام ١٦٢٤ م • الا أن هذه المرة فان الخليفة المرشح سيف بن الامام سلطان كان صغير السن • فانقسم الوجهاء الى فريقين : أحدهما يناصر انتخاب سيف اماما والآخرون بايعوا مهنا بن سلطان بن ناصر ونتج عن ذلك بداية الصراعات التى انتهت بمقتل مهنا بن سلطان فى العام التالى •

وبموت مهنا اختار فريق : يعرب بن بلعرب اماما ولذا بادر المناصرون لسيف الى تكليف بلعرب بن ناصر خال « سيف » العمل لانتزاع الامامة لسيف • وبعد حروب دامية تمكن بلعرب من السيطرة على مسقط وسمائل ونخل وازكى ونزوى • ونتيجة لذلك وافق يعرب بن بلعرب على التنازل عن الامامة ومبايعة سيف ، واستعدت البلاد لاحتفالات تثبيت سيف اماما •

ولكن مناسبة الاحتفالات تحولت الى كارثة • فقد قام محمد بن ناصر زعيم بنى غافر بتحريض أهالى بهلى وبنو ريام وبنو قطب والنعيم ومجموعة قبائل أخرى وكذلك الامام المخلوع يعرب بن بلعرب ضد خال الامام سيف • ونتج عنها حروب طاحنة دامت أربع سنوات كان النصر فيها لقوات محمد بن ناصر الغافرى • وفى المعارك الأولى تمكن محمد بن ناصر من أسر بلعرب بن ناصر ولى الامام سيف وبعد انتصاره على بلعرب بن ناصر أصبح محمد بن ناصر زعيم الغافريين يتصرف وكأنه وليا على الامام سيف ، فكان يصحب الامام الصغير معه فى المعارك وكذلك أسيره يعرب بن ناصر مقيدا •

تولى المعارضة بعد ذلك خلف بن مبارك زعيم بنى هناءة ، وهذه هى الفترة التى انقسم فيها المجتمع العمانى الى فريقين سياسيين : فريق الهناويين تحت زعامة خلف بن مبارك وفريق الغافريين تحت زعامة محمد بن ناصر •

وكان تكتل محمة بن ناصر يعتمد أساسا على القبائل الشمالية والظاهرة أى بنى نعيم وبنى قطب وبنى ياس ورحمة بن جابر •

أما الهناويون فكان تحالفهم يشمل أساسا قبائل الشرقية من بنى على وآل وهيبة والعوامر •

وانتهت المعارك عام ١٧٢٤ م بنصر ساحق للغافريين ، ونتج عنها مبايعة محمد بن ناصر اماما فى أكتوبر من ذلك العام • وكان يبدو أن رحى الحروب قد انتهت ولكن الهناويين استطاعوا من جديد جمع تكتلهم كما أن خلف استطاع عمل خديعة سياسية استطاع عن طريقها فك التحالف الذى كان يربط قبائل بنى ياس وبنى قطب والنعيم مع محمد بن ناصر زعيم الغافريين•

وكانت معركة صحار فاصلة فى الصراع الهناوى الغافرى • ففى هذه المعركة قتل خلف بن مبارك زعيم الهناويين من ناحية ، كما جرح الامام

محمد بن ناصر ومات على أثره فى مارس ١٧٢٨ م • وكان يبدو انه باعادة انتخاب سيف بن سلطان اماما فى أبريل ١٧٢٨ م فان الصراعات الدموية قد انتهت خصوصا وان كلتا المجموعتين من غافريين وهناويين بايعتا سيف اماما •

ولكن الذى حصل أن بلعرب بن حمير أحد أقرباء سيف تولى المعارضة وبعد أن تمكن من اقناع أهالى نزوى بالتخلى عن سيف ، سارع الى جمع قوات تمكن بها من السيطرة على سمائل وازكى والنخل والشرقية وجميع حصون الظاهرة ، وتم انتخابه اماما • وبقيت المناطق الساحلية بالباطنة والرستاق تحت سلطة سيف •

ونتيجة تدهور مكانة سيف استنجد الاخير بوالى مكران الذى أرسل اليه جنودا مسلحين من البلوش الا أن هذه القوة لم تكن كافية ضد قوات بلعرب بن حمير فواجهت الهزيمة •

وهكذا بقيت البلاد منقسمة الى سلطتين لفترة زمنية غير قصيرة • وخلال تلك الفترة كانت سلطة نادر شاه فى فارس والذى تولى الحكم عام ١٧٣٢ تزداد قوة وانتشارا فى منطقة الخليج • والذى استطاع بعد تقوية أسطوله الاستيلاء على البصرة عام ١٧٣٥ والبحرين عام ١٧٣٦ م • فقرر الامام سيف بن سلطان الثانى الاستعانة بالفرس بهدف اخضاع البلاد تحت سيطرته واستجاب نادر شاه لطلب الامام سيف والذى كانت أطماع فتح عمان واخضاعها للفرس تستولى عليه •

ففى ١٦ أبريل ١٧٣٧ نزلت القوات الفارسية خور فكان واستطاعت اخضاع رحمة بن مطر زعيم الهولة فى جلفار تحت سيطرته • ثم تقدمت القوات المشتركة فى معركة فاصلة ضد بلعرب بن حمير فى منطقة الظاهرة حيث تمكنت من الحاق الهزيمة فى قوات الامام بلعرب • ولكن نتيجة سوء

تصرفات قائد الحملة الفارسية لطيف خان : دبت الخلافات بين الامام سيف وبينه وترتب عنها انسحاب القوات الفارسية الى جلفار •

وبمجرد انسحاب القوات الفارسية عادت الثورة ضد الامام مشتعلة من جديد • فمرة ثانية التجأ الامام الى نادر شاه • وفى هـذه المرة كانت أطماع الفرس فى السيطرة على عمان واضحة ومؤكدة وبدأ القائدان الفارسيان تقى خان ولطيف خان اللذان كانا يقودان الحملة الفارسية المكونة من ٦ آلاف مقاتل يتصرفان باستقلالية تامة عن الامام سـيف • واسـتطاعت القوات الفارسية التقدم بوحشية ضاربة واستولت على نزوى وبهلى ومسقط أيضا ما عدا قلعتيها الجلالى وميرانى الا أن صحار صمدت ضد الاحتلال بقيادة واليها أحمد بن سعيد • الا أن هذه الانتصارات الفارسية قد أثبتت لدى الامام سيف نية الفرس العدوانية ، ونتيجة الخلاف الذى دب بين الامام وقائد الحملة الفارسية تقى خان ، فان الامام انسحب بأسطوله الى بركة وعقد تحالفا مع منافسه بلعرب بن حمير لطرد الفرس • وفى نفس الوقت فان الخلافات التى دبت بين القائدين الفارسيين أدت الى قيام تقى خان بدس السم للطيف خان •

أدى الصلح بين الامامين المتنافسين الى توطيد المقاومة ضد الفرس • واستطاعت المقاومة العمانية من الاستيلاء على سمائل واجلاء الفرس عن حصارهم لصحار ثم اجبارهم للتقهقر الى جلفار فى الشمال • وانتشرت حركة المقاومة ضد الفرس فى جميع المناطق الساحلية ، كما أن السـفن العمانية قامت بقطع المؤن عن القوات الفارسية الى جانب مهاجمتها لعدة موانى فى الخليج مثل باسيدو وجزيرة قشم كما حاصروا الحامية الفارسية فى البحرين وتمكنوا من القضاء عليها • وساعد على تحقيق الانتصارات ضد الفرس قيام ثورات داخلية فيها ، فاضطر نادر شاه الى اسـتدعاء تقى خان فى مارس ١٧٣٩ للقضاء على ثورة أهالى جمبرون •

ومرة أخرى كان من الممكن ان تستقر الأمور للامام سيف بن سلطان الا آن ضعف شخصية الامام سيف واهتمامه بحياته الخاصة أجبرت العديد من المشايخ والقضاة الى انتخاب سلطان بن مرشد اليعربى اماما فى فبراير من عام ١٧٤٢ ، وبعد أن أعلنت ازكى وسمائل ونزوى وبهلى وأماكن أخرى خضوعها للامام الجديد تقدم بقواته نحو العاصمة رستاق وتمكن من اخضاعها واجبار الامام سيف اللجوء الى مسقط ٠

ومرة ثالثة فان الامام سيف برغم التجارب المريرة التجأ الى نادر شاه ووصل الوفد العمانى الى أصفهان فى ربيع ١٧٤٢ م ٠ وفى سبتمبر من نفس العام خرجت الحملة الفارسية الثالثة وقوامها ٦٠٠٠ مقاتل بقيـــادة ميرزا محمد تقى خان ، وبعد وصولها الى جلفار توجه الامام سيف لملاقاتها ممـــا أعطى الفرصة للبحارة العمانيين بأن يتطوعوا لوضع قطع سفنهم فى مسقط لمناصرة الامام سلطان بن مرشد ٠ وتوزعت خطة الهجوم على أن يتــولى أسطول فارس بقيادة كلب على خان محاصرة صحار وأن يقوم ميرزا تقى خان بالتعاون مع سيف بالتوجه الى مسقط ٠

صحار قلعة المقاومة :

فى هذه الفترة من المهم الاشارة الى دور صحار فى تزعم المقاومة ضد الفرس وتخليص البلاد من السيطرة الأجنبية وتوحيدها ٠ فقد تولى زمام المقاومة أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين والذى كان الامام سيف قد عينه واليا على صحار ٠ وقد استطاع هذا الوالى أن يبرهن عن قدراته القتالية والدفاع عن صحار أثناء الحصار الذى فرضه الفرس عليهـــا إبان حملتهم الثانية التى قادها تقى خان عام ١٧٣٨ م ٠ وبدأت شخصيته تعلو تدريجيا وأثناء الحملة الفارسية الثالثة فرض الحصار على صحار بحرا وبرا وامتدت فترة الحصار ٧ أشهر ٠

وقد أدرك الامام سلطان بن مرشد أهمية هـــذا الدفاع المستميت من

جانب الوالى فبادر بجمع قوة كبيرة من عرب الظاهرة وبنى غافر وأهالى الرستاق وتقدم الى صحار بهدف مناصرة الوالى أحمد بن سعيد وبعد أن تمكن من شق طريقه عبر خطوط المحاصرين والانضمام الى الوالى أحمد بن سعيد ، فان جرحا اصابة أثناء تلك العملية أودى بحياته حوالى عام ١٧٤٤م •

وقد ترتب عن موت الامام سلطان بن مرشد بأن أصبح الوالى أحمد ابن سعيد زعيم الحركة الوطنية • وبرغم أن الحصار الطويل حول صحار برا وبحرا أدى الى نقصان فادح فى المؤن والذخيرة ، وبرغم أن الفرس كانوا يدعمون أسطولهم بشتى الوسائل الا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على صحار الأمر الذى كلف العمانيين حوالى ثلاثة آلاف شهيد •

ونتيجة لهذه المقاومة الصلبة يئس القائد الفارسى من السيطرة على صحار فبعث الى نادر شاه طلبا بالموافقة على عقد صلح مع الوالى أحمد ابن سعيد وقد تضمن الصلح :

١ ــ أن يرفع الفرس الحصار عن صحار وتغادر قواتهم عمان •

٢ ــ يحتفظ نادر شاه بمسقط ، وأن يدفع له الوالى أحمد الجزية •

٣ ــ تظل صحار وبركاء تابعة لأحمد بن سعيد •

وكان من الواضح أن الوالى أحمد بن سعيد قد اتخذ من هذا الصلح بداية للتحرر النهائى من السيطرة الفارسية • أذ ما أن غادرت القوات الفارسية عمان ، حتى توقف الوالى أحمد بن سعيد عن دفع الجزية وتقدم نحو بركا حيث عين خلفان بن محمد السعيدى واليا عليها ، وتمهيدا لتحرير مسقط ، حول التجارة الخارجية الى بركاء وقدم كل التسهيلات للتجار بهدف وقف التجارة مع مسقط • ثم جاءت الظروف مواتية لتحرير مسقط بعد أن مات الامام سيف بن سلطان فيها ، اذ قام نائب الامام : ماجد بن سلطان بارسال رسالة الى شيراز لدعم سلطته ولكن عند عودة السفينة الى مسقط

جذبته الرياح الى صحار فعرف الوالى أحمد بن سعيد عن الرسائل المتبادلة مع نادر شاه ، ثم قام بارسال قوة قوامها أربعمائة مقاتل بقيادة واليه فى بركاء • فاضطرت الحامية الفارسية للاستسلام ثم أمرها أحمد بن سعيد بالرحيل وفى عرض البحر تم اغراقها وحرقها • وهكذا أصبح الوالى أحمد ابن سعيد يسيطر على معظم المنطقة الساحلية من صحار الى مسقط •

انتقل الوالى أحمد بن سعيد الى المرحلة الثانية من نضاله بعد تحرير عمان من السيطرة الفارسية • وتمثلت المرحلة الثانية فى تحقيق الوحدة الوطنية • وبعد موت الامام سلطان بن راشد تم انتخاب بلعرب بن حمير مرة أخرى اماما فى رستاق •

وكان الامام الجديد يلقى التأييد من معظم القبائل التى انطوت تحت التحالف الغافرى سابقا مثل بنو نعيم والقواسم ومجموعات أخرى من قبائل منطقة الصير • وبالمقابل فان معظم القبائل الهناوية والتى انتخبت أحمد بن سعيد اماما فى مسقط قبل مبايعته العامة كانت تؤازر الامام أحمد بن سعيد تقديرا لخدماته الوطنية •

وبعد معارك طاحنة بين الطرفين انتصرت قوات الامام أحمد بن سعيد وقتل الامام بلعرب بن حمير • وانحصرت المقاومة بقيادة سليمان بن محمد بن عدى اليعربى الذى كان واليا من طرف الامام سلطان بن مرشد على سمد الشأن ، الا أن سليمان آثر التنازل بعد أن خضعت معظم المدن : الرستاق ، سمائل ، ازكى ، نزوى ، بهلى للامام أحمد بن سعيد فجازاه الامام أحمد بتعيينه واليا على النخل •

هناك تضارب فى الروايات بالنسبة لتاريخ انتخاب أحمد بن سعيد ، اماما فبرغم أن بعض الروايات تشير الى عام ١٧٤٤ م لهذا الحدث ، الا أن الرحالة الألمانى نيبوهر الذى زار عمان عام ١٧٦٥ يؤكد أن الانتخاب تم عام ١٧٤٩ م اذ يشير الى أنه قد مضت ١٦ عاما على حكم الامام أحمد بن سعيد عند قدومه الى عمان •

ويبدو أن الاختلاف فى الروايات ربما يعود الى الفترة التى أعقبت موت الامام سلطان بن مرشد عام ١٧٤٤ ثم مبايعة الامام أحمد بن سعيد تلتها حروب ضد الامام بلعرب بن حمير . وأخيرا المبايعة العامة التى ربما حصلت عام ١٧٤٩ م •

أثر الأحوال المضطربة على شؤون الامبراطورية :

خلال الثلاثين عاما من الاضطرابات التى أعقبت موت الامام سلطان ابن سيف الثانى عام ١٧١٩ ، كانت شؤون الامبراطورية تتدهور بشكل واسع ، فقد ساءت الاحوال الاقتصادية فى داخل البلاد ، كما أن عمان فقدت زعامتها فى منطقة الخليج فى فترة حكم نادر شاه الذى تمكن من استرداد سيطرته على العديد من الموانىء والسيطرة على جزر البحرين عام ١٧٣٦ م • أما فى شرق افريقيا فقد استطاع البرتغاليون عام ١٧٢٨ م الاستيلاء على ممباسا ولمدة عامين تقريبا كما امتدت سيطرتهم على طول الساحل من باتا حتى كلوه • ومن العوامل التى ساعدت البرتغاليين على تلك الانتصارات حدوث تمرد من قبل سكان ممباسا ضد الوالى ناصر بن عبد الله وقيامهم بتعيين سيسا زومبا واليا عليهم ، الا أن رفض مشايخ الجالية العربية أدى الى قيام حرب أهلية استغلها البرتغاليون لفرض سيطرتهم • ولكن سوء تصرفات البرتغاليين أدت مجددا الى ثورة عامة من قبل الأهالى وانتهزوا فرصة الأعياد فى عام ١٧٣٠ م للقيام بتمرد ضد البرتغاليين مستغلين انشغال البرتغاليين فى الاحتفال بأعيادهم • فقام الأهالى بذبح البرتغاليين أينما وجدوهم فى المدينة ومن نجا منهم هرب الى موزمبيق • وبعد نجاح السكان من طرد البرتغاليين من ممباسا بعثوا بوفد الى امام عمان الذى أرسل قوة من ثلاث سفن بقيادة أحمد بن سعيد العمورى والذى عينه الامام واليا جديدا على ممباسا • وقد تمكن الوالى أيضا من اعادة اخضاع زنجبار تحت سلطته •

وأصبحت جميع المدن والجزر فى ذلك الجزء من شرق افريقيا ترسل الجزية السنوية الى الامام •

وقد حاول البرتغاليون فى نفس العام ارســال أسطول من جوا فى الهند لاحتلال ممباسا ، ولكن سوء الأحوال البحرية حالت دون ذلك وبقيت السيطرة العمانية قائمة على طول الساحل من رأس وليجاد الى مقديشيو الا انه يجب الاعتراف بأن تلك السيطرة كانت ضعيفة •

وقد مارس حكام تلك المدن حكما شبه مستقل برغم انهم كانوا يرسلون الزكاة السنوية •

وفى عام ١٧٣٩ م قبل سقوط دولة اليعاربة بعدة أعــوام ، تم تعيين محمد بن عثمان المزروعى واليا على ممباسا بدلا من أحمد بن سعيد المعمرى• وكان هذا الوالى الجديد تحدوه آمال الاستقلال التام عن السلطة المركزية فى عمان • الا أنه فى فترة حكم اليعاربة استمر فى ولائه الاسمى لتلك الدولة • وفى نفس الوقت كان يعمل على كسب ولاء أبناء ممباسا والمناطق المحيطة بها لنفسه • واستطاع عن طريق معاملة الناس بالعدل والمساواة أن يكســب عطف الشيوخ والرؤساء وأن يضمن التأييد لخططه القادمة ، وما أن انتهت دولة اليعاربة وتولى الامام أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيد الحكم حتى أعلن انفصاله الرسمى عن عمان وهذا الانفصــال وآثاره سنتناوله فى الفصل القادم •

الفصل الثالث

نمو الدولة العمانية وازدهارها فى عهد البوسعيديين

نمو وازدهار الامبراطورية :

أوضاع الامبراطورية فى عهد الامام أحمد بن سعيد :

عندما تولى الامامة أحمد بن سعيد البوسعيدى بعد فترة طويلة من الصراعات الداخلية والصراعات مع الفرس . فان الأوضاع الداخلية كانت متردية الى حد كبير ؛ علاوة على ذلك ، فان الأجزاء الغربية من الامبراطورية فى شرق افريقيا كانت متفككة ، وكانت تحدو بعض الولاة وخصوصا محمد ابن عثمان المزروعى فى ممباسا آمال الانفصال التام عن عمان وتكوين دولة مستقلة له . الا أنه على صعيد العلاقات الخارجية ، فان التهديدات البرتغالية كانت قد تلاشت . ولكن كان على الامام أحمد أن يبرهن عن كفاءته فى كيفية توجيه السياسة تجاه الدولتين العظيمتين بريطانيا وفرنسا واللتين كانتا فى صراع مستمر مع بعضهما .

وفى منطقة الخليج فان اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ وقيام القلاقل والاضطرابات فى فارس منحت فرصة للامام أحمد للتفرغ للشؤون الداخلية، الا انه بعد نجاح كريم خان زند فى السيطرة على فارس وحكمه خلال الفترة ١٧٥٦ ــ ١٧٧٧ وهى الفترة المعاصرة لحكم الامام أحمد بن سعيد ظهرت من جديد التحديات أمام الامام أحمد بن سعيد . ومن التحديات الأخرى التى جابهت الامام أحمد ، نشأة قوة القواسم فى بعض الأجزاء من عمان الشمالية وقيامهم بحركات الانفصال بل وتوسيع قاعدة سيطرتهم على عدة مدن من شمال عمان .

وفى المجال الداخلى ، فقد كانت غالبية الشعب العمانى تؤازره وتواليه ذلك لأن الامام أحمد كان رمزا للنضال من أجل تحقيق الوحدة الوطنية ، وقد كان لهذا الاتجاه أثر كبير فى سرعة توطيد الامام أحمد لحكمه • وقد استطاع الامام أحمد أن يصل الى تفاهم مع اليعاربة بعد أن قضى على حكمهم ، بأن أقطع لليعاربة قلعتى نخل والحزم • فانحصر نفوذهم السياسى وظلوا يمارسون سلطاتهم المحلية كولاة واعتكفوا فى ممتلكاتهم بالجبل الأخضر كما عقد الامام صلحا مع ناصر بن محمد الجابرى والذى كان والده زعيما للتجمع الغافرى بأن أبقاه زعيما على منطقة الظاهرة بشرط اعترافه بالولاء للحكومة المركزية •

وهكذا شهدت عمان فى فترة حكم الامام أحمد استقرارا داخليا ساهم فى تحقيق الوحدة الوطنية وتحقيق الازدهار والنمو التدريجى • ولم يعكر صفو هذا الاستقرار الداخلى الا احداث التمرد من جانب ولديه سيف وسلطان فى الفترة الاخيرة من حكمه •

وفى المنطقة الشمالية الغربية من عمان المعروفة بالصير ، وجه الامام جهوده بهدف اخضاعها للحكم المركزى • وقد واجه الامام فى تلك المنطقة تحديات من جانب القواسم الذين عرف عنهم انهم من أهل قبائل الهولة العربية والتى كانت تقطن الجزء الفارسى من الخليج بين جمبرون ورأس برديستان ثم هاجرت الى رأس الخيمة حيث استطاعت أن توطد نفوذها وتكون لنفسها قوة بحرية مستقلة نمت تدريجيا • وبعد هجرتها عرفت بالقواسم نسبة الى قاسم جد الشيخ راشد بن مطر الذى عاصر الامام أحمد بن سعيد خلال فترة حكمه ١٧٥٨ أو ١٧٥٩ •

قاد الامام قواته صوب خصب حيث أعلن الشيخ حسن بن عبد الله الشحو ولائه للامام أحمد ، وأثناء تواجده فى خصب نما الى علمه أنباء تمرد فى المنطقة الشرقية فكلف خلفان بن محمد بالتوجه الى جلفار (رأس الخيمة)

على رأس قوة بحرية كبيرة ، وبعد عودته من الشرقية استبدل خلفان بن محمد بقائد أكثر كفاءة وهو : سيد على بن سيف الذى قاد أسطولا من أربع سفن كبيرة وعشرة سفن متوسطة الحجم وقام بفرض الحصار حول تلك المنطقة •

وكان من نتائج ذلك الحصار أن خضعت له كل الموانىء فى منطقة الصير باستثناء جلفار • كما أجبرت القواسم عام ١٧٦٢ على ارسال وفد برئاسة الشيخ صقر برفقة عمه عبد الله الى العاصمة الرستاق للتفاوض مع الامام • وكانت نتائج تلك المباحثات الاتفاق على خضوع كافة الموانى فى تلك المنطقة للامام أحمد مع بقاء القواسم فى جلفار وانهاء الحصار البحرى العمانى •

والواقع ان الاتفاقية المعقودة مع القواسم كانت ذات أثر محدود فى العلاقات بين الطرفين ••• اذ أنه بمضى الوقت فان قوة القواسم كانت فى نمو مستمر خصوصا قوة أسطولهم البحرى •••

وترتب عن ذلك حدوث عدة اشتباكات أثناء فترة الامام أحمد ، كان يحاول خلالها القواسم توسيع قاعدة حكمهم والتوسع فى الأراضى العمانية الى جانب المناوشات التى كانت تحصل بين قطع من الأسطول العمانى وقطع من أسطول القواسم • كما أن قوة القواسم كانت فى تعاظم مستمر الى درجة أن قطعا من أسطولهم كانت تهاجم السفن الاوروبية ومنها السفن الانجليزية مما خلق تقاربا سياسيا بين عمان وبريطانيا وبرزت النتائج العملية لهذا التقارب فى الربع الأول من القرن التاسع عشر • على أن هذا الصراع بين الامام أحمد والقواسم لم يخل أيضا من حالات تعاون وتنسيق ، كما حصل عام ١٧٧٢ عندما وقع الطرفان صلحا بهدف التفرغ للقيام بعمليات ضد فارس فى منطقة الخليج •

سياسة الامام أحمد تجاه الخليج :

ان اهتمامات الامام أحمد فى تقوية ودعم دور الامبراطورية العمانية فى منطقة الخليج كانت تفوق الى حد كبير اهتماماته بشؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا • ولهذا نرى أن الامام وجه جهودا مكثفة نحو توطيد مركزه فى منطقة الخليج ومجابهة القوى المختلفة •

قضى الامام أحمد الفترة الأولى من حكمه كما أسلفنا ، فى توطيد النظام والاستقرار فى الداخل وبمجابهة نفوذ القواسم فى منطقة الصير • وفى فارس فان كريم خان زند بعد أن استولى على الحكم عام ١٧٥٦ وقام بتوطيد نفوذه فى الداخل وجه جهوده صوب عمان فبعث برسالة الى الامام أحمد يطلب منه دفع جزية سنوية ، فبعث اليه الامام أحمد برده بأن عمان لا تدفع الجزية لأحد ، واذا أصر كريم خان على مطالبه ، فان عليه أن ينتزعها بالقوة •

وكان واضحا من صيغة جواب الامام أحمد ثقته بقدراته القتالية وامكانات مواجهة التطورات • وترتب عن هذا الرد حصول بعض المناوشات فاستولى كريم خان على بعض القطع البحرية العمانية ، مما أجبر الامام أحمد عام ١٧٧٦ على ارسال أسطول الى بوشهر للمطالبة بالتعويضات • كما أن الامام قام بالتحالف مع القواسم كما أسلفنا فى عام ١٧٧٢ بالقيام بارسال حملة بقيادة والى مسقط خلفان بن محمد الى بوشهر حيث تم تدمير بعض القطع الفارسية •

وخلال عام ١٧٧٥ م ، كان لمحاولة احتلال البصرة من قبل الفرس دور كبير فى اظهار قوة وقدرات الأسطول العمانى واكساب الامام أحمد هيبة قوية فى المنطقة • ففى هذا العام قرر كريم خان زند توجيه حملة ضد

الأتراك فى البصرة وقاد الحملة الفارسية صادق خان شقيق الشاه وقدرت القوات الفارسية بـ ٥٠ ألف مقاتل •

واستجابة لنداء الدولة العثمانية قام الامام بتجهيز أسطول قوى والذى شمل السفينتين رحمانى و ٩ سفن رباعية الشراع وسبعين سفينة نقل متوسطة وصغيرة بالاضافة الى ٥٠ مركبا شراعيا محملة بالرجال • وبعد أن تجاوز الأسطول العمانى مياه بوشهر فى الحادى عشر من سبتمبر رسا فى مياه شط العرب واستطاع الأسطول العمانى كسر السلاسل الحديدية فى مدخل شط العرب والتقدم بالاسطول وتدمير بعض القطع البحرية التى كان يقودها حاكم بوشهر وتسهيل وصول التموينات الى البصرة •

وقد كان لهذه الحملة التى قادها الامام بنفسه أثر طيب لدى السلطات العثمانية . فقرر السلطان العثمانى مصطفى الثالث تقديرا لهذه المساعدة دفع ضريبة سنوية للامام أحمد من خزانة البصرة ••• هذه الضريبة التى استمر سدادها حتى عهد السيد سعيد بن سلطان وكانت سببا فى توتر العلاقات فى فترات متعددة • حاول الامام بعد ذلك أن يعرض الوساطة بين العثمانيين والفرس ولكن بدون جدوى مما أجبره على العودة الى عمان فى نهاية ١٧٧٥ م • وبصفة عامة يمكن القول أن النفوذ الثابت لعمان فى منطقة الخليج فى عهد الامام أحمد بن سعيد كان يمتد حتى الاحساء والبحرين وحتى حدود ظفار فى المنطقة الغربية •

وقد كانت اهتمامات الامام فى ضمان حرية الملاحة بالخليج والمحيط الهندى كبيرة جدا : ففى عام ١٧٧٦ م قام بارسال سفينته الرحمانى الى مانجالور فى مقاطعة ميسور بالهند للاستفهام عن سبب انقطاع شحنات الأرز الى مسقط وعندما علم الوفد العمانى أن سبب ذلك الانقطاع يعود الى أعمال القرصنة التى يمارسها القراصنة على سواحل ملبار ضد السفن التى تحمل الأرز الى مسقط : بادر بارسال حملة تأديبية الى سواحل ملبار •

وكان من نتائج هذه الحملة قيام حاكم ميسور بارسال مبعوث من قبله الى الامام أحمد فى الرستاق لتأكيد علاقات الصداقة ولتعيين مبعوث تجارى دائم فى مسقط ليتولى رعاية العلاقات بين الطرفين • وإستمر هذا التمثيـــل التجارى قائما فى مسقط حتى عام ١٧٩٩ م عندما سقطت مقاطعة ميســـور تحت الحكم البريطانى وقتل فيها حاكمها تبو صاحب •

شؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا :

كان التحدى الذى واجهه الامام أحمد ، من قبـــل محمـــد بن عثمـــان المزروعى الذى كان قد عين واليا على ممباسا فى عهد الامام سيف بن سلطان الثانى عام ١٧٣٩ م ، ذا معنى خطير اذ أن سكوت الامام عن تصرفاته كان يمكن أن يكون بداية لانهيار الحكم العمانى فى شرق افريقيا • فالنظام الذى اتبعه اليعاربة فى تيسير أمور المناطق التابعة لعمان فى شرق افريقيا كان يتمثل فى تعيين الولاة فى المناطق الأساسية • وكان الولاة يحافظون بالنيابة عن الأئمة على جمع الزكاة والخراج وارسالها الى الامام •••

كما أن الولاة كانوا يبلغون الأئمة عن أية مخاطر تهدد تلك المنـــاطق وخصوصا محاولات البرتغاليين استرداد نفوذهم . فكان الأئمة يرســـلون أساطيلهم لمواجهة تلك التحديات • وقد مكنت الأحوال الداخلية المضطربة فى عمان ، خلال الفترة الاخيرة من حـــكم اليعاربة ، هـــؤلاء الولاة من زيادة نفوذهم الشخصى وسيطرتهم على المدن وممارستهم نوعا من الاستقلال •

وقد أدرك الامام أحمـــد أهمية المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، فأرسل فى بداية حكمه عام ١٧٥٠ بسفن الى ممباسا وكيلو وزنجبار حاملة بعض الشخصيات التى قرر الامام تعيينهم كولاة • الا أن محمد بن عثمان المزروعى الذى كان قد تمكن خلال فترة تواجده من توطيد حكمه وكسب ولاء الشيوخ والأهالى ، أعلن تمرده على سلطة الامام أحمد وأوقف ارسال الأموال السنوية المعتادة •

وقد أدرك الامام مخاطر اعلان الاستقلال من جانب ممباسا ، فقام بارسال ستة من أعوانه المخلصين تحت رئاسة سيف بن خلف لانهاء استقلال ممباسا . وقد لجأ هؤلاء الى الحيلة . فبعد أن اتفقوا مع محمد بن عثمان المزروعى بأنهم جاءوا لمساعدته ولانتزاع حكم ممباسا من الامام أحمد وبعد أن استطاعوا كسب وده وثقته بهم طلبوا منه السماح لهم بالرحيل الى كلوه وبمبا لجمع الأعوان والمناصرين للقضية المشتركة ، وقبل اليوم المحدد للرحيل قصدوا زيارته فى القلعة بحجة توديعه فقابلهم فى قلعته واستغل سيف بن خلف الفرصة وقام باغتيال محمد بن عثمان المزروعى وقتل حاشيته الموجودة فى القلعة • الا أن هذه الحادثة لم تمنح سوى فرصة استمرار الحكم العمانى على ممباسا لعام واحد اذ أن سيف بن خلف بعد اغتياله لمحمد قام بايداع أخيه على فى السجن ، الا أن عليا بعد أن تم اطلاق سراحه قاد الحركة ضد سيف وتمكن من اخراج قواته من ممباسا وأخذ ثأره باغتيال سيف نفسه •

وباستمرار حكم المزروعيين ، أصبحت ممباسا مستقلة عن عمان ومتمردة عليها • الا أن بقية المدن فى شرق افريقيا بقيت خاضعة للامام أحمد • ولم يكتف على بن عثمان المزروعى باستقلال ممباسا . بل حاول توسيع دائرة حكمه لتشمل أهم مدينة أخرى فى شرق افريقيا • فبعث بحملة بحرية بقيادة سعود بن ناصر الى زنجبار حيث تمكنت تلك الحملة من أن تستولى على معظم أجزاء زنجبار لولا الامدادات المستمرة التى كان يتلقاها الوالى محمد بن جعد البوسعيدى الذى كان الامام أحمد قد عينه واليا على زنجبار •

ولكن سعود بن ناصر بدلا من أن يواصل الحرب لصالح على بن عثمان المزروعى ، فانه دخل فى خلاف مع سيده وآثر أن يحل محله فى الحكم ، فدبر مؤامرة لقتله وتمكن من تنفيذها عام ١٧٥٣ م • وقد مكنه ذلك من الحكم على ممباسا لبضع سنوات •

والواقع فان هذه التحركات من جانب ممباسا . لم تؤثر تأثيرا قويا على شؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا . فقد استمرت القوافل التجارية ذهابا وايابا فى رحلاتها المعتادة . ويبدو أن انشغال الامام أحمد فى توطيد دعائم الحكم فى عمان ومجابهة التحديات فى منطقة الخليج قد حال دون ارسال حملة بحرية قوية لاسترداد ممباسا .

العلاقات الدولية فى عهد الامام أحمد بن سعيد :

اتسمت العلاقات بين الدولتين العظمين بريطانيا وفرنسا فى بحار الشرق بالتنافس التجارى منذ تم انشاء وكالات تجارية لهما فى القرن السابع عشر ... واحتفظ الامام أحمد كأسلافه اليعاربة بعلاقات ودية مع كل من بريطانيا وفرنسا ، وانسجمت تلك العلاقات الودية مع الأوضاع السلمية السائدة بين الدولتين العظميين ، ولكن قيام حرب السنوات السبع بين بريطانيا وفرنسا (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، كانت لها انعكاساتها على بحار الشرق ، وأدت تلك الانعكاسات الى ملاحقة سفن كل طرف بسفن الطرف الآخر ، مما وضع حكام عمان فى مواقف محرجة .

وظهرت بوادر أولى تلك المواقف المحرجة عام ١٧٦١ عندما حاول الكونت داستان ملاحقة سفينة تجارية بريطانية فى المياه الاقليمية لمسقط . وكان مثل هذا التصرف يعنى الاساءة الى سيادة عمان ، فاضطر الوالى محمد خلفان فى مسقط الى اصدار تعليماته بقصف السفينة الفرنسية من المدافع المنصوبة فى القلعة ، فأجبر السفينة الفرنسية على مغادرة مياه مسقط . قام بعدها الكونت داستان بمهاجمة المركز التجارى البريطانى فى جمبرون وأسر الموجودين فيها ثم التوجه الى جزر موريتشيوس .

وحدثت حالة مشابهة عام ١٧٧٨ ، عندما اضطرت سفينة تجارية بريطانية من اللجوء الى مسقط هربا من ملاحقات السفن الفرنسية فى

البحار • وحاولت سفينة فرنسية اخراج السفينة البريطانية من مسقط بالقوة مما اضطر ازاءها الوالى محمد بن خلفان الى اطلاق النار على السفينة الفرنسية واجبارها على مغادرة مسقط •

ورغم تلك المواقف المحرجة ، فان العلاقات الودية استمرت مع فرنسا • ووردت فى احدى رسائل الامام الى الفرنسيين العبارة الودية التالية « اننى صديق للفرنسيين وأعتبر نفسى ابنا لهم وأضع تحت تصرفهم مينائى بما فيه من ماء وماشية » كما أن علاقات عمان التجارية مع جزر موريتشيوس الفرنسية استمرت وطيدة •

وفى عهد الامام قدمت أول سفينة تجارية من موريتشيوس تحمل السكر ونقلت من مسقط التمور والسمك المملح والبن • كما أن السلطات الفرنسية كانت حريصة بدورها على تنمية تلك العلاقات ، وعندما حصلت أزمة السفينة « الصالح » بين الامام أحمد وفرنسا ، فان السلطات الفرنسية اتخذت كل ما من شأنه ارضاء الامام •

ففى عام ١٧٨١ ، قامت ثلاث سفن فرنسية بملاحقة السفينة البريطانية « بيجلير بيرج » التى التجأت الى مسقط • وعندما فشلت فى أسرها اتجهت الى مياه الخليج حيث قامت بالاستيلاء على السفينة العمانية « الصالح » ذات الـ ٥٠ مدفعا والتى كانت فى رحلة تجارية من الهند الى البصرة • وبعد الاستيلاء على السفينة تم بيعها من قبل المسؤولين الفرنسيين الى المهراتيين • وعندما علم الامام أنباء تلك الحادثة فانه فى الوقت الذى بعث بوفد الى موريتشيوس لتقديم الاحتجاج والمطالبة بالتعويضات عن السفينة وحمولتها والتى قدرت بمليون ومائتى ألف روبية ، فانه فى نفس الوقت أصدر تعليماته بعد مضى شهرين بالاستيلاء على احدى السفن الفرنسية التى قدمت الى مسقط حيث تم مصادرتها وأخذ ملاحيها أسرى •

وقامت السلطات الفرنسية بعد ذلك بارسال الكابتن ماكمينزا بصحبة السفينة La Thetig الى مسـقط لتقديمها هدية الى الامام تعويضـا عن السفينة « الصالح » مع خطاب اعتذار من الحكومة الفرنسية .

وباستثناء تلك المواقف المحرجة ، فان السـفن البريطانية والفرنسية كانت تقوم بزيارات ودية وتجارية الى مسقط لتتزود بالماء والمؤن واجراء الاصلاحات . وهكذا أثبت الامام قدراته على اتباع سياسة الحياد بين الدولتين العظميين .

وعندما توفى الامام أحمد بن سعيد فى ١٩ محرم ١١٩٨ هـ (١٥ ديسمبر ١٧٨٣ م) ، فانه ترك أحوال الامبراطورية قوية شامخة بل وزاد من هيبـة عمان فى منطقة الخليج عن طريق مواقفه الحازمة ، مثل موقفه إبان الاحتلال الفارسى للبصرة ، وأرسى دعائم سياسة يقظة وحذرة بالنسبة للتعامل مـع الدول الكبرى فى المنطقة .

أحوال عمان بعد وفاة الامام أحمد :

تعتبر الفترة التى أعقبت وفاة الامام أحمد عام ١٧٨٣ م وحتى تولى سلطان بن الامام الحكم عام ١٧٩٢ ـ فترة حرجة فى تاريخ عمان • فخـلال هذه السنوات التسع ، فان معظم الأحداث كانت تتمثل فى صراعات داخلية • ولم يبرز لعمان دور يذكر فى هذه المرحلة لتوطيد مزيد من نفوذها فى الخليج أو شرق افريقيا • الا أنه يجب التنويه أن تلك الصراعات الداخلية لم تقف حائلا فى وجه استمرار الأنشطة التجارية وتحركات السفن العمانية الى أقاصى البحار •

والصراعات الداخلية بين أبنـاء الامام ابتـدأت فى الواقع فى الفترة الأخيرة من عهد الامام ؛ الا أنه استطاع كبح جماحها • فقبل وفاته بعـدة سنوات قام ولداه سيف وسلطان بمحاولة لاظهار نفوذهما وبناء سلطتهما •

ومن المعروف أن ابن الامام الأكبر هلال كان ضريرا وغـير قادر على التحرك ، أما ابنه سعيد فكان الامام قد منحه ولاية نزوى ولم يكن طموحا • كما أن ابنه قيس ارتضى بنصيبه فى ولاية صـحار ، وكان ولداه محمـد وطالب صغيرى السن • أما ولداه سيف وسلطان من أم من قبيلة حبور فكانا طموحين وقاما بأول محاولة تمرد لهما حوالى عام ١٧٨٠ بعد توطيد علاقاتهما مع القواسم وبنى نعيم وبالتآزر مع جماعة متعاونة من نخل وتمكنا أثنـاء هجوم ليلى على مدينة بركاء من اغتيال الوالى والسيطرة على القلعة •

وردا على ذلك قام الامام بارسال قوة قامت بقصف القلعة وأجبرت ولديه على الاستسلام ، ثم عفا عنهما الامام • كما أن تلك الحادثة أثارت غضب الامام ضد اليعاربة حيث أن الامام اعتبر أن قيام جمـاعة من نخل بمساعدة ولديه لم يمكن ليتحقق لولا التأييـد من جانب الوالى محمـد بن سليمان اليعربى •

وفى عام ١٧٨١ قام سيف وسلطان بمحاولة للاستيلاء على مسقط •

وقدما فى قوة صغيرة وطلبا من الوالى السماح لهما بالدخول فرحب بهما . وبعد دخولهما على الوالى قاما بعملية السيطرة على قلعتى ميرانى وجلالى .

وعندما أدرك الوالى مكيدتهما أشعر الامام بذلك . فقام الامام أحمد بالتوجه من الرستاق الى مسقط ، وبعد أن رفض ولداه الاستسلام ، أمر الامام بالبدء بالعمليات العسكرية . وبعث سيف وسلطان برسالة الى الشيخ صقر زعيم القواسم لنجدتهما ، وتقدمت قوات الشيخ صقر الى مسقط ، واذ أحس الامام بمخاوف من تلك الحركة من جانب القواسم ارتضى بعقد صلح مع ولديه سمح لكل منهما بالاحتفاظ باحدى القلعتين .

وبعد فترة قصيرة استطاع الامام اقنـاع ولديه بالاحتفاظ بقلعـة الجلالى بينهما وأن تسيطر قواته على قلعة ميرانى . الا أن هذا التفـاهم لم يدم أكثر من عدة أشهر قام بعدها ولداه بخديعة ضد أخيهما سعيد وتمكنا من حبسه فى قلعة الجلالى .

ولم يجد الامام بدا من مواجهة ولديه مرة أخرى بالقوة ، فقـدم من الرستاق ووصل فى يناير ١٧٨٢ الى مسقط . واذ رفض ولداه الاستسلام أمر باطلاق النيران على قلعة الجلالى وتمكن سعيد بن الامام أحمد أثنـاء ذلك من الهروب من القلعة فاضطر ولداه سيف وسلطان الى الاستسلام ، وقام الامام أحمد باصطحاب ولده سيف وأبقاه معه فى الرستاق .

وبعد وفاة الامام أحمد بن سعيد اجتمع العلماء والمشايخ فى الرسـتاق حيث تم انتخاب ابنه سعيد اماما . وبايعت له جميع المناطق ، وبعد المبايعة بقيت قلاع الحزم ونخل فى أيدى اليعاربة تحت ولاية محمـد بن سـليمان اليعربى . كما احتفظ قيس بن الامام بصحار . أما سيف وسلطان فقد بعثا برسالة الى زعيم القواسم لمناصرتهما فى القضاء على الامام سـعيد . أما الشيخ صقر فانه بدلا من مناصرة سيف وسلطان فقد جمـع قوات كبـيرة

واستطاع أن يخضع بها مدن الشمال : الشارقة . والرمس ، وخورفكان وجزيرة الحمراء تحت سلطته • وفشلت قوات الامام سعيد فى هذه المرحلة من استرداد تلك المناطق •

واذ يئس سيف بن الامام من محاولة السيطرة على الحكم فى عمان هاجر الى شرق افريقيا حيث نزل على مدينة لامو التى لم تكن تتواجد فيها قوات للامام واستطاع السيطرة عليها ؛ الا أن الامام سعيد بعث بعد ذلك بقوة بقيادة ابنه حمد ، لكن حمد ما أن وصل الى لامو وعلم بوفاة عمه سيف حتى عاد ادراجه الى عمان • أما سلطان فانه هاجر الى اقليم مكران حيث أقطعه حاكمها ميناء ومدينة جوادر وحيث عاش كلاجىء لعدة أعوام وكان خلالها يأخذ نصف ايرادات الميناء لنفسه ويسلم النصف لحاكم مكران حسب الاتفاق بينهما •

وخلال السنوات الثلاث التالية . تمكن حمد بن الامام سعيد من الاستقرار فى مسقط . حيث استطاع أن يظهر قدراته كمقاتل طموح • وعندما نشبت المعارك مجددا بين القواسم والامام سعيد عام ١٧٨٧ أدى حمد ابن الامام سعيد دورا كبيرا الى جانب قائد الحملة العمانية محمد بن خلفان فى محاصرة المدن التى كان القواسم قد استولوا عليها سابقا • وتمكن من استرداد خور فكان وجزيرة الحمراء وفرض الحصار حول الرمس ثم عاد الى مسقط تاركا الأسطول للقيام بعمليات ضد جلفار (رأس الخيمة) •

وفى نفس الوقت فان سلطان بن الامام أحمد الذى يبدو أنه قد مل الاقامة فى منفاه بجوادر عاد نشيطا الى مسقط : واستطاع أن يضمن دعم زعيم قبيلة بنى جابر : محمد ناصر الجابرى الذى كانت تربطه به صلات النسب من والدته • واذ نما الى علم سيد حمد الاستعدادات التى كان يقوم بها عمه سلطان ، بادر بقيادة حملة ضده فى سمائل الا أنه وجد أن قوات عمه تفوق قواته فاتجه الى الرستاق للاجتماع بوالده : ومكنت هذه الظروف

سلطان بن الامام أحمد من التقدم صوب مسقط وجمع الغنائم أثناء حملته على مطرح • وأجبرت هذه الأحداث حمد بن الامام سـعيد الى البحث عن صلح مع عمه بقيت مسقط بموجبه تحت سيطرته •

وفى عام ١٧٩٢ ـ كان سيد حمد مشغولا فى اعداد حملة كبيرة لم يعرف وجهتها ، اذ أن اصابته بمرض الجدرى قد أودى بحياته •

أوضاع الدولة العمانية فى عهد سلطان بن الامام أحمد (١٧٩٣ ــ ١٨٠٤) •

أثبت سلطان ، كما وضح من خلال الأحـداث السـابقة ، أنه كان ذا شخصية قوية وطموحة • فقد كان الرجل طويل القامة ، قوى البنية اتصف بالجرأة والنبل مثل والده الامام أحمد • وعندما توفى السيد حمـد ، أدرك سلطان بن الامام أحمد أن الفرصة أصبحت سانحة له لتحقيق طموحاته فى حكم عمان • فاستغل الفراغ الناشىء من موت سيد حمد وتمكن بمسـاعدة زعيم التحالف الغـافرى محمـد بن ناصر الجابرى من الاسـتيلاء على مسقط •

وقد حاول الامام سعيد من جانبه أن يعيد تثبيت سلطته فى الرستاق ، فجمع قواته وأخوته فى تحالف ضد السيد سلطان ؛ وتحركت القـوات من الرستاق وصحار صوب مسـقط الا أن القبائل الغـافرية كانت قادرة على صدها • وترتب عن ذلك عقد صلح فى بركا بين الاخوة المتنازعين وتم الاتفاق خلاله على أن يبقى الامام سعيد فى العاصمة القديمة رستاق كزعيم روحى للدولة وأن يحتفظ قيس بحكمه فى صحار وأن يصبح أخوهما محمد حاكما فى السويق •

أما مسقط التى أصبحت فى هذه الفترة العاصمة الفعلية للدولة فتبقى خاضعة لسيد سلطان الى جانب بركا وأن يتولى السـيد سلطان المسؤوليات السياسية للدولة • وبهذا القرار نستطيع أن نقول أن السيد سلطان أصبح

الحاكم الفعلى لعمان • فقد كانت مسقط فى هذه الفترة هى المركز التجارى الرئيسى فى عمان واليها كانت ترد أيضا الايرادات من كافة الموانى العمانية فى الخارج • كما أنها كانت القاعدة البحرية العسكرية الرئيسية فى عمان •

وبرغم أن فترة حكم السيد سلطان تعتبر قصيرة من الناحية التاريخية (عشر سنوات) . الا أن عمان شهدت فى عهده أعظم الحوادث السياسية • ففى عهده بلغ الصراع بين الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا فى منطقـة الخليج أوجه •

ويمكننا تقسيم فترة حكم السيد سلطان القصيرة الى قسمين رئيسيين . الأولى امتدت حتى عام ١٨٠٠ . كان السيد سلطان خلالها يعمل بكل همـة على توسيع رقعة الامبراطورية العمانية وزيادة نفوذها خصوصا فى منطقة الخليج • أما الفترة الباقية من عمره حتى عام ١٨٠٤ م فقد كان عليه أن ينتقل الى سياسة الدفاع عن المكاسب التى تحققت فى عهده . ومواجهة التحديات المستجدة . من جانب القوى الاقليمية الأخرى •

ففى مجال توسيع رقعة الامبراطورية العمانية ، كانت أولى الأعمـال التى قام بها سيد سلطان ارسال حملة بحرية بقيادة سيف بن على لاحتلال ميناء جوادر فى الجزء الجنوبى الغربى من فارس حيث أقام فيها عدة سنوات لاجئا سياسيا • وقد تمكن القائد العمانى الى جانب الاستيلاء على جوادر . من الاستيلاء على قرية شهبار غربى جوادر حوالى ١٠٠ ميـل والمطلة على المحيط الهندى أيضا • وقد أدى نجاحه فى تلك الحملة الى قيامه بقيـادة حملة أخرى قوية ضد بنى معين فى جزيرتى قشم وهرمز على مدخل الخليج • وكانت الحملة مركزة ومنظمـة الى درجة أن الجزيرتين سقطتا فى أيـدى القوات العمانية •

ونظرا الى أن شيخ بنى معين كان قد استأجر ميناء بندر عباس بفرمان من الشاه . فانه ترتب على سقوط حكومة بنى معين أن تمكن السيد سلطان ابن الامام عام ١٧٩٤ م من استصدار فرمان من الشاه استأجر بموجبها ميناء بندر عباس وتوابعها مقابل ايجار سنوى قدره ٦٠٠٠ تومان وحل فى ذلك محل شيخ بنى معين •

وأدت هذه الفتوحات العمانية ليس فقط الى توسيع رقعة الامبراطورية العمانية . بل أنها منحت عمان السيطرة الكاملة على جانبى مضيق هرمز وبالتالى السيطرة على التجارة عبر الخليج •

كانت المحطة التالية فى مخطط سيد سلطان لتوسيع رقعة الامبراطورية العمانية هى جزر البحرين التى كان يحكمها فى تلك الفترة آل خليفة وهم فرع من قبيلة العتوب تمكنوا من اقامة حكم عربى فيها عام ١٧٨٣ م •

وفى عام ١٧٩٩ بعد أن تمكن السيد سلطان من قمع تمرد من جانب قبائل الدروع وبنى نعيم فى الظاهرة قاد حملة بحرية ضخمة على رأس فرقاطته البحرية جنجافا الى جانب ثلاث سفن ثلاثية الشراع وستين بغلة واتجه بها الى البحرين • وكان لرفض العتوب فى البحرين دفع الضريبة البحرية التى كانت تتقاضاها عمان من جميع السفن المتجهة من الهند الى الخليج مبررا كافيا لاعلان الحرب ، حيث أن رفض العتوب سداد تلك الضريبة أثرت على العوائد المالية لعمان •

. واذ أدرك العتوب عدم قدرتهم على مجابهة قوات السيد سلطان ، فانهم استنجدوا بفارس طالبين حمايتهم ومعلنين استعدادهم لدفع جزية سنوية اليهم • وعندما علم السيد سلطان بذلك . فانه قرر التفاوض مع الفرس ، وفى نفس الوقت عرض على حاكم فارس استعداده لاستئجار جزيرة الخرج مقابل ايجار سنوى مع سداد ايجار السنوات الخمس مقدما • الا أن جهوده

تلك مع الفرس لم تؤد الى أية نتائج • وارتضى فى النهـاية سحب قواته مقابل قيام العتوب بسداد جزء من الضرائب المتجمعة •

وفى عام ١٨٠١ ، أرسل السيد سلطان حملته الثانيـة الى البحـرين بقيادة سيف بن على الذى سبق وأن نجح فى الاسـتيلاء على جزر قشـم وهرمز من بنى معين • واستطاع القائد العمانى أن يحقق أهدافه ويسيطر على البحرين وقد تلا ذلك تعيين نجل السيد سلطان « سالم » الذى كان يبلغ من العمر ١٢ عاما واليا عليها ، الا أن السيطرة العمانية لم تستمر على البحرين أكثر من بضعة أشهر تمكن بعدها العتوب من استعادة سلطانهم •

ورغم ذلك ، فان جهود سلطان لم تتوقف ضد البحرين ، فقام بارسال حملة ثالثة عام ١٨٠٢ بقيادة سيف بن على مرة أخرى ، واستطاعت الحملة احتلال جزء من البحرين التى تمكنت من الصمود هذه المرة نتيجة المساعدات التى تلقتها من السعوديين ، فحاول السيد سلطان اكمال فتوحاته بالتعـاون مع الفرس وبعث الشيخ على على رأس وفد لمقابلة أمير شـيراز مع هدايا قيمة وقبل أن تأتيه أية مساعدات قام فى يونيو ١٨٠٢ بدعم الحملة بأسطول آخر بقيادته شخصيا وحاول لمدة شهرين متتاليين تحقيق الانتصار ، كمـا وصلته امدادات من جانب الفرس بقـوات قوامها ٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من المشاة وتمكنت الحملة من تحقيق أهدافها : اذ وافق العتـوب على قبـول السيادة الأسمية لعمان على الجزر ودفع الضرائب المقررة ؛ كمـا أدت الى الحاق هزيمة كبيرة فى قطع الأسطول البحرينى • الا أن السيطرة لم تدم مرة أخرى على البحرين ، اذ تمكن العتوب بالتعاون مع السـعوديين من اعادة سيطرتهم على تلك الجزر بعد فترة قصيرة •

ومن الجهود الأخرى التى بذلها السيد سلطان لتوطيد نفوذ عمان فى الخليج قيامه بقيادة حملة فى ديسمبر من عام ١٧٩٨ نحـو البصرة • وكان هدف الحملة اجبار العثمانيين على دفع المستحقات من الضريبة التى تقررت

فى عهد والده الامام أحمد مقابل المساعدات العسكرية الى قدمها لفك الحصار الفارسى عن البصرة ٠ ولكى يضمن نجاح الحمله عقد صلحا مع القواسم فى تلك الفترة ٠

ولما كانت البصرة خالية من قطع أسطول بحرية قادرة على صد الهجوم العمانى ، فان والى البصرة طلب من المقيم البريطانى السيد مانستى مساعدته لصد الهجوم ، الا أن الحكومة البريطانية آثرت عدم زج نفسها فى الصراعات المحلية بين دول الخليج ٠ وقد تمكن مستر مانستى أخيرا فى التوسط بين الطرفين والحصول على ترضية مناسبة لسيد سلطان ٠

وتعتبر جهود السيد سلطان فى البحرين آخر جهوده فى توسيع رقعة الامبراطورية العمانية ، اذ أن الحوادث اللاحقة وبخاصة محاولات التوسع السعودية ، قد أجبرت السيد سلطان الى الانتقال من سياسة الهجوم الى الدفاع وذلك بهدف حماية عمان ونفوذها فى الخليج من العدوان ٠

علاقات السيد سلطان بالسعوديين :

تعرف العلاقات بين عمان والسعوديين عند غالبية المؤرخين بالعلاقات العمانية الوهابية ٠ ولتوضيح تلك العلاقات بصورة مفصلة تجدر بنا العودة الى الوراء لنفهم الصلة بين الحركة الوهابية والفتوحات السعودية فى أرجاء الجزيرة العربية ٠

تعود جذور تلك الحركة الى أحد علماء الدين محمد بن عبد الوهاب الذى ولد وتفقه فى « العيينة » فى أواسط الجزيرة العربية ، وتتلخص دعوته الدينية فى الالتزام التام بمبدأ « التوحيد » ونبذ النذور ونبذ الدعوات الى الصالحين ، والدعوة الى الله وحده سبحانه وتعالى ٠ كما أنه اعتبر اللجوء الى غير الله والدعوة الى الأنبياء والصالحين شركا بالله وكفرا ٠٠٠ وبدأ بنشر مفاهيم دعوته بين الناس واستجاب لدعوته عدد كبير من الناس ٠

وحدث التطور الجذرى لدعوته عندما بايعه محمد بن سعود أمير الدرعية • وترتب على هذه المبايعة تعهد محمد بن سعود بالعمل على نشر تعاليم محمد بن عبد الوهاب ••• واعتبار محاربة من يقاومها جهادا فى سبيل الله ••• وهكذا بدأت الفتوحات من جانب الأمير محمد بن سعود • وبحلول عام ١٧٦٥ م (عام وفاة محمد بن عبد الوهاب) كانت نجد كلها قد أصبحت خاضعة للسعوديين : ونشأت فيما يعرف عند المؤرخين « الدولة السعودية الأولى » •

وقد ساهمت حركة آل سعود فى توحيد الجزيرة العربية التى كانت خاضعة اسميا للدولة العثمانية وعمليا للصراعات القبلية . كما أن الموارد المالية المتعددة من الزكاة والعشور على الأراضى والمواشى والبضائع والخراج على المدن وخمس الغنائم ساهمت فى اثراء « بيت المال » التابع للدولة •

وكانت القبائل المحاربة تأخذ أربعة أخماس غنائم الحرب • وكان من الطبيعى أن تجابه الفتوحات السعودية بمواقف عدائية من جانب الدولة العثمانية وأشراف مكة الذين بدأوا يفقدون السيطرة تدريجيا على الجزيرة العربية • وفى عام ١٧٩٥ تمكن السعوديون من اخضاع منطقة الاحساء فى شرق الجزيرة العربية تحت الحكم السعودى • ثم بدأت الفتوحات السعودية فى ثلاثة اتجاهات : غربا نحو الحجاز والمدن المقدسة : شمالا نحو العراق وجنوبا نحو مناطق فى شرق الجزيرة العربية •

وصلت طلائع القوات السعودية فى مستهل عام ١٨٠٠ الى منطقة الظفرة بقيادة سالم الحارق . وكانت تتكون من ٧٠٠ فارس وفى فبراير وصلت تلك القوات الى واحة البريمى • ويبدو أن خلافات بعض القبائل فى منطقة الظاهرة مع السيد سلطان قد سهلت عملية وصول القوات السعودية الى البريمى • ومنها وجه القائد السعودى رسالة الى السيد سلطان يطلب منه قبول مبادىء الدعوة الوهابية والسلطة الروحية للأمير عبد العزيز •

وجهز السيد سلطان قوة ضخمة بالتآزر مع أخيه قيس بصحار وتقدمت القوات العمانية عبر وادى الجزى • فآثر القائد السعودى التوجه الى رأس الخيمة لعقد تحالف مع القواسم الذين كانوا فى صراع مع سيد سلطان • وتقدمت القوات المشتركة ، الا أن السيد سلطان كان قادرا على صـــدها فاضطر القواسم الى عقد صلح مع السيد سلطان • ثم دارت المعركة بين القوات العمانية والسعودية ، وانتهت بعقد صلح وافق السيد سلطان بموجبه على بقاء قائد القوات السعودية فى البريمى وذلك للتفرغ لتحقيق طموحاته فى السيطرة على البحرين • وقد عادت البريمى بعد ذلك لعمان •

وبانشغال السيد سلطان فى عملياته ضد البحرين ، قام القائد السعودى ببناء تحصيناته العسكرية فى البريمى . فقام ببناء القلعـــة الجديدة : قصر الصبارة الى جنوب قصر الخندق •

ولمـــا كان هذا القائد السعودى شديد الطموح ؛ مغاليأ فى الثقة بنفسه ، حاول محاولات شديدة فى السيطرة على بعض القبائل القريبة من حدوده توطئة لفرض الزكاة عليهم •

ولمدة ثلاث سنوات بقيت تلك الأوضاع قائمة ؛ ولكن عندما ذهب السيد سلطان فى يناير من عام ١٨٠٣ لأداء فريضة الحج وجد فى نفس الوقت أن القوات السعودية كانت على مشارف مكة • وبناء على طلب شريف مكة قام بارسال معونة عسكرية ومالية بعد عودته الى مسقط ولكن تلك المعونة وصلت متأخرة علاوة على أنها أثارت غضب الأمير عبد العزيز •

وقد ظهرت الخلافات بين الأمير عبد العزيز وبين السيد سلطان ، وكانت خلافات شديدة جعلت الحرب لا مفر منها بين الطرفين ، فقام القائد السعودى سالم بن الحارق بشن الحرب ، غير أنه فى نهاية الأمر تم الصلح بين الطرفين وأن يبقى الطرفان فى حالة سلام لثلاث سنوات •

ولكن تلك الاتفاقية لم يكتب لها الاستمرار ؛ فقام ســالم الحـــارق

بحملة أخرى بعد أن وصلته الامدادات وتوجه بها نحو الباطنة وقام السيد سلطان بمقابلته بقواته فى شمال السوق •

وفى هذه اللحظة وصلت الى السيد سلطان والقائد السعودى أنباء اغتيال الأمير عبد العزيز فى الدرعية من قبل رجل شيعى انتقاما لمقتل أولاده أثناء الحملة السعودية على كربلاء وتم اغتيال الأمير السعودى أثناء تأديته فريضة الصلاة • وأدت هذه التطورات الى رفع القائد السعودى حصاره عن صحار والعودة بقواته الى البريمى ؛ كما أجبرت زعيم القواسم شيخ سلطان بن صقر على عقد صلح مع سيد سلطان •

العلاقات الدولية فى عهد السيد سلطان :

واجه السيد سلطان أصعب فترات الصراع بين الدولتين العظميين فى منطقة الخليج ، كما واجه الضغوط السياسية من قبل الدولتين العظميين ، حيث حاولت كل منهما أن تكسبه الى جانبه • ومن المعلوم أن السيد سلطان كأسلافه حافظ على استمرار العلاقات الودية والتجارية مع الفريقين ، كما أنه لم يسمح لأى من الدولتين العظميين انشاء بعثات سياسية دائمة لهما ؛ وحال دون حدوث اشتباكات بين الفريقين فى المياه الاقليمية لعمان •

ومن نماذج حسن العلاقات الفرنسية العمانية تواجد طبيب فرنسى فى خدمة السيد سلطان وتواجد وسيط تجارى هندى لرعاية مصالح الشركة الهندية الشرقية التابعة لبريطانيا ولرعاية أمور البريد التابعة للشركة •

وفى نهاية عام ١٧٩٦ بعث حاكم بومباى جوناثان دانكان بضابط الى مسقط لتقييم حجم النفوذ الفرنسى فى مسقط ولمعرفة موقف السيد سلطان من بريطانيا • وكان رد السيد سلطان وديا للغاية اذ أكد من خلاله بأنه حريص

على استمرار علاقات المودة القائمة • ولكن التطور الأساسى فى العـــلاقات جاء عقب نجاح نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ فى الاستيلاء على مصر •

وكان اعتقاد المسؤولين البريطانيين فى الهند بأن مسقط ستكون المحطة القادمة لبونابرت فيما اذا فكر فى غزو الهند • فأوفد دنكان مهدى على خان ، المقيم البريطانى فى بوشهر لزيارة مسقط والتباحث مع السيد ســـلطان عن امكانية ابعاد الفرنسيين وحلفائهم الهولنديين عن مياه مسقط خلال فترة الحرب والسماح لبريطانيا بانشاء مقيمية فى مسقط •

كان العرض البريطانى يشكل مرحلة بالغة الأهمية فى مسار العلاقات الدولية وكان على السيد سلطان : أما رفض العرض البريطانى وقبول النتائج المترتبة وتعريض المصالح العمانية القوية مع الهند للاهتزاز وهو احتمال كان قائما فى ظل ظروف الحرب بين بريطانيا وفرنسا ، أو محاولة استغلال العرض البريطانى لعقد تحالف مع بريطانيا يفرض نوعا من الالتزامات والحقـــوق المتكافئة •

استمرت المباحثات بين السيد سلطان ومهدى على خان عـــدة أيام ، ونتج عنها توقيع السيد سلطان فى أكتوبر ١٨٩٨ « القولنامة » التى تضمنت فى المادة الثانية بعد الديباجة بأن عدو أحد الطرفين هو عدو الطرفين وصديق أحد الطرفين هو صديق كليهما • كما تضمنت مواد القولنامة تعهدا من جانب السيد سلطان بمنع الفرنسيين والهولنديين من فتح مقيمية فى مسقط ومساندة بريطانيا ، اذا حصلت معارك داخل المياه الاقليمية فى مسقط • الا أنه رفض التعهد بتقديم أية مساعدة عسكرية لبريطانيا اذا وقعت الحروب فى أعالى البحار •

وفى نفس الوقت اعتذر السيد سلطان عن السماح لبريطانيا بفتح مقيمية لها فى مسقط ، ولكنه سمح بفتح مقيمية لها فى بندر عباس ، الأمر الذى لو

تحقق كان سيكسب عمان اعترافا من احدى الدول العظمى بخضوع بنــدر عباس لعمان • وطلب السيد سلطان فى نفس الوقت تقوية الروابط التجارية وذلك بالسماح للسفن العمانية بالتزود بالمياه والأخشاب من ميناءى بومباى وكلكتا مجانا أسوة بالخدمات التى تقدم للسفن البريطانية فى مسقط ، كمــا طلب الســـماح بزيادة صــادرات عمــان من الملح الى كلكتا من ١٠٠٠ الى ٥ آلاف •

وفى يناير ١٧٩٩ بعث نابليون بونابرت بعد استيلائه على مصر برسالة الى السيد سلطان مصحوبة برسالة أخرى الى تيبو صاحب ، حاكم مانجالور وقد تضمنت رسالة بونابرت الى السيد ســلطان ابلاغه بوصــول الجيش الفرنسى الى مصر • وتأكيد رغبته فى استمرار علاقات الصداقة بين البلدين وترحيبه لتقديم حمايته للسفن العمانية التى تقدم الى السويس مع رجائه بارسال الرسالة المرفقة الى صاحبها تيبو سلطان • ولكن الذى حصل فان الرسالتين قبل وصولهما الى السيد ســلطان وقعتا فى يدى منــدوب شركة الهند الشرقية فى مخا وحولتا الى بومباى حيث تم تفسيرها بأن السيد سلطان يحاول التخلص من التزاماته حسب قولنامة ١٧٩٨ •

وبناء عليه قامت السلطات البريطانية بايفــاد الكابتن مالكولم لمقابلة السيد سلطان فى محاولة للحصول على تأكيد بالتزامه بالقولنامة • وفى نفس الوقت طلب من السيد سلطان قبول تعيين مقيم سياسى بريطانى • وقــد أكد السيد سلطان لمستر مالكولم أثناء مقابلتهما حرصه على دعم عــلاقات الصداقة بين البلدين ووقع يوم ١٨ يناير اتفاقية تؤكد نصوص قولنامة عام ١٧٩٨ ، كما وافق على احلال الجراح بوجل محل الطبيب الفرنسى وأن يكون الدكتور بوجل فى نفس الوقت أول مقيم لرعاية المصالح البريطانية فى مسقط•

والواقع فان هذه المعاهدة مع بريطانيا لم تلغ العلاقات التجــارية القائمة مع فرنسا والتى كان السيد سلطان حريصا عليها • ففى مايو ١٨٠٠

أبلغ السيد سلطان وفدا من بومباى بأنه لا يعتبر أن القولنامة تفرض عليه تحالفا هجوميا ودفاعيا مترمتا ، وأنه فى الوقت الذى يمنـــع الفرنسيين من الاقامة فى بلده فانه يعتبر من حقه استمرار العلاقات التجارية وتزويد السفن الفرنسية التجارية بالمؤن •

وهكذا استمرت السفن التجارية الفرنسية تزور ميناء مسقط • وفى أغسطس ١٨٠٣ قدم وفد فرنسى برئاسة دو كافيناك لمقابلة السيد ســلطان طالبا السماح للفرنسيين بتعيين مقيم سياسى فرنسى ، الا أن حاكم عمـــان اعتذر عن ذلك استنادا لقولنامة عام ١٧٩٨ مؤكدا فى نفس الوقت حرصـــه على استمرار العلاقات التجارية المعتادة ودراسة أى اقتراح من شأنه تقوية تلك العلاقات ، الا أن بريطانيا من جانبها تقاعست عن تقديم أية مســاعدة عسكرية للسيد سلطان فى حروبه مع السعوديين •

وكان واضحا أن جهود السيد سلطان فى الفترة الأخيرة من حكمه كانت مركزة على استمرار بسط السلطة المركزية على أرجـــاء عمان فى مواجهة الفتوحات السعودية والنمو المتعاظم للقواسم • ومن الأفكار التى تطرق اليها هو عقد تحالف مع العثمانيين عن طريق باشا بغداد للقيام بعمليات مشتركة ضد السعوديين •

وفى سبتمبر ١٨٠٤ ، قام بالتحرك صوب البصرة للتأكـــد من مـــدى الاستعدادات الفعلية القائمة من جانب العثمانيين ، حيث تأكد له أن الحكومة العثمانية لم تكن جادة • وأثناء عودته بالخليج فى نوفمبر من نفس العــام انتقل على ظهر قارب منفرد للنزول على جزيرة باسيدور حيث فوجىء بهجوم من جانب بعض سفن القراصنة الذين تمكنوا من اغتياله ثم نقل الى لنجة حيث تم دفنه •

من الواضح من خلال دراسة تاريخ حياة السيد سلطان أنه ترك شؤون

الامبراطورية أقوى مما كانت • فقد وسع من رقعة الامبراطورية العمانية وأصبح العديد من الموانى فى الجانب الفارسى من الخليج تابعة لعمان وعلى وجه الخصوص ميناء قشم وميناء هرمز الاستراتيجيين على مداخل الخليج اضافة على ميناء بندر عباس ولنجة وشهبار وجوادر •

وفى شرق افريقيا بقيت الأوضاع سائدة كما كانت فى عهد والده الامام أحمد •

ومن الناحية العسكرية فان أسطول السيد سلطان الخاص كان يتكون من السفينة الضخمة جنجافا ذات ٣٢ مدفعا وطاقة حمولتها ١٠٠٠ طن الى جانب ثلاث سفن أخرى رباعية الشراع ذات عشرين مدفعا كانت تجوب البحار الى الهند ، افريقيا ، العراق وحتى حدود الصين ، أما القوة العسكرية البحرية فكانت تتكون من ١٦ سفينة حمولة كل منها ٤٠٠ — ٧٠٠ طن و ٥٠ مركبا شراعيا ضخما و ٥٠ مركبا صغيرا •

وكانت التجارة مزدهرة فى عهد السيد سلطان حتى أصبحت مسقط أعظم ميناء بمنطقة الخليج ، ومعظم التجارة كانت بأيدى العرب والجزء الآخر بأيدى البانيان من الهند • وقدرت تجارة الخليج فى عهد السيد سلطان بحوالى مليون و ٦٠٠ ألف جنيه استرلينى كان نصيب مسقط منها خمسة أثمان تلك التجارة • وكانت الجمارك على البضائع فى حدود ٦٫٥ ٪ •

والى جانب ذلك فان موارد خزينة الدولة كانت تتكون من عشور على المنتوجات الزراعية التى قدرت بمائة ألف روبية سنويا •

والواقع فان ايرادات السيد سلطان من تجارته الخاصة كانت أيضا تشكل موردا رئيسيا لخزانة الدولة • الى جانب الخراج السنوى من سواحل

شرق افريقيا والموانىء الأخرى على الجـزء الفارسى من الخليج والتابعة لعمان •

أوضاع عمان فى عهد بدر بن سيف (١٨٠٥ — ١٨٠٧) :

بموت السيد سلطان بن الامام أحمد فى نوفمبر ١٨٠٤ ، ظهرت مرة ثانية بوادر صراعات داخلية فى عمان • فقد كان أبناء السيد سلطان : سالم وسعيد صغيرى السن • وبالتالى وجد عمهما قيس حاكم صحار أن الفرصة مناسـبة لقيامه بحركة بهدف الاستيلاء على حكم عمان • وكان السيد سلطان عنـد مغادرته عمان فى رحلته الأخيرة التى أودت بحياته قد عين محمـد بن ناصر ابن محمد الجابرى وصيا على ابنيه • فاستغل قيس هذه الأوضاع للقيام بتمرده • وكان يساعد قيس فى حركته أخوه محمد ، وتمكنت قوات قيس من فرض الحصار حول مسقط •

وبرغم أن محمد بن ناصر عرض على قيس اقطاعه مدينـة الخابورة وتخصيص ٢٠٠٠ ريال ماريا تيريزى سنويا له من خزانة الدولة الا أن قيس رفض ذلك العرض • ونتيجة لهذا الاصرار فقد اجتمعت الأسرة وشاركت فى الاجتماع موزة بنت الامام أحمد ، التى كانت تلعب دورا سياسيا بارزا فى هذه الفترة وأقرت طلب المساعدة من بدر بن سيف بن الامام أحمد الذى كان متواجدا فى الدرعية فى ذلك الوقت •

وكان بدر ذا شخصية طموحة مثل والده سيف الذى قضى نحبه فى شرق افريقيا • وفى عهد عمه السيد سلطان عام ١٨٠٣ قام بأول محاولة تمرد له عام ١٨٠٣ مستغلا غياب عمه لأداء فريضة الحج • وعندما فشل فى محاولته تمكن من الهرب واتجه الى نجد حيث اجتمع بالأمـير السعودى وتمكن من توطيد علاقاته معه • وعندما وصلت الدعوة الى بدر من الوصى محمد بن ناصر فانه سرعان ما توجه الى مسقط •

إن هذه الفترة من تاريخ الجزيرة العربية تميزت بالقلاقل والخصومات بين الاخوة العرب . وقد كان للاستعمار ووسائله دخل كبير فى قيام تلك الحروب التى كانت عمان طرفاً فيها ، وهو الطرف الذى خرج من تلك الحروب ظافراً بسيادته ووحدته ، وبالرغم من كل المصاعب التى واجهته نتيجة تلك الحروب من خسارة فى المال والرجال ، فقد استعان بالصبر حتى بلغ مناه من الاستقرار .

وعندما استتبت الأمور لبدر بن سيف ، فانه لم يتوان عن توطيد نفوذ عمان فى منطقة الخليج . فقام فى يونيو ١٨٠٥ بقيادة حملة بحرية ضد بنى معين لاسترداد سيطرة عمان على جزيرتى قشم وهرمز وميناء بندر عباس فى الخليج ؛ وقد تمكن بنو معين فى فترة الاضطرابات بعد موت السيد سلطان من اعادة فرض سيطرتهم على تلك المناطق . ويوم السابع من يونيو قام الأسطول بقصف الحامية الموجودة فى بندر عباس وأجبروها على الاستسلام . ثم توجه الأسطول العمانى الى جزيرة قشم حيث فرض حصارا حولها وأجبر بنى معين على الاستسلام مرة أخرى .

العلاقات الدولية فى عهد بدر بن سيف :

بعد موت السيد سلطان بن الامام أحمد ، أوفدت السلطات البريطانية المقيم البريطانى السابق الكابتن دافيد سيتون الى مسقط بهدف اعادة فتح المقيمية البريطانية . وكانت تعليمات جورج بارلو الحاكم العام لسيتون تتضمن مساعدة أحد ابنى سلطان لتولى الحكم مع عدم استعمال أية قوة . ولكن عندما وصل سيتون فى مايو ١٨٠٥ الى مسقط وجد السيد بدر يستعد لحملته ضد بنى معين ــ حلفاء القواسم وقد قرر سيتون مواكبة حملة السيد بدر بن سيف فى بندر عباس وقشم على ظهر سفينته على أنه لم يقدم أية مساعدة عسكرية .

ومن الناحية الأخرى فان السيد بدر بن سيف كان حريصا أيضا على استمرار العلاقات الودية مع فرنسا • وقد جاء فى رسالته الى ديكان حاكم جزيرة فرنسا فى المحيط الهندى ما يؤكد حرصه على استمرار العلاقات الودية بين الدولتين وترحيبه بقدوم السفن الفرنسية الى مسقط للتزود بالمياه والمؤن •

الدولة العمانية فى عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ — ١٨٥٦) :

تعتبر فترة حكم السيد سعيد بن سلطان أعظم فترة فى تاريخ الامبراطورية من حيث نموها وازدهارها واتساعها • ففى الوقت الذى كان السيد سعيد شخصية طموحة محاربة لا تلين ولا تتزعزع قدراته من التحديات التى كانت تواجهه : فان صفاته الشخصية أهلته بأن يكون أعظم شخصية حكمت عمان فى القرن التاسع عشر ، وتلك الصفات أيضا مكنته من كسب ولاء العمانيين والرضا التام بحكمه • فقد كان متواضعا لا يفرق بين العام والخاص وكان يجنح الى الشورى فى أحكامه مستنيرا برأى الرؤساء والمشايخ •

ومن الناحية العسكرية كان جريئا يقود معظم الحملات بنفسه وكان ديبلوماسيا محنكا استطاع أن يكسب الاعتراف من جانب جميع الدول العظمى ، ووقع معاهدات الصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا • ومن الناحية المالية كان تاجرا محنكا استطاع أن ينمى الموارد المالية من التجارة وهو الذى أدخل عدة زراعات جديدة فى أجزاء الامبراطورية بشرق افريقيا •••

وفى نهاية عهده كانت تشكل ايرادات الدولة من شرق افريقيا ثلثى ايرادات الخزينة • والواقع فان الأحداث فى عهد السيد سعيد التى امتدت نصف قرن كانت جسيمة الى درجة أن كل عنصر من تلك العناصر تحتاج الى بحث •

توطيد الحكم داخليا فى عهد السيد سعيد :

بذل السيد سعيد جهودا مضنية فى سبيل توطيد دعائم الحكم فى داخل عمان بعد نجاحه فى القضاء على بدر بن سيف فى بركا عام ١٨٠٧ وبرغم أنه كان صغير السن حوالى ١٦ عاما ، الا انه تمكن خلال فترة قصيرة من تثبيت دعائم الحكم • وباستقرار الأحداث الداخلية فى عهده نجد أن عمان تميزت باستثناء الحروب مع السعوديين باستقرار تام • ولم يعكر صفو هذا الاستقرار سوى احداث الخلافات مع حاكم صحار خصوصا فى الفترات التى كان حاكم عمان موجودا خارج عمان •

ما إن تمكن السيد سعيد من تنفيذ اغتيال بدر بن سيف فى بركا ، حتى أسرع عائدا الى مسقط • ويبدو أن ثمة كراهية عامة كانت سائدة بين الناس ضد بدر بن سيف ، ولم تحصل أية محاولة تمرد ضد السيد سعيد بل إن قاطبة القبائل أيدته • وبعد وصوله الى مسقط تم الاتفاق بين الأخوين سالم وسعيد على ممارسة الحكم بصفة مشتركة • وكان سالم يكبره بعامين تقريبا الا أن شخصية سعيد كانت أقوى، ومع الوقت أصبح هو الحاكم الفعلى لعمان • كما أن عمه قيس حاكم صحار قد أيد مساعيه ••• ولكن جهود السيد سعيد فى تحقيق الوحدة الوطنية الكاملة خصوصا فى السنوات العشر الأولى من حكمه تأثرت بالصراعات التى كانت قائمة مع القوات السعودية • وتلك الصراعات لا يمكن فصلها تاريخيا عن الصراعات الداخلية •

علاقات السيد سعيد مع السعوديين :

بمجرد أن تمكن السيد سعيد من اغتيال بدر بن سيف ، فان علاقاته تدهورت مع السعوديين ، نظرا للعلاقات الوطيدة بين بدر بن سيف والسلطات السعودية • وترتب على نجاحه انسحاب الحامية السعودية التى كانت متواجدة فى بركا الى البريمى ، مقر القوات السعودية آنذاك •

وحاول السيد سعيد تأكيد روابط الصداقة مع السعوديين فبعث عام ١٨٠٨ برسالة الى الأمير سعود بن عبد العزيز يؤكد حرصه على استمرار العلاقات الطيبة واستعداده للالتزام بالاتفاقية المعقودة مع عمان .

ولكن أحداث نهاية عام ١٨٠٩ أدت الى تدهور العلاقات من جديد وقيام الحروب بين الطرفين . ففى هذا العام تمكنت بريطانيا من توجيه ضربة قوية الى القواسم فى رأس الخيمة . فنتيجة لعمليات الاعتداء من جانب القواسم على السفن البريطانية قررت بريطانيا توجيه تلك الضربة ضد القواسم وتمكن الأسطول البريطانى فى ١١ نوفمبر ١٨٠٩ من السيطرة على رأس الخيمة وحرقها ، كما تم تدمير جميع السفن التى كانت راسية فى الميناء .

وبرغم أن تلك العمليات البريطانية لم تكن حاسمة ، لأن معظم قطع الأسطول التابع للقواسم كانت فى أعالى البحار ، الا أن السيد سعيد وجد أن الوقت بات مناسبا للقيام بعمليات لتحرير الأراضى العمانية من سيطرة القواسم وبالذات مدينة شناص .

وعندما التقى الكولونيل سميث قائد الحملة البريطانية بحاكم عمان وأخيه السيد سالم بعد انتهاء العمليات ضد رأس الخيمة تشاوروا فيما يجب عمله . وعرض حاكم عمان على القائد البريطانى اشتراك قطع من الأسطول البريطانى فى حملة لاسترداد شناص .

وقد أدت العمليات المشتركة الى تمكن القوات العمانية فى السيطرة على شناص ، وكانت هذه الحادثة تشكل أول تعاون بريطانى عمانى عسكرى بعد صدور قولنامة عام ١٧٩٨ . ولكن عمليات السيطرة على شناص لم تؤد الى نتائج ايجابية اذ ما إن انسحب الأسطول البريطانى عائدا الى مقر وحداته

فى الهند . حتى أسرع القائد السعودى مطلق المطيرى . بعد أن تمكن من جمع قوات كبيرة الى اعلان الحرب على السيد سعيد ٠

ودارت الحرب بين مدٍّ وجزر ؛ وقد حاول السيد سعيد أن يحقق انتصاراً لقواته فبعث برسالة الى حكومة بومباى عام ١٨١٠ لمساعدته فى مواجهة القوات السعودية الا أن السلطات البريطانية اعتذرت عن الاستجابة لطلبه مفضلة عدم التدخل فى الصراعات الداخلية فى الجزيرة العربية ٠

ويلاحظ فى هذا الصدد أن سياسة بريطانيا فى هذه الفترة فى منطقة الخليج كانت تنحصر فى مواجهة أعمال الاعتداءات التى كانت تقوم بها سفن القواسم والذى كان أسطولهم قد وصل الى درجة عالية من القوة ، حيث قدرت عدد سفنهم فى هذه الفترة بما مجموعه ٨٧٦ قطعة بحرية منها ٦٣ قطعة كبيرة وقادرة على نقل ١٩ ألف مقاتل ٠ وفى سبيل مجابهة القواسم ؛ كانت السلطات البريطانية لا تمانع من تقديم معونة عسكرية أو القيام بحملات مشتركة مع القوات العمانية ٠ أما فيما عدا ذلك وبالذات فيما يتعلق بالسعوديين فان سياسة بريطانيا كانت تنحصر فى عدم التدخل فى تلك الصراعات وخصوصا الحروب البرية ٠

ونتيجة اعتذار السلطات البريطانية عن تقديم المساعدة لحاكم عمان فانه أوفد أخاه سالما فى مهمة الى شيراز فى محاولة للحصول على مساعدة فارسية ؛ ونجحت تلك المساعى ووصلت قوات قوامها ١٥٠٠ مقاتل بقيادة سعدى خان ٠ وتقدمت قوات السيد سعيد بقيادة أخيه سالم يسانده عمه قيس حاكم صحار وقائد القوات الفارسية صوب نخل ٠ واستطاعت تلك القوات فى البداية أن تحقق انتصارا على القوات السعودية المتحالفة مع

بعض القبائل العمانية واجبارها على التقهقر الى ازكى • ولكن ما أن تمكن السعودى مطلق المطيرى من جمع القوات وتنظيمها حتى بادر الى هجـــوم عكسى ألحق خلاله بعض الخسائر فى قوات السيد سعيد والقوات الفارسية وترتب على ذلك انسحاب فلول القوات الفارسية نهائيا من عمان •

وفى عام ١٨١٣ قام المطلق المطيرى بعمليات جديدة فى عمان ، ولكن تلك العمليات كانت سببا فى موته • ففى نوفمبر ١٨١٣ تقدم بقوات كبـــيرة من الظاهرة نحو الشرقية • وعند وصوله مناطق الحجرين تمكنت جماعة فدائية من اغتياله واضطرت بقية قواته للانسحاب الى البريمى •

وتعتبر هذه الحادثة وحادثة وفاة الأمير سعود بن عبد العزيز عام ١٨١٤ بداية تحول فى مجريات الأحداث ••• مكنت السيد سعيد من تحقيق سيطرته على أرجاء عمان ثم التفرغ لمجابهة الأحداث فى منطقة الخليج وتوسيع رقعة الامبراطورية العمانية وتوطيد نفوذها •

وقد تصادف فى نفس العام أن توفى ابن عمه قزان بن قيس أثناء تأديته فريضة الحج • وكان قزان قد خلف والده فى حكم صحار • وبوفاة قزان بن قيس خضعت صحار للمرة الأولى للسلطة المركزية للسيد سعيد •

وتجدر الاشارة هنا الى أن انتصارات محمد على والى مصر ضد الأمراء السعوديين كان لها دور أيضا فى تخفيف حدة أحداث الصراعات العمانية السعودية فى تلك الفترة • فقد تمكنت قوات محمد على من تحقيق انتصارات متتاليـــة على قوات الأمراء الســـعوديين ، وتمكنت فى أبريل ١٨١٨ م من الاستيلاء على الدرعية العاصمة وأنهت بذلك ما يعرف بالدولة الســـعودية الأولى • ولم تتجدد الصراعات بين عمان والسعوديين الا بعـــد أن تمـــكن

الأمراء السعوديون مرة ثانية من انشـاء دولتهم التى تعـرف « بالـدولة السعودية الثانية » •

وكما أسلفنا فقد مكنت هذه الظروف السيد سعيد من تحقيق مزيد من الوحدة الوطنية • وفى عام ١٨٢٠ ، قرر السيد سعيد توجيه حملة ضد بنى بوعلى فى الشرقية • وكانت قبائل بنى بوعلى على خصام مع السيد سـعيد لسنوات عديدة ، وكانت متحالفة مع القوات السعودية • وتصادف فى نفس الوقت ان كانت السلطات البريطانية راغبة فى توجيه ضربة انتقامية لقبائل بنى بوعلى بسبب قيامهم باغتيال مترجم من سفينة مركورى البريطانية أثناء تواجده فى الأشخرة فى فترة سابقة • فاشـتركت قوات بريطانية بقيـادة الكابتن تومبسون مع قوات السيد سعيد فى الحملة التى وصـلت فى بداية نوفمبر ١٨٢٠ الى بلاد بنى بوعلى • وكانت قوة السيد سعيد تتألف من ١٠٠٠ مقاتل • وعندما رفضـت قبائل بنى بوعلى الاسـتسلام بدأت العمليـات العسكرية ولكنها أدت الى خسائر فظيعة فى جانب القوات البريطانية الذين خسروا ٦ من ضباطهم و ٢٧٠ قتيلا آخرين الى جانب فقدانهم لكل القطـع الحربية التى تم انزالها •

وخلقت تلك الخسائر الفادحة حافزا أقوى لدى السلطات البريطانية فى توجيه حملة أخرى ضد بنى بوعلى • فقامت بايفاد حملة بحرية أخـرى بقيادة الكولونيل ليونيل سميث فى يناير عام ١٨٢١ م • وتمكنت القـوات البريطانية من الحاق هزيمة كبيرة فى قوات قبائل بنى بوعلى والتى حضرها السيد سعيد أيضا •

وكانت نتيجة تلك الهزائم التى منيت بها قبائل بنى بوعلى ان امتدت سيطرة السيد سعيد على تلك الأجزاء من عمان •

وفى فبراير من نفس العام توفى السيد سـالم بن سـلطان مما مكن

السيد سعيد من الانفراد بالسلطة • ويعتقد بأن الامام سـعيد بن الامام أحمد أيضا توفى فى نفس العام فى العاصمة القديمة : الرستاق والذى كان يمارس سلطاته كزعيم روحى هناك •

وقد حفزت الأوضاع المستقرة فى عمان بعد اخضاع قبائل بنى بوعلى عام ١٨٢١ م ، الى تفرغ حاكم عمان لتوطيد شؤون الامبراطورية فى الخليج وشرق افريقيا • وخلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر بذل السـيد سعيد جهودا لتوطيد نفوذ عمان فى منطقة الخليج • وبعد العقد الرابع حتى وفاته كانت جهود السيد سعيد منصبة على توسـيع رقعـة الامبراطورية العمانية وتحقيق ازدهارها فى شرق افريقيا وكذلك الى توطيـد العـلاقات الدولية •

ولكن فى العقد الرابع توترت من جديد العلاقات مع السعوديين بعـد أن تمكن آل سعود من استرداد حكمهم • وفى نهاية عام ١٨٣٢ بعد عودة السيد سعيد من زنجبار من رحلته الثانيـة برزت المشـكلة من جدير مع السعوديين • وقد آثر السيد سعيد نظرا لاهتمامه فى تلك الفترة كما أسلفنا ، للتفرغ لشـؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا أن يوطد العـلاقات مع السعوديين . بأن عقد صلحا مع السعوديين . كما أنه اتفق مع السعوديين على التعاون بين البلدين للقضاء على أعدائهما ••• وهذا الاتفاق يبدو أنه كان رمزا سياسيا للتفاهم الودى . اذ لم يترتب عنه تحقيق أى تعـاون فعلى فيما بعد • كما أن السلطات البريطانية عبرت عن مخاوفها من مثـل هـذا الاتفـاق •

وهكذا ساد العلاقات بين الدولتين جو من التفاهم • وفى عام ١٨٤٥ ، قام القائد السعودى سعد بن مطلق بقيادة هجوم برى من البريمى عبر

الباطنة صوب مسقط • واذ كان السيد سعيد فى تلك الفترة موجودا فى زنجبار فان ابنه سيد ثوينى عرض حل المشكلة وديا بعد رجوعه الى والده • وفى نفس الوقت فان القبائل العمانية كانت تتجمع من أجـل توحيد جهودها لمواجهة التطلعات السعودية • ونتج عنها موافقة القائد السعودى حل الخلافات وديا •

وفى عام ١٨٥٣ ، قدم الأمير عبد الله محل الأمير فيصـل الى عمان ، وبعد أن تمكن من جمع قوات كبيرة وجه الى السيد ثوينى طلبا بتسليم صحار ودفع أتاوة ضخمة • وتحرك السيد ثوينى نحو صحار حيث تجمعت القبائل العمانية استعدادا للمعارك ، ومرة أخرى وافق الطرفان على انهاء النزاع والاتفاق على الصلح •

جهود السيد سعيد فى توطيد شؤون الامبراطورية فى منطقة الخليج :

ما ان استتب الاستقرار الداخلى حتى بدأ السيد سعيد يوجه جهوده صوب منطقة الخليج • ومن المعلوم أن السيد سعيد ورث عن والده سلطان حكم العديد من الموانىء فى منطقة الخليج أهمها جزيرتا قشم وهرمز على مداخل الخليج علاوة على ميناء بندر عباس وتوابعها التى كان السيد سلطان قد تمكن من استئجارها من الحكومة الفارسية مقابل ايجار سنوى •

وفى يوليو من عام ١٨٢٦ ، أوفد السيد سعيد أسطولا قام بمحـاصرة ميناء بوشهر • وبناء على رغبـة المقيم السياسى البريطانى لم يقم بقصف المدينة الا أنه تمكن من أسر حاكم بوشهر وابقاءه فى عمان مدة عام ، وافق بعدها على الافراج عنه مقابل فدية بلغت ٦٠٫٠٠٠ ريال وزواجه من أميرة فارسية كانت حفيدة فتح على شاه •

وهكذا بقيت الموانىء الفارسية خاضعة لحكم عمان حتى عام ١٨٥٤ ، عندما قامت حكومة فارس من شيراز لاعادة سلطة فارس على ميناء بندر عباس وتوابعها • وتمكنت القوات الفارسية من اجلاء الوالى العمانى سيف ابن نبهان عنها • فاضطر السيد سعيد الى العودة من زنجبار لمواجهة تلك التطورات • وبعد عودته قام بارسال قوة بحرية بقيادة نجله السيد ثوينى الذى تمكن من اعادة احتلال بنــدر عبــاس ، ولكن بعــد ورود مزيد من التعزيزات من شيراز تمكنت القوات الفارسية من اجلاء العمانيين • فقــام السيد سعيد بفرض حصار حول بندر عباس لعزلها عن العالم الخارجى • واضطرت السلطات الفارسية عام ١٨٥٦ للدخول فى مفارضات ترتب عنهــا عودة السلطة العمانية على بندر عباس وتوابعها ، على أن يرفع الايجــار السنوى الى ١٦٫٠٠٠ تومانا ، وعــدم السماح للسلطات العمانية بالتصرف بالميناء بمنحه لطرف ثالث وأن ينال تعيين الوالى الجديد موافقة الســلطات الفارســية •

وكانت البحرين هدفا دائما وثابتا فى مخطط السيد سعيد وذلك على نهج والده • ومن المعلوم تاريخيا أن اليعاربة استطاعوا اخضاع البحرين للحكم العمانى لفترة زمنية ، كما نجح السيد سلطان والد السيد سعيد من احتلال البحرين لفترات وجيزة ، فى مطلع القرن التاسع عشر •

و فى عام ١٨١٠ استطاعت السلطات السعودية توحيد البحرين والقطيف وقطر فى ادارة واحدة عين عليها عبد الله بن عفيصان وكانت سلطة آل خليفة اسمية فى تلك الفترة • فاضطر آل خليفة للهجرة الى الزبارة ومنها طلبوا عون القوات الفارسية وتمكنوا بمساعدتها من اعادة سيطرتهم على البحرين خصــوصا وأن القوات السعودية اضطرت فى تلك الفترة الى الانسحاب من معظم المناطق لمواجهة تقدم القوات المصرية فى نجد •

وقد حاول السيد ســعيد أن يتحالف مع السعوديين للاســتيلاء على

البحرين على أن يدفع للسعوديين فى حالة نجاحه ايجارا سنويا عنها ، الا أن جهوده تلك فشلت • ثم تقدم السيد سعيد بعرض على الحكومة الفارسية للتعاون فى اخضاع البحرين على أن يدفع للفرس ايجارا سنويا شبيها بالايجار الذى كان يدفعه عن بندر عباس وتوابعها الا أن هذا العرض لم يجد تجاوبا من الحكومة الفارسية • ولكن فى عام ١٨١٦ م واتت الفرصة السيد سعيد للقيام بمحاولة لتحقيق أهدافه فى البحرين ، اذ أنه بالتعاون مع رحمة بن جابر الذى اشتهر فى تلك الفترة بأنه كان قرصانا جريئا قدم مساعدات قبل ذلك للسعوديين ، قام السيد سعيد بالقيام بهجومه على البحرين ، ولكن المعركة برغم أنها لم تحقق انتصارا ساحقا للسيد سعيد الا أنها أجبرت آل خليفة على الموافقة بدفع أتاوة سنوية لحكومة مسقط •

وبتوقف حكومة البحرين عن سداد تلك الأتاوة ، نشط السيد سعيد مرة أخرى فى جهوده للسيطرة على البحرين ، وعرض على السلطات البريطانية عام ١٨١٩ أبان حدوث الحملات العمانية المشتركة ضد القواسم ، التعاون لفرض سيطرة عمان على البحرين بهدف تحقيق الاستقرار بمنطقة الخليج ، الا أن الحكومة البريطانية لم توافق على تلك الخطة •

ثم جاءت التطورات السياسية عندما انضمت البحرين رسميا عام ١٨٢٤ لاتفاقية السلم البحرية التى فرضتها بريطانيا على القواسم وبعض الشيوخ عام ١٨٢٠ •

وبانضمام البحرين الى تلك الاتفاقية اكتسبت شبه اعتراف من دولة عظمى بكيانها المستقل • وبرغم تلك الاتفاقية قام السيد سعيد فى نوفمبر ١٨٢٨ بحملة بحرية أخرى ضد البحرين ، الا أن تلك الحملة لم تحقق أهدافهـــا •

وفى عام ١٨٣٩ ، نتيجة تقدم القوات المصرية فى الجـزيرة العربيـة عرض السيد سعيد على محمد على قيامه بحملة على البحرين واخضـاعها للسلطة العمانية مقابل سداده مبلغا سنويا ثابتا ، الا أن هذا العرض لم يجد طريقه الى التنفيذ •

وفى عام ١٨٤٣ ، جدد السيد سعيد عرضه على السلطات البريطانية للقيام بحملة ضد البحرين مستغلا فترة القـلاقل التى كانت سـائدة فى البحرين • وقام السيد ثوينى فعـلا بتجهيز الحملة ضـد البحرين الا أن السلطات البريطانية نصحته بالتخلى عن المشروع خوفا من ردود الفعل من جانب السعوديين والفرس •

واذ كانت بريطانيا فى تلك الفترة تحاول الحد من نشاط القواسـم ، وفيما يختص بعلاقات السيد سعيد مع محمد على ، باشا مصر ، فان تلك العلاقات كانت ودية فى معظم فتراتها • وفى عام ١٨١١ م عندما بدأت القوات المصرية هجومها فى السعودية عرض السيد سعيد على محمد على عقد تحالف بينهما ، ولكن محمد على اكتفى فى تلك الفترة باستئجار عشرين سفينة من حاكم عمان لدعم قواته البحرية •

واذا كانت بريطانيا فى تلك الفترة تحاول الحد من نشاط القواسم ، فانها دعمت جهود التقارب بين السيد سعيد والقـوات المصرية ، اذ بعثت السلطات البريطانية للفتانت سادلير عام ١٨١٧ م حاملا رسائل الى كل من ابراهيم باشا والسيد سعيد •

وعندما تمكنت القوات المصرية من الاستيلاء على العاصمة الدرعية عام ١٨١٨ ، بادر السيد سعيد بارسال تهنئة الى محمد على • كما وفد حاجا على مكة عام ١٨٢٤ ، حيث أرسل محمد على وفدا لاستقباله والترحيب به •

وحتى عام ١٨٣٩ كانت الدلائل تشـــير الى حرص السـلطات المصرية فى الاستمرار فى العلاقات الودية • ولكن فى هذا العام استلم السيد سـعيد رسالة من خالد بن سعود ، الذى كان المصريون قد عينوه حاكما على اقليم نجد بعد تمكنهم من القضاء على حكم الأمير فيصل ، والتى كان خالد يطالب بموجبها من حاكم عمان دفع الأتاوة السنوية التى توقف السيد سعيد عن سدادها بعد تمكن المصريين من القضاء على حكم آل سعود • فان السـيد سعيد بادر الى ارسال رسالة احتجاج الى محمد على ، فقام محمـد على بالكتابة الى خالد بن مسعود يطلب منه تجنب معاملة السيد سعيد بما يؤدى الى الاضطراب فى العلاقات وتطييب خاطره ؛ كما بعث برسالة اطمئنان الى السيد سعيد •

ولكن تلك الصداقات شهدت فترة توتر عام ١٨٣٩ نتيجة تفكير السلطات المصرية بمد سيطرتها على البوريمى والتى بدأت بايفاد سعد بن مطلق لاعادة احتلال البريمى • وترتب عنها قيام السيد سعيد بتحريض القبائل فى تلك المنطقة ضد سعد بن مطلق •

والواقع فان مجىء سعد بن مطلق الى البريمى عام ١٨٣٩ م ، جوبه أيضا بمعارضـة قوية من جانب السـلطات البريطانية اذ بادر هنل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الى ارسال رسالة احتجاج الى خورشـيد باشا يطلب فيها الكف عن التدخل فى شؤون البحرين وعمان ، مؤكـدا فى نفس الوقت أن ارسال القواسم الى البريمى دليل على عدم رغبة الاستمرار فى العلاقات الودية بين الدولتين •

كما بعث المقيم السياسى البريطانى برسالة الى سلطان بن صقر زعيم القواسم يطلب منه عدم التحالف مع قوات السعد بن مطلق بل العمـل على طردها • ولكن تطورات الحرب فى سوريا بين القوات المصرية والقـوات

البريطانية التركية المشتركة أدت الى اقرار معـــاهدة التسوية لعام ١٨٤٠ والتى بموجبها تم انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية نهائيا •

وتشير الوثائق بأن العلاقات المصرية العمانية عادت ودية من جديد • وكانت الهدايا يتم تبادلها بين السيد سعيد ومحمـــد على وخلفاءه عبـــاس وســـعيد •

وتعتبر جهود السيد سعيد ضد العثمانيين فى البصرة آخر مجهوداته فى دعم نفوذ عمان فى الخليج • ففى نوفمبر ١٨٢٦ قاد أسطولا نحو البصرة مستغلا قيام الاضطرابات من قبل شيخ المنتفق • وكانت مطالب الســـيد سعيد تتلخص فى اجبار متسلم البصرة على دفع المبالغ التى تعهدت سلطات البصرة بسدادها الى جده الامام أحمد أثناء مساهمته فى رفع الحصـــــار الفارسى عن البصرة • وقدر السيد سعيد جملة تلك المبالغ بـــ ١٠٤ آلاف ريال ماريا تيريزى • ونجح السيد سعيد فى حملته بعد أن هزم أســـطول البصرة واستطاع أن يأخذ متسلم البصرة أســـيرا معه الى مسقط ، وأجبر متسلم البصرة على تقديم تنازلات مرضية •

شؤون الامبراطورية فى شرق افريقيا :

يعتبر السيد سعيد أعظم حاكم من أسرة البوســـعيدى أدى أجـــل الخدمات لشؤون شرق افريقيا • وهو يعتبر أول وآخر حاكم عمانى اتخذ من شرق أفريقيا فى زنجبار عاصمة ثانية له بعد مسقط •

وبعد العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، فان فترات اقامته فى زنجبار امتدت للعديد من السنوات الا أن ذلك لم يؤد الى اهماله شؤون عمان ، اذ أنه ما ان كان يتلقى أنباء القلاقل داخل عمان حتى كان يسارع عائدا الى مسقط • وفى عهده نمت وازدهرت شرق افريقيا ووصل نفوذ الامبراطورية هناك أقصى اتساع له •

وكان أكثر ما يقلق السيد ســعيد بالنسبة لشرق افريقيــا هو تمكن المزروعيين من الانفصال بممباسا ، وتمكنهم من فرض سيطرتهم على عدة مناطق أخرى مثل لامو وبمبا وباتا • ورغم أن السيد سعيد قاد أول حملة له ضد المزروعيين عام ١٨٢٩ ، الا أن ســنوات حكمه الأولى وانشغاله فى شؤون عمان والخليج لم تحل كلية دون قيامه بمجهودات محددة •

ففى عام ١٨١٢ أرسل أسطولا بقيادة خلف بن ناصر ليكون واليا على لامو ولبناء قلعته هناك ، وفى عام ١٨١٤ تولى حكم ممباسا عبد الله بن أحمد المزروعى الذى يعد أشجع حاكم من أسرة المزروعى ، والذى بدلا من قيامه بارسال الجزية والخراج أرسل بعضا من البارود الى السيد سعيد معبرا عن تحديه له ومدركا فى نفس الوقت الأخطار المحرقة به سافر الى بومباى فى محاولة لعقد تحالف مع بريطانيا بدون جدوى •

واستغل السيد سعيد بعد ذلك الاضطرابات الناشئة فى باتا وأرســل قوة بحرية بقيادة عبد الله بن على حيث استطاعت تلك القــوة تعيين بوانا شيخ كوالى من قبل السيد سعيد ، الا أن عبد الله بن أحمد تمكن مرة أخرى من اعادة سيطرته على تلك المنطقة • ثم قام السيد ســعيد فى عام ١٨٢٢ بارسال حملة أخرى بقيادة حامد بن أحمد الذى تمكن من الحصــول على اعتراف السيادة العمانية وجمع الأموال السنوية من برالفا وباتا وسيوى ، وحفز هذا العمل والى زنجبار من قبل السيد سعيد للقيام بعمليات قصــف ضد بمبا واعادة اخضاعها للحكم العمانى •

وفى عام ١٨٢٣ مات عبد الله بن أحمــد المزروعى وخلفه فى الحــكم سليمان بن على • وقد اتخذ السيد سعيد ازاءه اجراءات فرض الحصــار الاقتصادى بمنع أهالى عمان من التجارة مع ممباسا • هــذا الاجراء الى جانب فقدان السيطرة على بمبا التى كانت ترد منها معظم المنتجات الغذائية الى ممباسا ، أثرت الى حد كبير على الأوضاع الاقتصادية لممباسا • وكتب

سليمان بن على الى حكومة بومباى يطلب منها منحه حمايتها الا أن السلطات البريطانية رفضت عرضه لأن ذلك يتناقض مع الارتباطات والمواثيق القائمة بين بريطانيا وعمان •

أزمة أووين :

فى الثالث من ديسمبر ١٨٢٣ قدمت الى ميناء ممباسا السفن البريطانية باراكوتا بقيادة الكابتن فيدال والبارجة البريطانية ليفين بقيــادة الكابتن أووين • وقد حاول حاكم ممباسا سليمان بن على استغلال تواجد تلك السفن فبعث ابن أخيه على رأس وفد الى الكابتن فيدال طالبا منه السماح له برفع العلم البريطانى على ممباسا ووضع البلدة تحت الحماية البريطانية ، وكان يعتقد أنه بهذا الاجراء يستطيع التخلص نهائيا من الحكم العمانى • ولكن الكابتن فيدال اعتذر عن منحه الحماية البريطانية الا أنه وعده بارسال طلباته الى السلطات البريطانية •

ثم غادر فيدال بسفينته ممباسا يوم ٧ ديسمبر • وبرغم اعتذار فيدال قام سليمان بن على برفع العلم البريطانى على ممباسا ، وذلك بهدف التمويه على الأسطول العمانى • وعندما وصل الأسطول العمانى بعد عدة أشهر لم يكترث للعلم البريطانى المرفوع فبادر بقصف المدينة وفرض حصارا حول ممباسا دام شهرين •

وفى يوم ٧ فبراير ١٨٢٤ وصلت الفرقاطة ليفيين التى كان يقــودها الكابتن أووين ذات ٢٨ مدفعا : وقدم سليمان بن على التماسا مجددا الى الكابتن أووين لوضع ممباسا تحت الحماية البريطانية • وكان تصرف الكابتن أووين مختلفا اذ وافق على منح ممباسا والشريط الساحلى من ماليندى الى بانجابى الحماية البريطانية • وأجبر الأسطول العمانى على رفع الحصار • كما وقع اتفاقية مع سليمان بن على نصت على تعهد بريطانيا باعادة جميع المدن

التى كانت خاضعة لمباسا وضمان توارث الحكم فى أسرة المزروعى وتعيين وكيل بريطانى فى ممباسا واقتسام دخل الجمارك بين الطرفين والسماح لرعايا البريطانيين بالتجارة فى داخلية البلاد وتعهد من المزروعيين بالغاء تجارة الرق بالتعاون مع بريطانيا • كما قام أوين بعد ذلك بالاستيلاء على بمبا واعادتها الى المزروعيين •

وقد كان من الطبيعى أن تؤدى تلك الاجراءات الى خلق أزمة للعلاقات بين بريطانيا وعمان • فبعث السيد سعيد برسائل احتجاج الى السلطات البريطانية فى بومباى • وكان واضحا أن أوين قد تصرف بمحض ارادته ولم يكن مخولا من السلطات البريطانية • فبعثت حكومة الهند برسالة الى السيد سعيد تعبر عن دهشتها من تصرف أوين وتهدىء من روعه •

وفى عام ١٨٢٦ صدرت التعليمات من حكومة الهند بالغاء تلك الاجراءات وانسحاب القائد البريطانى من تلك المنطقة • كما ترك لبمبا وبرافا التصرف فى ما يخص مستقبلهما مع السيد سعيد • وبهذا القرار انتهت ما يسمى بأزمة أوين •

جهود السيد سعيد فى تحرير ممباسا :

وبانتهاء أزمة أوين بدأ السيد سعيد جهوده فى اعادة تحرير ممباسا التى استقلت بشؤونها منذ عام ١٧٣٩ • وبعد صدور القرار البريطانى بعث السيد سعيد برسالة الى سالم المزروعى الذى حل فى الحكم محل سليمان بن على عام ١٨٢٦ • وطلب السيد سعيد منه الاستسلام ، الا أن سالم وافق على ارسال زكاة محدودة ولكنه رفض الاستسلام الكامل •

واذ كان السيد سعيد مشغولا فى تلك الفترة فى شؤون الخليج فإنه ترك الأمور كما هى حتى عام ١٨٢٩ عندما تفرغ من فرض السلطة المركزية على ظفار أيضا أثر مقتل الوالى محمد عقيل فى مرباط • فقام السيد سعيد بأول

رحلة الى شرق افريقيا على رأس سفينته ليفربول مع أسطول ضخم وقوات قوامها ١٢٠٠ مقاتل • ورغم هذه الاستعدادات رفض سالم الاستسلام ، وقام السيد سعيد بعمليات القصف الا أنه منى بخسائر قوية ، فاضطر الى رفع الحصار والتوجه الى زنجبار ، حيث بدأ فى انشاء دعائم العاصمة الثانية للامبراطورية •

وفى مايو ١٨٣٠ ، اضطر السيد سعيد للعـودة الى مسـقط نتيجـة الاضطرابات التى سادت بقيام حمـود بن عزان حاكم صـحار بمحاولة الاستيلاء على مسقط بعد نجاحه فى الاستيلاء على الخابورة وشـناص • والواقع فان السلطات البريطانية قدمت مساعدات قيمة الى السيد سـعيد فى غيابه وحالت دون نجاح خطط حمود بن عزان اذ رابطت فى سـاحل الباطنة قطع حربية بريطانية ووجه المقيم السياسى البريطانى انذارات الى حمود بن عزان •

وبعد عودة السيد سعيد قام بمحاولة لاعادة سلطة الحكومة المركزية على صحار وحاول التحالف من أجل ذلك مع سلطان بن صقر حاكم الشارقة ورشيد بن حميد حاكم عجمان ، ولكن الأخيرين لم يقدما أية مساعدة فاضطر السيد سعيد إلى عقد صلح مع حمود بن عزان وافق بموجبه على بقـاء حمود حاكما على صحار والخابورة ولكن تحت سيادة الحكومة المركزية •

وفى بداية ١٨٣٢ : بدأ السيد سعيد رحلته الثانية الى شرق افريقيـا على رأس حملة قوية بهدف اخضـاع ممباسا • وتكونت قواته من ١٤٠٠ مقاتل وأربع سفن كبيرة و ٦٠ بغلة • وقام بقصف ممباسا • واضطر هـذه المرة سالم المزروعى للتوجه الى سفينة السيد سعيد للبحث عن شروط صلح مناسبة وتم الصلح ووافق سالم بموجبه على قبول سيادة عمان على ممباسا وأن يكون واليا عليها من طرف السيد سعيد وبقاء تلك الولاية فى ورثتـه وتقسيم العائدات الجمركية بين الطرفين •

ثم قام السيد سعيد بزيارة القلعة وبعد اجراء التحصينات أبقى فيها حامية عمانية من البلوش والعرب قوامها ٣٥٠ فردا على رأسهم العقيد سعيد بن خلفان ثم توجه الى زنجبار حيث بدأ فى بناء قصره المعروف « متونى » • كما قام بالاهتمام بشؤون الزراعة وصدرت تعليماته بزراعة محاصيل جديدة مثل القرنفل والأرز • وفى نفس الوقت كلف والى زنجبار بالقيام بحملة لاسترداد مقديشيو ونجح الوالى فى مهمته •

ومرة أخرى حالت الأحداث الداخلية فى عمان دون اقامته الطويلة فاضطر للعودة من رحلته الثانية فى سبتمبر من نفس العام • وأثناء رحلته الى زنجبار كان قد عين لجنة مكونة من ابنه هلال وسعود بن على والى بركا ومحمد سالم لادارة شؤون الحكم • ولكن سعود بن على قام بعملية أسر هلال بن السيد سعيد ومحمد بن سالم وسجنهما فى بركا • وفى نفس الوقت قام حمود بن عزان وهلال بن محمد بمهاجمة الرستاق • وقام سلطان بن صقر بالاستيلاء على خور فكان ودبا • وقادت موزه بنت الامام أحمد المقاومة للحفاظ على مسقط يؤازرها محمد بن ناصر الجابرى • وقام المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر بارسال انذار الى المتمردين • ولدى عودة السيد سعيد عقد صلحا مع سعود بن على حيث تم تعيينه واليا على رستاق وطلب مساعدة بريطانية للقيام بحملة بهدف استرداد خور فكان ودبا • الا أن السلطات البريطانية اعتذرت عن تلك المساعدة •

وفى نوفمبر ١٨٣٣ قام السيد سعيد بقيادة حملته الثالثة ضد المزروعيين فى ممباسا • والذى حصل أن السيد سعيد قبل مغادرته زنجبار كان قد كلف ناصر بن سلطان المسكرى القيام بحملة لتحرير ممباسا نهائيا من حكم المزروعيين وبمساندة الحامية العمانية الموجودة فى قلعة ممباسا • فتوجه ناصر الى ممباسا ونزل بالقلعة الا أن سالم المزروعى رفض التجاوب مع طلبه الذى اعتبره مخالفا للاتفاقية المعقودة مع السيد سعيد • فقام

ناصر بقصف المدينة من القلعة : ولكن الأهالى وقوات سالم المزروعى استطاعت أن تفرض حصارا حول القلعة وعزلها ، ودام الحصار سبعة أشهر • وقبل قيام السيد سعيد برحلته الثالثة أوفد حملة بقيادة حامد ابن أحمد على ظهر السفينة العمانية شاه ولكن حامد وصل متأخرا •

وبعد أن عين السيد سعيد ابنه ثوينى هذه المرة نائبا عنه فى عمان وعقد صلحا مع القائد السعودى سعد بن مطلق توجه الى زنجبار فى رحلته الثالثة على ظهر سفينة الرحمانى ترافقها السفينة ليفربول الضخمة ذات ٧٤ مدفعا وبقوة قوامها ١٤٠٠ مقاتل وبعد وصوله الى ممباسا قام سالم المزروعى بقتل قائد الحملة السابقة ناصر بن سلطان المسكرى خوفا من انتقامه فى حالة نجاح السيد سعيد فى حملته •

وازاء هذا التصرف قام أسطول السيد سعيد بعمليات قصف ضد ممباسا والتى دامت ٨ أيام ، الا أنها لم تؤد الى هزيمة كاملة لسالم بن أحمد المزروعى • فتم الاتفاق على صلح وافق سالم بموجبه مرة أخرى على قبول السيادة العمانية • واتفق أيضا على بقاء القلعة خالية من أية حماية تابعة السيد سعيد مباشرة •

والواقع فان السيد سعيد بذل مجهودات مضنية فى تلك الفترة لتوسيع حجم النفوذ العمانى فى شرق افريقيا • واستطاع عن طريق المصاهرة أن يفرض سلطة أسمية لعمان على مدغشقر بعد عام ١٨٢٨ • كما أرسل عدة حملات الى سيوى وباتا واستطاع اخضاعها تحت حكمه • ولكن سلطة عمان على مدغشقر لم تدم طويلا اذ تمكن الفرنسيون من اخضاعها لسلطتهم عام ١٨٣٢ م •

ومرة أخرى أجبرت الأحداث فى عمان السيد سعيد للعودة الى عمان فى

أبريل من عام ١٨٣٥م • وهذه المرة كان بطل القلاقل أيضا حمود بن عزان حاكم صحار الذى استغل حادثة اغتيال سـعود بن على للاسـتيلاء على الرستاق ثم تقدم لمهاجمة سمائل مستغلا ظروف وفاة واليها محمد بن ناصر الجابرى • وقد مكنت هذه الانتصارات حمود من أن يحاول التقدم صوب مسقط • وتدخل المقيم السياسى البريطانى فى يوليو ١٨٣٤ وأنذر حمودا بأن محاولة الاستيلاء على مسقط ستجبر السلطات البريطانية اعتبـاره عدوا لها •

وبعد عدة أشهر قام حمود بن عزان بالاستيلاء على السويق وتمكن ثوينى بن سعيد من استردادها ، ولكن الأمور لم تحسم الا بعد عودة السيد سعيد الذى قاد حملة على صحار ، وبرغم أن الحمـلة حققت انتصـارات محدودة الا أنها أعادت سلطة السيد سعيد على أرجاء عمان ووضعت حـدا لعمليات حمود بن عزان •

وقبل قيام السيد سعيد برحلته الرابعة الى شرق افريقيـا فى نوفمبر عام ١٨٣٦ ، فانه حاول أن يضمن عدم قيام حمود بن عزان بأية محـاولة أثناء فترة غيابه • فعقد تحالفا مع قائد القوات السعودية سـعد بن مطلق فى البريمى للقيام بحملة مشتركة ضد حمود بن عزان ، وقام سعد بن مطلق بمحاصرة صحار برا وأسطول السيد سعيد بحرا • وقد أدت تلك الحـركة الى اجبار حمود بن عزان على البحث عن صلح مرض للطرفين • كما بذلت السلطات البريطانية مساعيها الحميدة لعقد صلح بينهما • ووافق حمود بن عزان على عدم القيام بأية عمليات فى غياب السيد سعيد والتنازل عن ادعاءاته فى السويق •

ومكنت هذه الاتفاقات السيد سعيد من القيام برحلته الرابعة الى شرق افريقيا • وفى ممباسا أدى موت سالم بن أحمد المزروعى فى مارس ١٨٣٥ الى حدوث الاضطرابات والقلاقل بين أفراد أسرته والتنافس بين أخويه

خميس وناصر • واستمرت تلك الاضطرابات مدة عام تم الاتفاق بعدها على تولى راشد بن سالم بن أحمد المزروعى الحكم • وفى فترة الاضطرابات بعث أهالى ممباسا الذين ملوا تلك الصراعات الداخلية ، برسائل الى السيد سعيد طالبين منه التدخل •

وغادر السيد سعيد مسقط فى نوفمبر ١٨٣٦ ووصل ممباسا حوالى نهاية ذلك العام • ثم عرض على راشد الاستسلام وبعد رفضه تام السيد سعيد بانزال قواته ومدفعيته على الجزء الشمالى من ممباسا مستفيدا من خبراته السابقة • واستطاع اخضاع معظم ممباسا تحت سيطرته والحصول على ولاء خميس وناصر أعمام راشد • فاضطر راشد ازاء ذلك طلب الصلح ووافق بموجبه على الشروط السابقة بالخضوع للحكم العمانى واقتسام ايرادات الجمارك والابقاء على حامية عمانية داخل القلعة قوامها ٥٠٠ مقاتل وأن يقيم هو فى المدينة وليس فى القلعة •

وبعدها بفترة قام راشد بزيارة السيد سعيد فى زنجبار والذى عرض عليه التنازل عن ولاية ممباسا مقابل ولاية بمبا ، ولكن راشد رفض العرض وعاد الى ممباسا مكرما • وبعدها بشهرين صمم السيد سعيد بالتخلص نهائيا من أسرة المزروعى بمكيدة • فبعث بابنه خالد الى ممباسا والذى تمكن بعد وصوله الى القلعة من أسر حوالى ٣٠ شخصية من أسرة المزروعى بعد أن دعاهم لبحث بعض الأمور فى القلعة •

وبانتشار أنباء هذه الاعتقالات فر بقية أفراد المزروعى الى المناطق الداخلية •

وهكذا زال حكم المزروعيين من ممباسا والذى دام أكثر من قرن من الزمن • كما أن مجموع الشخصيات التى تم اعتقالها نقلت الى زنجبار ومنها الى بندر عباس وتم التخلص منهم •

وقد مكنت سيطرة السيد سعيد على ممباسا الى تحقيق الاستقرار فى شرق افريقيا ومكنته من اقامة طويلة دامت حتى سبتمبر ١٨٣٩ عندما اضطر للعودة ازاء التطورات التى حصلت بقيام خورشيد باشا بارسال سعد بن مطلق لاعادة احتلال البريمى ولكن بانسحاب القوات المصرية عام ١٨٤٠ من الجزيرة العربية قرر السيد سعيد فى ١٨٤١ القيام برحلته الخامسة الى زنجبار •

تميزت فترة اقامته الخامسة فى زنجبار باستقرار تام فى شؤون شرق افريقيا مما مكنه من الاهتمام بشؤون تطوير زنجبار وتقوية دورها لتصبح أهم ميناء فى شرق افريقيا تزورها سفن جميع دول العالم • وأثناء اقامته التى امتدت حتى عام ١٨٥١ م ، كانت جهوده العسكرية منصبة على اخضاع سيوى تحت سيطرته والتى بعث اليها بقوات قوامها ٢٠٠٠ مقاتل فى مارس ١٨٤٤ بقيادة حمود بن أحمد السمار •

وأثناء اقامته الطويلة التى دامت ما يقارب عقدا من الزمن ، شهدت عمان بعض الاضطرابات الداخلية الا أن تلك الاضطرابات كانت محدودة وكان السيد ثوينى بن سعيد قادرا على مواجهتها • وتمثلت تلك الاضطرابات فى محاولات هلال أكبر أبناء السيد سعيد للحصول على مركز سلطة فى عمان •

ويبدو أن الخلافات بين السيد سعيد وابنه هلال كانت قوية الى درجة أنه عين ابنه ثوينى حاكما على عمان فى غيابه بدلا من هلال • فقام هلال فى سبتمبر ١٨٤٥ بزيارة الى انجلترا ليعرض على الحكومة البريطانية شكواه • وأدى تصرفه هذا الى خلق مزيد من الكراهية بين الوالد والابن • فقام السيد سعيد فى نوفمبر عام ١٨٤٩ بنفى هلال من زنجبار فغادرها هلال الى لامو بعض الوقت ثم الى عدن وبقى هلال فى المنفى ومع تدهور صحته قضى نحبه يوم ١٨٥١/٩/٢٨ م •

والجزء الآخر من الاضطرابات تمثل مرة أخرى فى جهود حاكم صحار حمود بن غزان • وكما أسلفنا فان حمود وافق بموجب صلح عام ١٨٣٩ على عدم القيام بأية أعمال تحريضية ضد السيد سعيد • ولكن طموحاته كانت قوية ، وقبل قيامه بأى تحرك سافر الى بومباى لاستطلاع وجهة نظر السلطات البريطانيه ولم يلق أى تأييد من جانب تلك السلطات ، ونتيجة لليأس الذى دب فى نفسه فانه آثر التخلى عن حكم صحار وتنازل عن الحكم لابنه سيف ، وتحول الى شبه ناسك فى الرستاق •

واتبع سيف بن حمود سياسة مخالفة لسياسة والده فوثق علاقاته مع السيد ثوينى • الا أن تلك المواقف الى جانب خلافات سيف مع المطاوعة خلقت خلافات حادة مع والده الذى قرر العودة الى المسرح السياسى •

وتمكن أحد المطاوعة من اغتيال سيف وعاد حمود حاكما على صحار عام ١٨٤٩ م • وبعودته برزت المشاكل مجددا بينه وبين السيد ثوينى • واستطاع السيد ثوينى هذه المرة من اعتقاله وزجه فى سجن الجلالى حيث قضى نحبه فى أبريل ١٨٥٠ • ومن الجدير بالذكر أن السلطات البريطانية كانت قد عقدت اتفاقية مستقلة مع سيف بن حمود عام ١٨٤٩ لمنع تجارة الرق فى صحار •

ولكن اعتقال حمود ثم موته لم تنه المشاكل المستعصية مع صحار اذ سرعان ما نجح قيس بن عزان بالتعاون مع القواسم من أن يرث حكم أخيه فى صحار والخابورة وشناص • ولكن لدى عودة السيد سعيد من رحلته الخامسة فى مايو ١٨٥١ ، بادر الى شن هجوم ضد قيس وتمكن من استرداد الخابورة أولا ثم شناص • وازاء تلك التطورات وافق قيس ، نتيجة انسحاب حلفائه القواسم على التنازل عن صحار والاقامة فى الرستاق مقابل ٢٠٠ ريال ماريا تيريزى يتسلمها شهريا • وهكذا خضعت صحار للمرة الثانية للحكم المركزى للسيد سعيد وساد الاستقرار أنحاء عمان حتى تاريخ وفاته •

العلاقات الدولية فى عهد السيد سعيد

العلاقات مع بريطانيا :

اتسمت العلاقات العمانية فى عهد السيد سعيد بطابع الود بشكل عام ، ولو أن تلك العلاقات توترت فى فترة ما بين ١٨٢٤ — ١٨٢٦ ، نتيجة أزمة أوبين كما أسلفنا • وكانت العلاقات فى المرحلة الأولى تحدوها مبادىء قولنامة ١٧٩٨ التى نصت على اعتبار عدو أى من الطرفين عدوا للطرف الآخر •

وكان السيد سعيد يعتقد منذ البداية أنه من واجب السلطات البريطانية مساعدته فى حروبه ضد كافة أعدائه • فلم يكن يدخر جهدا لطلب المساعدة البريطانية فى حروبه ضد القواسم أو السعوديين ، بل أنه طالب بريطانيا بالتحالف معه للاستيلاء على البحرين كما أسلفنا •

ويلاحظ فى هذا الصدد أن السلطات البريطانية كانت دقيقة فى تحديد مواقفها من تلك الصراعات ، فكانت تقدم المساعدات العسكرية لأطراف تكون هى فى صراع معها مثل القواسم أبان حملات عام ١٨٠٩ و ١٨٢١ ، ثم توقفت عن تقديم تلك المساعدات ضد القواسم بعد ابرام معاهدات السلم البحرية • كما قدمت مساندة سياسية إبان احتلال سعد بن مطلق للبريمى مرة أخرى عام ١٨٣٩ بايعاز من السلطات المصرية لانها كانت فى حرب مع المصريين • كما أنها قامت بتوجيه الانذارات لمنافسى السيد سعيد عندما كان المنافسون يهددون العاصمة مسقط كما حصل أثناء حملات حمود بن عزان عام ١٨٣٤ وغيرها • الا أن السلطات البريطانية كانت حريصة على عدم زج نفسها فى الصراعات الداخلية بين دول الخليج فتقاعست عن تقديم أية مساعدة لحاكم عمان فى حروبه ضد السعوديين ، كما لم تقدم له أية مساعدة

من أجل تحـــرير بعض المناطق التى تمكن القواســـم من السيطرة عليها فى الأجزاء الشمالية الشرقية من عمان •

ومع مرور الوقت ثبت للطرفين أن مبادىء قولنامة عام ١٧٩٨ فى الوقت التى أدت الى التعاون بين البلدين إلا أنها لم تكن تفرض التزامات متزمتة تحول دون توثيق علاقات عمان بالدول الأخرى • وكان أكثر ما يهم بريطانيا خصوصا فى فترات الحروب عدم حدوث تقارب بين عمان ودولة أخرى قد يؤدى بالأضرار بمصالحها الحيــوية فى الخليج الذى اعتبرته الســلطات البريطانية مفتاح ضمان السيطرة على الهند •

وبمرور الوقت فان تلك العــلاقات أخذت تتجــه الى مزيد من طابع التعاون فى الميادين الاقتصادية والتجارية والعسكرية أحيانا الا أنها تميزت باحترام استقلال عمان وحقها فى عقد اتفاقيات مستقلة مع الدول العظمى فى العالم • بل اننا نجد أن عمان عقدت أول معاهدة صــداقة مع الولايات المتحدة عام ١٨٣٣ وليس مع بريطانيا • بل أن المعاهدة مع أمريكا كانت أساسا للمعاهدة التى عقدت مع بريطانيا عام ١٨٣٩ ومع فرنسا عام ١٨٤٤ م•

وقد نصت معاهدة الصداقة بين البلدين عام ١٨٣٩ على حرية التجارة وتحديد الجمارك بـــ ٥ ٪ وتمتع الدولتين ازاء الدولة الأخرى بمعاملة الأكثر رعاية وامتناع أية دولة عن نقل المعدات الحربية الى دولة معــادية أثنـــاء الحرب وتخويل القنصل البريطانى حق القضاء فى المعاملات المتعلقة بالرعايا البريطانيين أو المتعلقة بقضية يكون طرف النزاع فيها بريطانيا •

وبشكل عام كانت العلاقات ودية للغاية وكانت الهدايا يتم مبادلتها ، وكانت الوفود تقوم بالزيارات لتقديم التهانى • بل أن السيد سعيد لم يجد حرجا فى اهداء بريطانيا أكبر قطعة حربية : السفينة ليفربول عندما وجد أنه بامكانه الاستغناء عنها وتوفير تكاليف صيانتها الباهظة وبالمقابل أهــدته بريطانيا يختا تجاريا •

العلاقات مع فرنسا :

كان السيد سعيد حريصا منذ بداية توليه الحكم على استمرار علاقات الصداقة مع فرنسا وفى مستهل حكمه بعث برسالة الى الجنرال ديكان حاكم جزيرة فرنسا التى كانت مقرا للقوات الفرنسية فى الشرق معبرا عن رغبته فى استمرار تلك العلاقات الودية • الا أن حرصه هذا لم يحل دون التزامه بإبعاد عمان عن الصراعات بين الدولتين العظميين ، والتزامه أيضا بنصوص تولنامة ١٧٩٨ ، فأرغم سفينة فرنسية حربية على الخروج من مياه مسقط مما أدى الى توتر العلاقات لفترة وجيزة ، ولكنه عاود الاتصال بالجنرال ديكان عارضا عليه عقد معاهدة صداقة بين البلدين وفعلا تم ذلك فى ١٥ يونيو ١٨٠٧ والتى نصت على عودة العلاقات الودية بين البلدين واحترام حيـــاد عمان بالنسبة للصراع الدائر بين فرنسا وبريطانيا الا أن الحكومة الفرنسية لم تصادق على تلك المعاهدة نظرا لأن فرنسا كانت ترغب فى تحقيق حصارها البحرى على السفن البريطانية ومنع السفن البريطانية من زيارة مسقط •

وبرغم ذلك عمل الجنرال ديكان على استمرار العلاقات التجارية الودية وأوفد مبعوثا عام ١٨٠٨ ليعمل على توطيد تلك العلاقات ، ولكن انتصـــار بريطانيا على الفرنسيين فى بحـار الشرق عام ١٨١٠ وتسـليم الفرنسيين لجزيرة فرنسا مقر قيادتهم الى البريطـانيين أدى الى زوال التواجـــد الفرنسى من بحار الشرق •

وبحلول عام ١٨١٤ تمكنت فرنسا من استعادة جزيرة البوربون وعملت على اعادة العلاقات الودية مع عمان وترتب عليها ترقيع معاهدة فى ٣٠ مارس ١٨١٧ والتى بقيت سارية المفعول حتى عام ١٨٤٤ عنـدما تم اسـتبدالها

بمعاهدة جديدة • ولكن بعد تلك المعاهدة عاد التوتر من جديد بين البلدين فى أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر عندما تبينت للسيد سعيد أطماع الفرنسيين فى شرق افريقيا •

ويعود سبب التوتر الى قيام الفرنسيين باحتلال جزيرة نوسنية بيه والتى كان السيد سعيد يؤكد خضوعها له استنادا على اتفاق مع ملكة تلك الجزيرة التى أعلنت ولاءها له • وعندما تسلم السيد سعيد رسالة من حاكم جزيرة بوربون يعلن رغبته فى تعيين قنصل فرنسى فى زنجبار أسوة بالأمريكيين فانه اعتذر قبول تعيينه حتى يتم الانتهاء من توقيع المعاهدة الجديدة •

وفى ٤ نوفمبر ١٨٤٤ ، تم التوقيع على المعاهدة التجارية الجديدة مع فرنسا ، والتى كانت مشابهة للمعاهدة المعقودة مع الولايات المتحدة الأميريكية عام ١٨٣٣ ومع بريطانيا ١٨٣٩ • وقد استعرض السيد سعيد قبل توقيع المعاهدة وجهة نظر السلطات البريطانية فى عقد معاهدة مع فرنسا • وكانت وجهة نظر اللورد ابردين عدم رغبة بريطانيا فى التدخل فى أمر المعاهدات ، الا أنه أكد حرص بريطانيا بعدم منح الفرنسيين امتيازات تفوق الامتيازات الممنوحة لانجلترا •

وقامت فرنسا بعد توقيع الاتفاقية بارسال بعثة بقيادة الكابتن جويان الذى قام خلال الفترة ١٨٤٦ — ١٨٤٧ بعمل مسح فنى حول بعض المناطق الساحلية لشرق افريقيا • وكان من ضمن أهداف المسح تحديد موقع مناسب فى شرق افريقيا مقابل الموقع الاستراتيجى للبريطانيين فى عدن • كما حاول الكابتن جويان اقناع أهالى لامو وبراقا ببيع أراضيهم للحكومة الفرنسية •

الا أن السيد سعيد الذى كان على علم بجهود الفرنسيين ، استطاع مواجهتها واحتوائها •

وبشكل عام فقد ساهمت اتفاقية عام ١٨٤٤ على نمو وازدهار العلاقات التجارية بين البلدين • وتبع ذلك تأسيس قنصلية فرنسية فى زنجبار عام ١٨٤٧ م • وكانت السفن الفرنسية وهى تحمل البضائع تجوب موانىء عمان • كما وفدت احدى سفن السيد سعيد الى مرسيليا عام ١٨٤٩ حاملة هدايا الى رئيس الجمهورية الفرنسية •

العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية :

تعتبر معاهدة الصداقة والتجارة التى وقعت بين السيد سعيد والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٣ تطورا مهما ليس فى مجرى العلاقات بين البلدين ، بل أيضا فى نقل عمان الى مصاف الدول التى كانت تلقى الاحترام من جانب القوى العظمى • وهذه المعاهدة هى التى فتحت الطريق أمام بريطانيا وفرنسا لعقد معاهدات مماثلة •

ومن الأسباب الرئيسية التى أدت الى عقد معاهدة مع الولايات المتحدة بعض الصعوبات التى كان يلقاها التجار الأميركيون فى زنجبار ، فأبدى السيد سعيد ملاحظاته بأنه يمكن التغلب على تلك الصعوبات بعقد معاهدة تجارية دائمة • وكان عدد التجار الأمريكيين فى تلك الفترة فى زنجبار يفوق عدد التجار الانجليز باستثناء الهنود الذين كانوا أيضا من رعايا انجلترا •

ويذكر لين أن دخل السيد سعيد من التجارة مع الأمريكيين كان يشكل جزءا أساسيا من دخل الجمارك • وتولى نقل المراسلات بين السيد سعيد والحكومة الأمريكية التاجر الأميركى ادموند روبرتس ، وحصل روبرتس على تفويض لتوقيع تلك المعاهدة بالنيابة عن الرئيس الأميركى اندرو جاكسون ،

وكانت تنص على قيام العلاقات الودية بين البلدين وتعيين قناصل أمريكيين وتفويض القنصل الأمريكى حق القضاء فى النزاعات بين الأمريكيين وتصفية ممتلكاتهم بعد وفاتهم ، وأعطت للسيد سـعيد حق الشـكوى الى رئيس الولايات المتحدة فى حالة تصرف أى قنصل بشكل غير لائق •

وأعقب توقيع تلك المعاهدة عرض من السيد سـعيد بقيام الولايات المتحدة بمساعدته فى اعادة سيطرته على ممباسا ، وهو الهدف الرئيسى الذى ركز جهوده حوله فى تلك الفترة • وبرغم أن هذا العرض لم يلق أى تجاوب من جانب الولايات المتحدة ، الا أنه كان كافيا لاثارة شكوك السـلطات البريطانية التى قررت ايفاد الكابتن هارت عام ١٨٣٤ لمراقبة التطورات • وقد طمأنه السيد سعيد على حسن نواياه وأبدى استعداده لعقد معاهدة مماثلة مع بريطانيا ، الأمر الذى من شأنه النهوض بتجارتها مع زنجبار لأن معظم التجارة فى تلك الفترة كانت بأيدى الأمريكيين •

وتبع توقيع المعاهدة مع أمريكا تعيين ريتشارد واترز أول قنصـل للولايات المتحدة فى زنجبار فى مارس ١٨٣٧ وتبع ذلك تعيين هنرى ب مارشال قنصلا فى مسقط فى أكتوبر ١٨٣٨ • وعندما غادر مارشـال مسقط بعد ذلك بعدة أشهر تم تكليف أحد العمانيين وهو سعيد بن خلفان الذى كان يعمل مترجما فى القنصلية ليدير الشؤون القنصلية فى مسقط تحت اشراف واترز فى زنجبار • ونتج عن نمو وازدهار تلك العلاقات التجارية أن بعث السيد سعيد على ظهر سفينته سلطانة وفدا برئاسة أحمد بن نعمان الى نيويورك لتوطيد العلاقات السياسية ولتقديم هدايا الى رئيس الولايات المتحـدة الأمريكية وذلك عام ١٨٤٠ م •

وفاة السيد سعيد وأوضاع الامبراطورية بعد وفاته :

بعد أن أنهى السيد سعيد خلافاته مع الفرس عام ١٨٥٦ استعد للقيام برحلته الأخيرة الى زنجبار • فغادر مسقط على ظهر بارجته فيكتوريا يوم ١٥ من سبتمبر عام ١٨٥٦ ، وقبل وصوله الى زنجبار وافته المنيه فى البحر يوم ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ م •

وترك السيد سعيد بعد وفاته امبراطورية واسـعة الأرجاء • فعلى صعيد اتساع الامبراطورية فانه بالاضافة الى حدود عمـان السياسية فى تلك الفترة فان معظم الموانى الاستراتيجية على الجانب الفارسى من الخليج مثل بندر عباس وتوابعها كانت خاضعة للحكم العمانى بعقد ايجار من حكومة فارس • وكلمة توابع بندر عباس كانت تنطبق على الساحل من جنوب بندر عباس حتى مدينة جاسك امتدادا الى نهر سوديج وكانت أهم تلك المـدن المؤجرة جزيرتى هرمز وقشم ومنطقة تازيان وشامل وميناب • وفى شرق افريقيا بلغ نفوذ عمان أقصى اتساعه ، وكان يشمل جميع الموانى الواقعة بين رأس دلجادو ورأس جردفون وأهم الجزر زنجبار العاصمة الثانية وبمبا ومافيا الى جانب عشرات المدن الساحلية من مقديشيو شمالا حتى مصب نهر روفوما جنوبا •

وبرغم عدم توفر احصاءات دقيقة عن مجموع قطع السفن الحربيـة الا أن اللفتاننت هارت أحصى فى زنجبار عام ١٨٣٤ السفينة الحربيـة الضخمة ليفربول ذات ٧٤ مدفعا وفرقاطة ذات ٥٠ مدفعا وطرادا به ٢٠ مدفعا وسفينة شراعية ذات ثلاث صوارى بـ ١٠ مدافع وسفينة شراعية ذات صاريتين كلها بنيت فى الهند • الى جانب السفينة مصطفى التى كانت مشغولة فى حصار حول ممباسا •

وفى مسقط أحصى أحد الزائرين فى نفس العام خمس سفن ذات ٣٠

مدفعا وستة أخرى احداها ذات ٢٤ مدفعا وأخرى ذات ٢٢ مدفعا ومنها اثنتان بكل منهما ١٨ مدفعا واثنتان بكل منهما ١٢ مدفعا . والى جانب ذلك كان السيد سعيد يملك سفينتين تجاريتين .

وكانت كل تلك السفن تؤدى مهاما عسكرية وقت الحروب ومهاما تجارية وقت السلم . ومن الواضح أن هذه الاحصاءات ليست دقيقة فهى فقط تمثل السفن المتواجدة فى مسقط وزنجبار أثناء زيارة هؤلاء الأشخاص . وفى مجال الموارد المالية تشير احصاءات عام ١٨٣٤ بأن ايراداته من جمارك مسقط بلغت بين ١٦٥ ألف الى ٢٠٠ ألف ريال ماريا تيريزى وهذا يعنى جملة واردات قدرها ٣ر٣ مليون ريال . وبالتالى تعتبر مسقط أهم ميناء بعد جدة فى الجزيرة العربية .

وقدرت جمارك زنجبار بـ ١٥٠ ألف ريال ولكن تلك الأرقام متواضعة جدا اذا أخذنا فى الاعتبار الازدهار الذى أصاب زنجبار بعد عام ١٨٣٤ نتيجة اهتمامات السيد سعيد بادخال منتجات زراعية جديدة فى زنجبار مثل القرنفل والسكر والأرز . كما أن تلك الاحصاءات لا تشمل الايرادات من تجارة السيد سعيد شخصيا ومن العوائد المالية من مختلف الموانى فى الخليج وشرق افريقيا الى جانب العشور على المنتجات الزراعية .

الفصل الرابع

حالة الامبراطورية العمانية بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان

ضعف الامبراطورية العمانية :

أدت وفاة السيد سعيد بن سلطان الى حدوث صدمة نفسية كبيرة فى نفوس أبناء عمان قاطبة ، اهتزت لها تلال عمان حسب وصف المؤرخ العمانى ابن رزيق • وكانت صدمتها أقوى على كيان الامبراطورية العمانية التى دب فى بنيانها التفكك التـدريجى نتيجـة سـلسلة من الأحـداث السياسية والاقتصادية المتلاحقة •

فعلى الجانب السياسى ، تولى السـيد ثوينى بن سـعيد أكبر أبناء السيد سعيد حكم عمان نظرا لأن أخويه الأكبرين هـلال وخالد توفيا قبل وفاة والدهما • وكان السيد ثوينى مضطلعا بشؤون عمان ، محاربا جريئا قاد حملة الحصار ضد بندر عباس بنفسه ، كما تمكن من تخليص والده من منافس قوى وهو حمود بن عزان حاكم صحار • وفى زنجبار كان ماجد بن سعيد يقوم بمهام والده أثناء فترة غيابه بعد وفاة أخيه خالد عام ١٨٥٤ م •

أولى المشاكل التى اعترضت السيد ثوينى بعد توليه حكم عمان ، نقص الموارد المالية، حيث كانت زنجبار أغنى من مسقط وكانت الايرادات من زنجبار تشكل ثلثى ايرادات الدولة أيام السيد سعيد ، فأجرى السيد ثوينى اتصالاته مع أخيه ماجد وتم الاتفاق بأن يقـدم ماجد معونة سـنوية للسيد ثوينى مقدارها ٤٠ ألف ريال ماريا تيريزى ، وكان هذا الترتيب ، كما وضح فيما بعد ، ترتيبا وديا بين الأخوين ، لم يكن السيد ثوينى يقصـد بها اعترافا باستقلال زنجبار عن عمان أو تفكيك أوضـاع الامبراطورية • وكان على السيد ثوينى مقابل ذلك أن يقدم لماجد نصف عدد الخيول العمانية سنويا •

وفى عام ١٨٥٨ م توقف ماجد عن سداد التزاماته برغم أنه بعث بوفد لاستلام نصف كمية الخيول المتفق عليها • ووجد السيد ثوينى أن أفضـــل أسلوب لمواجهة تحديات أخيه هو قيامه بحملة حربية ضده • فقام فى نهـــاية عام ١٨٥٨ م • بتجهيـــز تلك الحمـــلة والتى تكونت من الفرقاطة كارولين والطراد كرليو والسفينة الرحمانى وحوالى ١٢ بغلة وقوة قوامها ٢٥٠٠ مقـــاتل •

وعندما وصلت أنباء تلك الحملة الى مســـامع السلطات البريطانية ، سارعت الى ايفاد بعثة الى السيد ثوينى والتى تمكنت من اللحاق به وهو لا يزال فى صور فى طريقه الى زنجبار • وقام الكولونيل رسل بتسليم رسالة الى السيد ثوينى من حاكم بومباى تطلب منه ايقاف الحملة مع وعـــد من السلطات البريطانية بأن يتولى الحاكم العام فى الهند الفصل فى تلك المشكلة • وتجاوب السيد ثوينى مع الاقتراح البريطانى نظرا لعـــلاقات الصـــداقة الوطيدة التى كانت قائمة بين البلدين ، ووعد بارسال ســـفينته لاستدعاء القطع الحربية من أسطوله التى سبقته الى زنجبار •

تقسيم الدولة العمانية الى سلطنتين :

فى الأول من مارس ١٨٦٠ م ، عين الفينســـتون ، حاكم بومبـــاى ، البريجادير كوجلان ، المقيم السياسى فى عدن على رأس بعثة لتقصى الحقائق حول النزاع بين الأخوين ثوينى وماجد • وكان يساعد كوجلان القس بيرسى بادجر الذى كان له دور مهم فى استقصاء الجـــوانب التاريخية للأزمة • وباشرت اللجنة عملها فى مسقط يوم ١٢ يونيو ١٨٦٠ م حيث قضى كوجلان تسعة أيام مع السيد ثوينى فى مناقشة حول الأزمة •

ومن الوجهة التاريخية أثبت كوجلان عدم صحة ادعاءات السيد ماجد والتى كانت معززة من قبل ريجبى ، المقيم السياسى البريطانى فى زنجبار ،

وكانت وجهة نظر ثوينى تتمثل أنه بصفته الحاكم الشرعى على عمان فهــو أيضا الحاكم الشرعى على توابع عمان ٠

كما أكد السيد ثوينى بأن والده لم يفكر قط فى تقسيم الامبراطورية الى قسمين ، وأن الرغبة التى أبداها والده عام ١٨٤٤ م بجعل ابنه خالد حاكما على زنجبار وثوينى حاكما على عمان لم تكن أكثر من رغبة فى تحقيق استقرار ادارى ويعنى بها تعيينهما محافظين أو ولاة كما جرت العادة فى عمان ٠ كما أن السيد سعيد قد جعل للدولة خزانة مركزية واحدة ٠

وقد ساند كوجلان وجهات نظر السيد ثوينى فى تقريره الى حكومة بومباى ، فمن الناحية التاريخية كما أوضح زميله بادجر ، فان مبايعـــة مشايخ القبائل الرئيسية لأى حاكم هو الذى كان يقرر مستقبل الحاكم ، وبالتالى فان وجهة نظر السيد ثوينى بعدم امكان تقسيم الدولة من قبل أى حاكم كانت سليمة ، كما أن حكام عمان مارسوا حق تعيين أى من أبنائهم كمحافظين أو ولاة على أى جزء من البلاد ولم يكن مثل ذلك التعيين دليـــلا على تقسيم البلاد الى وحدات مستقلة ٠ وفيما يتعلق بالمعونة التى اتفق الاخوان عليها فان السيد ثوينى أكد لرئيس البعثـــة البريطانية بأن تلك المعونة قد تم الاتفاق عليها بشكل ودى ، وأن الوفد العمانى الذى تفاوض مع السيد ماجد لم يخول صلاحية الاتفاق على شروط معينة مقابل تلك المعونة مثل تقسيم الدولة أو غيرها ٠

سافر كوجلان الى زنجبار فى سبتمبر ١٨٦٠ م ٠ لمقابلة السيد ماجد من أجل استكمال أعمال اللجنة ٠ وبعد مناقشات دارت مع السيد ماجد لم يغير كوجلان وجهة نظره فى المسائل الأساسية ٠ فبالنسبة لادعاءات ماجد بأن والده كان ينوى تقسيم الدولة بين أبنائه كتركة ، أكد كوجلان أن تلك الادعاءات ليست لها أسس تبررها ، وأن الســـيد ماجد اعترف بأن اعادة تقسيم الدولة الى وحدات مستقلة لم توجد حقا فى التاريخ العمانى ٠

أما بالنسبة لحجة ماجد بأن تعيينــه جاء باختيـسار من أفراد أسرة البوسعيد والمشايخ الآخرين فى زنجبار ، فان كوجلان بنفسه رد بأن القبائل فى عمان هى التى كانت تملك حق المبايعة والتعيين من الناحية التاريخية وأن أهالى زنجبار لم يمارسوا مثل ذلك الحق لأنهم كانوا بمثابة رعايا لحكومة عمـان •

وأما حجة ماجد بأنه تم الاعتراف به كحاكم من قبل الدول العظمى وبالذات من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، فان كوجلان أوضح بأن تشكيل لجنة تقصى الحقائق من قبل الحاكم العام فى الهند وحتى ظهور نتائج وتوصيات اللجنة وقرار الحاكم العام يسقط حجة الامتثال لمواقف الـدول الأخـرى •

تلك كانت وجهات نظر كوجلان من الناحية التاريخيـة ، الا انه من الناحية السياسية فان توصياته جاءت ليس لاحقاق الحق بل فيما يمكن أن يخدم وجهـة نظره الاستقرار فى المنطقـة ومصـالح بريطانيا على المدى البعيد • وبناء عليه فانه أوصى بأن استقلال كل من الحاكمين سيؤدى الى تحقيق استقرار مثالى مع مراعاة فوارق الدخل بين الحاكمين ، كمـا أن استقلال زنجبار سيؤدى حتما الى أداء خدمة جليلة للحد من المنازعات • وبناء عليه قدم كوجلان ست توصيات :

١ — تثبيت السيد ماجد حاكما فى زنجبار وتوابعها •

٢ — عدم السماح لمسقط والقبائل العمانية التدخل فى شؤون زنجبار •

٣ — أن يدفع ماجد الى ثوينى معونة سنوية مقدارها ٤٠ ألف ريال تيريزى وسداد المتأخرات من تلك المعونة منذ عام ١٨٥٨ م •

٤ — أن تكون تلك المعونة بشكل دائم وأن تدفع من قبل ورثة ماجد الى ورثة ثوينى مستقبلا •

٥ — ألا تتوقف تلك المعونة ألا فى حالة قيام حاكم مسقط بمحاولة الاستيلاء على زنجبار بالقوة العسكرية •

٦ — فى حالة حدوث مثل تلك المحاولة أو فى حالة فشل حاكم زنجبار دفع المعونة فعلى الطرف المتضرر تقديم شكوى الى حكومة الهند قبل اللجوء الى القوة •

أقر جورج كلارك ، حاكم بومباى الجديد توصيات كوجلان وتم ارسالها الى تشارلز جون كاننج ، نائب الملك والحاكم العام فى الهند فى فبراير ١٨٦١ م • وفى الثانى من أبريل ١٨٦١ م • أصدر الحاكم العام تحكيمه : ماجد يصبح حاكما على زنجبار وتوابعها وعليه دفع معونة سنوية مقدارها ٤٠ ألف ريال ماريا تيريزى الى حاكم مسقط بالاضافة الى متأخرات المعونة عن السنتين الماضيتين •

ثم بعث كاننج برسالتين متشابهتين الى كل من السيد ثوينى والسيد ماجد توضحان بأن تلك المعونة تصبح ملزمة فى ورثة الحاكمين وهى تمثل حلا نهائيا بهدف تعويض الفوارق المالية من دخل كل منهما • وجاءت الخطوة الأخيرة فى اقرار تحكيم كاننج من باريس يوم العاشر من مارس ١٨٦٢ م • عندما صدر البيان المشترك البريطانى والفرنسى والذى تضمن تعهد الدولتين باحترام استقلال كل من سلطنة مسقط وزنجبار •

كانت نتائج التقسيم وخيمة على مستقبل عمان • فمن الناحية العسكرية انشطر الأسطول العمانى الى قسمين • فالسفن التى كانت موجودة فى زنجبار وتلك التى رافقت السيد سعيد فى رحلته الأخيرة آلت الى السيد ماجد ، بينما آلت السفن التى كانت موجودة فى مسقط الى السيد ثوينى وكان عددها أقل •

ومن الناحية الاقتصادية فان نتائج هذا القرار كانت رهيبة جدا على

الاقتصاد العمانى • فزنجبار وتوابعها قدرت ايراداتها عام ١٨٤٤ م بأكثر من ٤٠٠ ألف ريال ماريا تيريزى ، وكانت تمثل ثلثى دخل الخزينة بينما التزم ماجد بسداد معونة قدرها ٤٠ ألف ريال فقط •

وبالنسبة لاستمرارية المعونة فان حاكم زنجبار استمر فى سدادها حتى عام ١٨٧٣م ، ثم وافقت بريطانيا بعدها على اعفاء حاكم زنجبار من تلك المعونة مقابل تعهد كامل بمساعدته لمنع تجارة الرقيق والتزمت السلطات البريطانية بسداد المعونة من خزانتها • ومنذ عام ١٨٨٨م • كانت تلك المعونة تدفع من قبل السلطات البريطانية الحاكمة فى الهند والتى استمرت فى سدادها حتى عام ١٩٤٧ عندما استقلت الهند عن بريطانيا •

التدهور الاقتصادى فى عمان بعد وفاة السيد سعيد :

اذا كان تقسيم الامبراطورية الى قسمين يعتبر من الناحية السياسية والاقتصادية العامل الرئيسى الذى أدى الى اضمحلال الامبراطورية وتدهور مكانة عمان التى عرفت بأنها « الدولة البحرية الأولى » فى تلك الفترة ، فان ثمة عوامل أخرى سياسية واقتصادية خارجية وداخلية ساهمت بدورها فى احداث مزيد من التدهور الاقتصادى والتراجع الحضارى الى درجة أن أحد التقارير أشار فى عام ١٨٦٨ م بأن مسقط أصبحت مدينة شبه مهجورة •

ففى الجانب السياسى فان الأوضاع والصراعات الداخلية التى حدثت بعد وفاة السيد سعيد فى عمان خلال فترة لا تزيد عن ١٢ عاما ، أدت الى تولى ثلاث شخصيات حكم عمان • فالسيد ثوينى واجه فى البداية منافسة شديدة من قبل أخيه تركى والتى أدت الى استنزاف جزء كبير من موارد الدولة • ثم جاءت المنافسة من نجله سالم الذى تمكن
عام ١٨٦٦ م • ولكن حكم سالم لم يدم أكثر من عامين تمكن بعدها الامام عزان بن قيس الاستيلاء على الحكم • وكانت نتائج هذه الحروب الداخلية

كبيرة على الاقتصـــاد العمـــانى وســـاهمت فى تحقيق مزيد من التـــدهور الاقتصادى التدريجى •

وفى الجانب الاقتصادى واجهت عمان منافسة حضارية باحلال سفن بخارية أوربية محل السفن التقليدية والتى لم تستطع التكنولوجيا العمانية مجاراتها فأدى الى ركود اقتصادى تجارى تدريجى •

ومن المعلوم تاريخيا أن الاقتصاد العمانى كان موزعا بين نشاط زراعى فى الأجزاء الداخلية من عمان ونشاط زراعى وتجارى فى المناطق الساحلية • وكان النشاط الزراعى فى عمان الداخلية نشاطا استهلاكيا معيشيا ، يحاول تحقيق الاكتفاء الذاتى ، وباستثناء الليمون المجفف والبسور ، فان النشاط الزراعى لم يكن يلعب دورا يذكر فى قيمة الصادرات ، كما أن الحواجز الطبيعية مثل الجبال والصحارى والوديان ووسائل النقل البدائية (استعمال الجمال) ، كانت تحول دون قيام الزراعة بدور فى حركة التجارة وانعاش خزينة الدولة • وبالتالى فان الموارد الأساسية كانت تأتى من أنشطة الموانىء التجارية فى عمان والخليج وشرق افريقيا والتى كانت تتمثل فى الاستثمارات النقدية والملاحة والأعمال التجارية والتجارة الخارجيـــة • والتى كانت فى مجموعها تدر دخلا ثابتا من الجمارك لخزينة الدولة ولكن الذى حصـــل فان عمان واجهت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مجموعة تحديات أدت الى تقويض الدور التجارى والملاحى التاريخى لعمان •

تدهور النشاط التجارى والملاحى :

كانت صناعة السفن فى عمان تمثل دعامة من دعائم الاقتصاد الوطنى فى المنطقة عبر آلاف السنين • وكان الملاحون العمانيون فى العصور الوسطى رواد الرحلات البحرية الى بلاد الصين • وكانت التكنولوجيا البحرية العمانية فى تلك العصور تضم خبرة تعد فى طليعة الخبرات فى مجال بناء السفن ،

وبالذات فى مجال بناء السفن متوسطة الحجم • ولكن بظهــور الســفن الأوروبية الضخمة ذات الصــوارى الأربعــة أو الثلاثة والمزودة بعشرات المدافع منذ القرن السابع عشر ، ظهرت الحاجة الى تملك العمانيين أيضــا لمثل تلك السفن لمواجهة التحديات العالمية ، فلجأ حكام عمان الى أحواض بناء السفن فى الهند لسد حاجتهم من مثل تلك السفن بأعداد محدودة الا أن الجزء الأكبر من قطع الأسطول كانت من السفن المتوسطة الحجم والتى كانت أحواض السفن العمانية قادرة على توفيرها ، كما أن ورش صب الحــديد كانت قادرة على تزويد أسطول الدولة بالمدافع •

وبحلول الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت السفن البخــارية الأوربية على مسرح الملاحة فى الخليج وبدأت تقوم بدور فعال فى عمليات النقل التجارى • ولم يستطع العمانيون مواجهة هذا التحدى الضخم الذى كان يفوق قدراتهم ، خصوصا وأن تلك السفن كانت تقوم بعمليات النقــل التجارى بأسعار أرخص من السفن الشراعية •

وترتب على هذا الوضع توجه التجار الى الســفن البخارية لنقــل بضائعهم تجنبا للتكاليف المرتفعة فى السفن الشراعية • وأدى هذا الوضــع بدوره الى توقف السفن العمانية تدريجيا عن أداء دورها التجارى فى مجال النقل البحرى ، واضطر العديد من أصحاب السفن الى بيع سفنهم لمواجهة تكاليف المعيشة أو للتخلص من تكاليف الصيانة والبطالة •

وهكذا انتقلت الأرباح الى الشركات الأوروبيــة بدلا من المــلاحين العمانيين والخليجيين • وكما أسلفنا فانه بانفصال زنجبار فقد الأســطول العمانى للدولة أكثر من نصف قطعه والتى كانت تلعب دورا فى عمليات النقل التجارى لحاكم الدولة • وفى الستينات اضطر حكام عمان الى بيع عدد آخر من قطع الأسطول •

كان عدد السفن الكبيرة التى كان العمانيــون يملكونها عام ١٨٧١ م

حوالى ١٦ سفينة . وكان الاحتفاظ بها أمرا عسيرا لحاجتها المستمرة للصيانة الباهظة التكاليف الى جانب المنافسة القوية من السفن البخارية فاضطر العمانيون للتخلص من هذا النوع من السفن فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

وبمجىء السفن البخارية وقلة الحاجة الى السفن الشراعية الضخمة فان صناعة السفن فى عمان تأثرت بدورها الى حد كبير • كما قلت العناية بالسفن الضخمة ، ويقرر ولستيد أنه فى عام ١٨٣٨ شاهد سفينة عمانية الصنع لا تقل حمولتها عن ٤٠٠ طن ، أما السفن التى كانت تبنى فى عمان فى أواخر القرن التاسع عشر فلم تكن تزيد حمولتها عن ١٠٠ الى ٢٠٠ طن •

الاستحكامات الحربية في مسقط

للأستاذة الدكتورة سعاد ماهر

من المعروف مدى أهمية عمان فى العالم القديم والوســيط وكذلك الحديث ، وذلك بسبب موقعها الاستراتيجى وتضاريسها وموقعها الجغرافى فهى حلقة الوصل بين الخليج والمحيط الهندى ٠ أمــا أهميتها من الناحية الاقتصادية فهى المرفأ الذى أوصل تجارة الشرق الاقصى الى دول الشرق الأوسط ومنها الى أوروبا عبر البحر المتوسط دائما والبحر الأحمر أحيانا ٠ ومن ثم فهى فى حاجــة ماسة الى استحكامات حربية تحميها شر غوائل المجهول فى البحر والبر معاً ٠

ولقد أوردت النشرة الرسمية فى كتاب :

Gazetteer. (Persian Gulf 'Oman) Vol. II.

أسماء العمائر الحربية التى ماتزال موجودة بمــدن وموانى سلطنة عمان ؛ فبلغ عددها أكثر من (٥٠٠) عمارة ، معظمها أسوار مدن من اللبن ومبان من الحجر للمجارى المائية المعروفة بالأفلاج ثم الابراج والقلاع والمناظر والحصـون ٠

ولقد رددت المراجع التاريخية القديمة منها والمحدثة أسماء متعددة على استحكامات عمان الحربية دون تفرقة بينها ســواء من الناحية اللغوية والمعمارية أو الاستحكامات الحربية ، فكثيراً ما نجــد المرجع يطلق على عمارة بعينها مرة اسم (قلعة) ثم يعود فى فقرة ثانية فيسميها (حصنا) وفى ثالثة يطلق عليها اسم (برج) ٠ وقد حذت المراجع الأجنبية حــذر المصادر العربية فأطلقت على معظم العمائر الحربية لفظ Fort أو Fortress, ويندر أن تذكر كلمة Citadel على القلعة أو Curtain wall على الأســوار ٠ لذلك فقد رأينا من الضرورى أن نوضح فى كلمات الفرق بين

هذه المسميات جميعها من الناحية المعمارية • والحربية على أقل تقدير .

الحـــصن :

هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية وان لم يكن أمنعها ، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أى اعتداء من داخل البلاد أو خارجها • ومن ثم فان أسوار المــدن كانت تعرف فى العصور الوسطى باسم الحصون ، مثال ذلك ســـور مدينة بغداد والقيروان وفاس والمهدية وقرطبة والقاهرة وصنعاء وزبيد وغيرها • كمـــا يوجـــد بسلطنة عمان الكثير من أســـوار المدن المحصنة مثل ســـور مدينة بهلة (Bahlah) وسور مدينة (بنى بوحسن) وسور قرية الحزم ، وأســـوار مسقط ومدينة (إبـــرا) (Ibra) وكـــذلك أســـــوار (ظفـــار) و (صـــــلاله) و (طاقة) و (مرباط) وغيرها كثير •

على أن المبانى التى تحصن المدن أو القرى أو الأحياء ، لابد وأن تتميز عن الأســـوار العادية باحتوائها على أجزاء معمارية خاصة القصد منها الحماية والتحصين والمراقبة تعرف باسم الأبراج والساقطات والمراقب : التى يجب أن يتواجد فيها باستمرار حماية من العسكر والجند ورجـــال الدرك •

هذا وليس ما يمنع أن يكون ساكنو الحصن كلهم من العسكر والجند ، بل كثيراً ما يوجـــد بداخله عدد كبير من المدنيين الذين يقومون بالخدمات العامة أو بالزراعة وخاصة فى داخل أسوار المـــدن •

وقد تطور استخدام الحصـــون فى العصور الوسطى وحتى بداية العصر الحديث تبعا لتطور النظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ونعنى بها النظم الاقطاعية • فلم يعد الحصن معقلا فحسب بل أضحى

المقر الطبيعي لاقامة الأمير أو الملك أو السلطان [١] وأتباعه • فكان الطابق الأول من مباني الحصن يحـوي الابار ومخازن الأسلحة والعدد الحربية الثقيلة اللازمة لمقاومة حصار طويل • أما الطابق العلوي فقد خصص لرمي السهام والمواد السائلة وغيرها من القذائف على العدو المهاجم ؛ في حين يستخدم الطابق الأوسط للأمير وأعوانه وأسرته [٢] •

وقد ظلت معظم حصون سلطنة عمان تستخدم كذلك مقراً للأئمة والسلاطين حتى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

لقد كان الحصن هو مركز الحكم التقليدي في عمان مهما كانت قيمة الحاكم من القوة أو الضعف • وكان يحيط بهذا المقر أو الحصن الأسوار الضخمة بأبراجها العظيمة ومنافذها وبواباتها العالية التي تكتنفها الأبراج من جانبيها والتي تقوم على حراستها قوة من العسـكر ببنادقهم وأسلحتهم وأعلامهم ؛ وداخل تلك الأسـوار يقيم الأهالي •

ولمـا كانت الغاية من اقامة تلك الحصون بعمان هو التحكم في المنطقة التي تشرف عليها ؛ لذلك فقد اختير لها في معظم الأحيان وخاصة الساحلية منها ، مواقع استراتيجية هامة . فهي دائما أبداً مقامة على الصخور والجبال أو في بقعة ممتازة اذا كانت في وادٍ أو سهل •

والى وقت ليس ببعيد كانت أهم حصون عمان كتلك التي في **الرستاق** وصحار والحزم والدريز وبهلا ونزوى وجبرين وبركة الموز ونخل والميراني والجلالي بمسقط وغيرها مما شهدت الحروب العمانية التقليدية التي خاضها

---

(١) Evans : La Civilisation en France au Moyen Age. P. 48

(٢) Stephenson : Medieval Feudalism. P. 70.

أبناء الأجيال السابقة لعدة قرون مضت مستعملين الأسلحة التقليدية كالمكاحل والنار الاغريقية وشظايا حجر الصوان وغيرها من أسلحة العصور الوسطى ٠

القلعـــة :

هى استحكام حربى يبنى فى منطقة استراتيجية كالجبل أو التـل أو الروابى الصخرية أو على سواحل البحار ٠ ومهمة هذه المبانى مقصورة على المراقبة والدفاع ضد الاعتداء الخارجى ، ومن ثم فهى بالضرورة لابد وأن تتكون من مجموعة من الأبراج والمراقب والمزاغل (فتحات رمى السهام) وما الى ذلك من المبانى الحربية ٠

كما تمتاز القلعة بأن ساكنيها من العسكر والجند ، ولا مجال لاقامة المدنيين بها ٠ وعلى ذلك نستطيع القول بأن الحصن قد يشتمل على قلعة أو أكثر ضمن مبانيه ، أما القلعة فهى وحدة معمارية قائمة بذاتها ، وقد تكون منفصلة عن الحصن أو بداخله شريطة أن يكون الموقع المقامة عليه موقعا استراتيجيا كما أسلفنا القول ٠ ومن أهم الأمثلة لذلك تلك الصورة التى رسمها (Carsten Niebuhu) لقلعة قريات فى القرن (١٨) م ٠

الــبرج :

البرج عبارة عن بناء حربى مربع أو مستدير الشكل يبرز عن سمت الجدار والأسوار وتحتوى الأبراج على مساقط (Machicoullis) ومراقب (Glacis) ومزاغل لرمى السهام ٠ وتزود أسوار الحصون والقلاع بعدد من الأبراج ، ومن ثم فان حجمها يكون عادة صغيراً لتعددها ٠ وقد يحدث ان تكتفى بعض القرى أو الموانى الصغيرة باقامة برج للمراقبة والدفاع المبدئى ؛ وفى هذه الحالة فان البرج يكون كبيراً حتى يتســع لاقامــة حامية كبيرة يمكنها صـــد هجمات الأعداء أو على الأقل تعطيل تقدمهم حتى تستعد القلاع والحصون القريبة منها ٠

بعد هذا التعريف الموجز للعمائر التى استعملت فى الاستحكامات الحربية ، والتى استخدمتها عمان جميعها فى الدفاع عن نفسها وممتلكاتها عبر العصور ، نجد أن الطبيعة قد حبتها باستحكام حربى طبيعى بالاضافة الى العمائر السالف ذكرها ، ألا وهى الأفلاج ، ومن أشهرها (حصن بيت الفلج) الذى يعتمد أساساً فى تحصينه على مياه الأفلاج التى تأتى من الجبال المجاورة •

ولعل مما ساعد على كثرة وجود الاستحكامات الحربية من حصـــون وقلاع وأبراج وأسوار بعمان عبر العصور ، هو نظام الأفلاج الذى عرفته عمان منذ أقـــدم العصور والذى ترجعه الأساطير الى عهد النبى داود عليه السلام والنبى سليمان عليه السلام الذى قيل انه أمر الجن ببناء عشرة الآف مجرى للمياه فى عشرة أيام ، ومنذ ذلك العهد لم تجف أبداً •

ولعل أحسن الأمثلة لنظام الأفلاج فى عمان مايوجد فى منطقة (الظاهرة) والبريمى التى مايزال يطلق على الأفلاج بها اسم (داوودى) نسبة الى نبى الله داود عليه السلام .

ولمـــا كان هذا أمر الافلاج بالنسبة للاستحكامات الحربية بعمـــان فقد يكون من المفيد أن نذكر فى ايجاز شيئا عن ما هيتها قبل أن نتناولها بالبحث كاستحكام حربى •

تكاد تحتفظ عمان بتسعين فى المائة مما يسقط عليها من الأمطار فى أنواع من المجارى المائية أهمها ، الأبيار والأفلاج التى تنقسم بدورها الى قسمين الأول ويعرف باسم غال (Jhayl) وهو أسم غير معروف فى عمان ، والثانى ويسمى كوانت (Qanat) •

وإذا ما درسنا عمارة الدور والقصور فى عمان منذ أقدم العصور وحتى مطلع القرن العشرين ، لتبين لنا أنها كانت عمائر استحكامية على درجة كبيرة من الأهمية ، ومن ثم وجب اضافتها الى العمائر الاستحكامية بالسلطنة .

ومن المعلوم أن الغالبية العظمى من العمانيين ليسوا من ساكنى الصحراء الرحل ، ولكنهم سكان مدن وقرى سكنوها منذ أقدم العصور . فما يزال هناك الكثير من الدور والقصور الآهلة بساكنيها حتى الآن والتى يرجع تاريخ بنائها الى عدة قرون مضت . وهذه الدور لا تقل من الناحية المعمارية والزخرفية عن مبانى عمان الحديثة ، فان زخارفها الجصية ومشربياتها الخشبية ، وأهم من ذلك تخطيطها المعمارى الذى روعى فيه ملاءمة البيئة المحلية ، ليشهد بما كانت عليه عمان من تقدم حضارى ومعمارى . فقد تعددت الطرز المعمارية فى عمان تبعا لتعدد البيئة المناخية بها وكذا تبعا لموقعها الجغرافى وللتضاريس . فطراز عمائر السواحل مثلا يختلف عن طراز السهول والوديان ، وطراز الصحراء يختلف عن طراز عمائر الجبال وهكذا .

كذلك اختلفت طرز العمائر طبقا لاختلاف الحالة الاجتماعية وذلك مصداقا للمثل المأثور فى عمان ، الذى يقول : الغنى يسكن القصور وعند بوابته يوجد العور (يعنى الفقراء) . وهذا المثل ينطبق تماما على ساكنى المدن والقرى العمانية فى الماضى ، ذلك أن مركز المدينة والقرية يشغله دائما الحصن أو القلعة ، حيث يقيم السلطان أو الحاكم أو الوالى أو الشيخ ، وحوله يسكن أهلها .

وقد أعطتنا الدور التى ماتزال باقية حتى الآن فى أحياء مسقط القديمة والتى يرجع بعضها الى القرن السادس عشر فكرة واضحة عن تخطيط المنازل والدور فى عمان عامة . فقد كان المنزل يتكون من فناء مكشوف تحيط به

غالبا المبانى من جهاته الأربع ويمكن الوصول اليه عن طريق مدخل رئيسى (بوابة كبيرة) كثير العمق يعلوه عقد حلفه سقف مقبى ينتهى الى قلبه من الدرجات على الجانب الأيمن من المدخل . مما يضطر الداخل أن يمر فى زاوية قائمة يكون فيه صدره مجاورا لحائط السلم الذى عمد المعمار الى فتح شقوق (مزاغل (Arrow-slits)) به لرمى السهام •

وهكذا نرى أن المعمار القديم قد استخدم فى مداخل البيوت والقصور نفس النظام الذى اتبعه فى مداخل الحصون والقلاع ، وهو المدخل المنحنى أو ذو الزاوية والذى عرف فى العمارة الاسلامية باسم المدخل المنكسر (Bent–Entrance) الذى يجبر القوة الداخلة من عسكر الأعداء الى الانحناء جهة اليمين معرضة الجانب الأيمن من صدرها ، وهو الذى يكون عادة خاليا من الدروع للاصابة بالسهام التى تخرج من المزاغل الموجودة فى ذلك الجدار .




ولما كان عدد عمائر عمان الحربية يربو على الخمسمائة كما أسلفنا القول ، ما بين أسوار وحصون وقلاع وأبراج وأفلاج ودور وقصور قديمة ، لذلك فقد رأينا أن نقصر الحديث على تلك التى ماتزال بحالة جيدة ، أو بحالة تسمح بدراستها • واتماماً للفائدة فقد رأينا أن نتناول بالبحث والدراسة استحكامات كل اقليم من أقاليم سلطنة عمان البالغ عددها تسعة اقاليم على حده •

١ ــ منطقة مسقط :

(انظر لوحة رقم (١) ، (٢))

مسقط هى عاصمة سلطنة عمان ومقر اقامة السلطان • وتقع منطقة

مسقط على الساحل الجنوبى لخليج عمان على بعد أقل من ثلث المسافة الممتدة من رأس الحد فى الجنوب ورأس مسندم التى تقع عند مدخل الخليج العربى (انظر شكل (٢)) •

أســوار مسقط :

(انظر شكل رقم (٤)) (Curtain-Walls)

كان يحيط بمدينة مسقط منذ العصور الوسطى على أقل تقدير أسوار وكتل كبيرة من الصخور الطبيعية ، التى كانت تقوم مقام السور ، وكان سمكها يبلغ مثلى أو ثلاثة أمثال سمك السور المبنى . الا أن تلك الأسوار القديمة قد تهدمت بمرور الزمن ، فأعيد بناؤها على ما هى عليه الآن فيما بين عامى (١٦٢٣ م / ١٠٣٣ هـ) وعام (١٦٢٦ م / ١٠٣٦ هـ) •

وتعتبر أسوار مدينة مسقط الخط الدفاعى الأول بالنسبة لتحصين وحماية المدينة ، ومن ثم فقد أطلقت عليه مصـادر العصور الوسطى اسم الحصن ، فقد كانت تحيط بمسقط التى يبلغ طولها من الشرق الى الغرب قرابة نصف ميل ، وعرضها أى بعدها عن البحر قرابة ربع ميل ، احاطة السوار بالمعصم ، اللهم الا الجانب الشرقى حيث تحمى المدينة جبال شديدة الانحدار ، يفصلها عن جبال (الجلالى) فتحة تعرف باسم (مَعْنَب) •

وهكذا نرى أن أسوار مسقط تحيط بالجانب الغربى والجنوبى منها فقط ، أمـا الجانب الشمـالى والشرقى فيحميهما خليج مسقط والجبال الشرقية • ويبلغ طول ضلع الأسوار الغربية قرابة (٦٠٠) متر ، يبدأ فى الشمال عند (باب المثاعيب) وينتهى عند (الباب الكبير) فى نهاية الضلع الغربى من الأسوار ، حيث يبدأ ضلعاً صغيراً يقطع زاوية التقاء الضلعين الغربى والجنوبى ويبلغ طوله (٢٠٠) متر وينتهى عند (باب الكبريته) •

ثم تأخذ الأسوار فى الامتداد نحو الشرق قرابة (١٣٠٠) متر • ويتخلل الأسوار على مسافات تكاد تكون متساوية أبراج مستديرة الشكل ؛ يبعد كل منها عن الآخر (٣٠٠) متر •

وتتكون الأبراج من طابقين الأول منها مسمط ؛ أما الثانى فيحتوى على غرف ودهاليز لاقامة العسكر والجند ، كما يوجد فى جدران الطابق الثانى للأبراج مزاغل (أى فتحات لرمى السهام (Arrow-slits)) • ويعلو الأبراج شرفات كبيرة مستديرة تسمح المسافة بينها لوضع فوهات المدافع أو (المكاحل) ، ويبلغ عددها ثمانية ؛ ثلاثة منها فى الضلع الغربى وخمسة فى الضلع الجنوبى •

وتحتوى أســوار مسقط على ثلاثة مداخل ، واحد منها يقع فى الركن الغربى أسفل قلعة المريانى ويعرف باسم (باب المثاعيب) • ويتكون باب المثاعيب من صف من فتحات حديدية صغيرة خلفية يمر من خلالها وادى الكبير الى الشاطىء وعند نهاية الضلع الغربى للأسوار يوجد مدخل رئيسى يعرف (بالباب الكبير) الذى يقع أمامه حارة الدخيل (Dakhil) المؤدية الى سوق المدينة فى الداخل ، كما يؤدى الباب الكبير الى سيداب (Sidab) ومعظم الطرق التى توصل الى ضواحى مسقط والى مدينة مطرح • ويتكون هذا المدخل الرئيسى من مدخل متسع يعلوه عقد مدبب يوجــد خلفه فى السقف فتحة بسعة المدخل تستخدم فى صب المواد المحرقة من قار وزيت مغلى على العدو المقتحم . ويكتنف هذا المدخل من جانبيه نصفا برج ، بهما فى الطابق الثانى فتحات لرمى السهام •

أما المدخل الثالث فيقع فى منتصف الضلع الجنوبى ، وهو عبارة عن مدخل رئيسى مماثل للمدخل الرئيسى الكبير ، ويعرف باسم (المدخــل الصغير) •

وتحتوى أســوار مسقط على عدد من الدهاليز والممرات فى الطابق الأول التى تسمح بوجود الجنود والعساكر لحمايتها والدفاع من المدينة ضد أى عدو يريد الاقتحام • أما أعلى الأســوار فتحتوى على ممرات مكشوفة توصــل بين الأبراج، والتى تتسع للفرســان على صهوه خيولهم للتحرك بسرعة للدفاع عن المدينة •

أبراج مسقط :

(انظر لوحة رقم (١))

كما يحصن مسقط ويدافع عنها ويراقب مداخلها من البر والبحــر مجموعة من الأبراج التى تعلو الجبال التى تحيط بضواحيها • وقد بنيت هذه الأبراج من مجموعة من الصخور السوداء ، مما جعلها تبدو كأنها منازل على قمم الجبال • ومهمة هذه الأبراج هو اعطاء اشارات ضوئية للقلاع والحصــون حتى تستعد للدفاع عن المدينة أو الميناء وهى بذلك أشبه بفنارات الموانى •

ولعل من أهم وأشهر أبراج مسقط التى ماتزال باقية حتى الآن برج (سعالى) الذى يوجد فى الركن الجنوبى الشرقى للمدينة وبرج (بوستو) الذى يوجد خلف منتصف المدينة • وكذا برج المربع الذى يوجد على مسافة قريبة من وادى الكبير ، وبرج (دامودر) الموجود فى الطرف الغربى للمدينة وبرج (مديمن) فى الطريق الى ريام (Riyam) وبرج مكلّة عنــد نهاية الحافة التى تكون الجانب الغربى من الميناء • وهذه الأبراج جميعها لا عمل لها الآن •

قـلاع مسقط :

(انظر شكل (٤))

وكانت مسقط تعتمد فى حمايتها على قلعتى الميرانى والجـلالى . الواقعتين على الصـخور التى تشـغل طرفى المنطقـة الرملية على الشاطىء ، اذ ترتفع كل منهما على جرف صخرى يبلغ ارتفاعه (١٥٠) قدما عن سطح البحـر ، ويمكن الوصـول الى كل منهما عن طريق مجموعة من الدرجات منحوتة فى الصخر • (انظر لوحة رقم (١)) •

كما أقامت البرتغال كشافات أو مناظير كشفية فى صيرة الشرقية لمعاونة القلعتين (ميرانى وجلالى) فى الدفاع البحرى وعلى الشاطىء الشرقى للميناء وعلى بعد (٢٥٠) ياردة من رأس مسقط توجد صيرة الغربية على الطرف الآخر ، يعلوها المأوى المقبى المعروف باسم مكلثه الذى سبقت الاشـارة اليـه •

وفى داخل مسقط توجد مخازن لخزن مياه المدينـة تقع على بعـد (١/٢) ميل من وادى الكبير التى تحميها قلعة مربعة الشكل ، تحتوى على ساقطات (تعرف عند أهل عمان باسم راوية) وتعرف فى العمارة الاسلامية باسم (maehicoullis) ترجع الى عهد البرتغال (انظر لوحة رقم (٣٥))

قلعـة الميرانى :

(انظر شكل رقم (٥)) ، (لوحة رقم (٩))

تقع قلعة ميرانى الى الغرب من مسقط أقامها البرتغال فى عهد الملك فليب ملك أسبانيا بعد استيلائه على البرتغال ١٥٨٠ م / ٩٨٨ هـ •

قلعـة الجلالى :

(انظر شكل رقم (٦))

وتقع فى مقابلة قلعة ميرانى فى الجهة الشرقية من مسقط وقــد تم بناؤها بعد قلعة ميرانى بعام أى (١٥٨٨ م / ٩٩٧ هـ) •

بيوت مسقط الأثرية :

سبق أن ذكرنا أن الدور والقصــور فى العصور القديمة والوسطى بل حتى أوائل القرن العشرين تعتبر ضمن العمارة الحربيــة ، ذلك أن تصميمها المعمارى كان يلاحظ فيه أن يكون القصر أو الدار قلعة حربيــة يمكن أن تحمى نفسها وقت الحاجة •

ولعل أهم هذه الدور هى (من غرب المدينة الى شرقها)

(انظر شكل رقم (٤))

١ ــ بيت جريزه (لوحة رقم (٦))

٢ ــ بيت السيد شهاب •

٣ ــ بيت السيد نادر (انظر لوحة (٢٤))

٤ ــ بيت فرنسا (تشغله الآن السفارة الفرنسيه)

٥ ــ بيت السيد عباس

٦ ــ بيت راتانسى (Ratansi)

٧ ــ بيت البئر

٨ ــ بيت السفارة الهندية

٩ ـــ بيت مغب

١٠ـــ بيت السفارة الأمريكية

١١ـــ بيت السفارة الانجليزية

١٢ـــ بيت الزواوى (انظر لوحة رقم (١٣))

قلعـــة مطرح :

(لوحة رقم (١٧))

تعتبر مطرح أكبر مدينة فى سلطنة عمان وأكثرها أهمية من الناحية التجارية • وتقع مطرح على الجانب الغربى من خليج مطرح وعلى بعـــد ميلين غرب مدينة مسقط (انظر شكل (٣) ، (٤)) •

وتشبه قلعة مطرح قلعتى مسقط من حيث التخطيط المعمارى وأسلوب العمارة • هذا وقد حصنت المدينة بأسوار عالية خاصة تلك الأجزاء التى لم تحصنها الطبيعة . وقد تخلل السور مجموعة من الأبراج وعدة مداخـــل رئيسية ، أهمها الباب الكبير الذى يقع فى الركن الجنوبى الشرقى من المدينة والذى يبدأ منه الطريق الذى يخرج من مطرح الى مدينة روى (Ruwi).

٢ ـــ منطقة الباطنة :

وهى من أهم مناطق عمان ، وهى تقع فى الشمال على الساحل بين البحر والحجر الغربى • وتقطع هذه المنطقة عدة وديان تنبع من قمم الجبال وتنتهى فى البحر كما أنها كثيرة القرى فى رءوس الوديان •

قلعـــة صحـــار :

(انظر لوحة رقم (٢٥)) (شكل رقم (٣))

ويحمى مدينة صحار قلعة كبيرة يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام[١] وان كان كثير من الأوروبيين ينسبونها الى البرتغال • ولعل مرجع هذا الخطأ هو أن البرتغاليين قد نقلوا تصميمها المعمارى واستعملوه فى استحكاماتهم الحربية التى أقاموها فى منطقة الخليج مثل ميرانى وجلالى وقلعة العجاج •

قلعـــة مصنعة : (Masna' ah)

(انظر شكل (١) ، (٢)) .

وقد كانت قلعة مصنعة ذات طراز معمارى اسلامى هام ، ذلك أنه روعى فيها أن يتوسط صحنها مسجد يؤدى فيه عسكرها صلواتهم الخمس دون الحاجة الى الخروج من القلعة خاصة وقت الأزمات • وقد أقيم فى أوائل القرن العشرين قلعة فى مدينة (أبو ظبى) على غرار قلعة مصنعة والغربية ، أما الضلع الرابع وهو الشمالى فيوجد به المدخل الرئيسى للقلعة تعرف باسم قلعة الشيخ •

وفى وسط مدينة بركا تقوم قلعة عالية مربعة .الشكل يدعم أركانهـــا أربعة أبراج • وتحيط المنازل بالقلعة من جهاتها الثلاث الشرقية والجنوبية الذى يكتنفه نصفا برجين على جانبيه •

(انظر الشكل ٢ ، ٣)

---

(١) Hawley : Oman and Its Renaissance P. 124.

قلعـة سـويق : Suwaiq

(انظر شكل (٢))

وتعتبر سويق احدى موانى وادى بنى جفير ((Ghafir)) • وفى وسط المدينة توجد قلعة عالية مربعة الشكل يدعمها أربعة أبراج فى أركانها الأربعة • وقد اتخذ الوالى القلعة مركزاً له وتقوم بحراستها قوة مـن (٢٥) جنديا •

قلعـة حـزم : (Hazam)

(انظر شكل (١))

وتعتبر قلعة الحزم من أهم الاستحكامات الحربية فى عمان التى خلدها التاريخ • وقد انشأ قلعة الحزم الامام السلطان بن سيف الثانى اليعربى سنة ١٧٠٨م (سنة ١١٢١هـ) واتخذها قاعدة لحكمه بعد أن ترك الرستاق •

٣ ــ منطقة الحجر الغربى :

(انظر شكل (٢))

تقع هذه المنطقة الى الغرب من منطقة الباطنة ، وهى منطقة جبلية • وقاعدة المنطقة مدينة الرستاق التى تقع فى وادى فارة • (انظر لوحـة رقم (٣٢)) •

حصن العوابى :

ويحمى المنطقة كلها حصن كبير يعرف باسم بيت العوابى لأنه يشغل منطقة استراتيجية تتحكم فى المنطقة الممتدة من نخل •

٤ — منطقة الحجر الشرقى :

(انظر شكل رقم (٢))

تقع هذه المنطقة الى الجنوب من الباطنة ومحاذية للبحر • وهى عبارة عن منطقه جبلية تنحدر بشـــدة نحو البحر ومن ثم فان شواطئها غـــير صالحة للسكنى •

قلعـــة مزارع :

وقرية مزارع محاطة من جميع الجهات بجبال منحدرة ، تتقدمهـــا فى مدخل الوادى صخرة كبيرة مرتفعة أقيمت فوقها قلعة قديمة تتحكم فى الوادى ومدخله •

٥ — منطقة الظاهرة :

تقع هـــذه المنطقة الادارية الى الغرب من منطقة الحجر الغرب ، وقصبتها مدينة (عبرى) •

قلعـــة عبرى :

(انظر شكل (٣))

وفى وسط المدينة وعلى جبالها توجد قلعة عبرى التى تعد من قلاع عمان الداخلية ذلك انها لا تقع على ساحل البحر كما أنها تقع على حدود البلاد •

٦ — منطقة عمان الغربية :

تقع هذه المنطقة الى الجنوب من الجبل الأخضر ، وقاعدتها مدينة نزوى •

قلعـــة نزوى :

(انظر شكل (١))

تتكون من ساحة كبيرة مربعة الشكل تتخلله الأبراج ، وفى أحد أركان القلعة يوجد البرج المركزى الكبير الـــذى بناه الامـــام سلطان بن سيف اليعربى ما بين سنة ١٦٧٠ و سنة ١٦٨٠م ٠

حصن بهـــلاء :

(انظر شكل (١))

ويحيط بالمدينة والحصن ســـور قديم يرجـــع الى ما قبـــل العصر الاسلامى ويبلغ طوله سبعة أميال ٠

قلعـــة ازكى : (Izki)

(انظر شكل (١))

وفى وسط حى اليمن توجد قلعة ازكى التى يحيطها ســـور سميك قوى البنيان اذ يبلغ سمك جدرانه خمسة أقدام ٠

قلعة بركة الموز :

(انظر شكل (١))

تتكون قلعة بركة الموز من ساحة مستطلية الشكل يدعم أركانها أبراج ضخمة ٠ وتتكون القلعة من طابقين ، تحيط بها الاسوار التى تتخللها الأبراج كذلك ٠ وقد أنشأ بعض أبراج المراقبة بقلعة بركة الموز ، أحد أقارب سلطان عمـــان سنة ١٨٧٦ م وهو حماد بن هلال بن محمد ٠

حصن جبرين :

(انظر شكل (١))

يقع حصن جبرين على مسيرة دقائق معدودات من مدينة بهلا ، ومن ثم فانه يعتبر القاعدة الامامية لبهلا • ولقد اتخــذ الامام بلعرب بن سلطان اليعربى حصن جبرين مقراً له ، بل لقد أصبح لفترة ليست قصيرة ينظر اليه على أنه حاضرة عمان كلها •

٧ ــ المنطقة الشرقية :

تقع هذه المنطقة الى الغرب من حجر الشرقية وقاعدتها مدينة ابرا •

قلعة العــوامر : Awamir

العوامر مجموعة من القرى ، تقع بوادى حلفان ، حيث يوجد فلج العوامر ، ويوجد بهذه القرى حصن كبير مكون من مجموعة من المبانى يرجع الى عصور مختلفة لعل أهمها ، الأبراج المستديرة والمربعة منها • ويتولى حراسة هذا الحصن قبائل العوامر بالمنطقة الشرقية •

٨ ــ منطقة جعــلان :

تقع هذه المنطقة فى جنوب منطقة الشرقية على ساحل بحر العرب •

قلعــة الحـــد :

القلعة مربعة الشكل يدعم أركانها أربعة أبراج مستديرة الشــكل يتكون كل منها من ثلاثة طوابق ، فتح فى الطابق الثانى منها مزاغل لرمى السهام • أمــا الطابق العلوى فيحتوى على فتحات كبيرة نسبيا وكــذا شرفات تسمح بوضع فوهات المكاحل •

قلاع بنى بوحسن :

ويوجد فى شمال مدينة بنى بوحسن قلعتان لحمايتها ، احداهما قديمة جداً مبنية من الطمى ، والأخرى أحدث وهى مبنية بالحجر المكسى بطبقة سميكة من الجص ويحيط بالقلعتين وكذا المدينة أسوار يتخللها الأبراج المستديرة والمربعة التى تقوم بحماية العيون والأفلاج التى يعتمد عليها فى رى تلك المنطقــة •

٩ ــ منطقة ظفار الحبوضى :

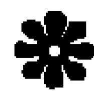
تقع منطقة ظفار على ســاحل بحر العرب فى نهاية حدود عمــان الجنوبية الغربية ، وعند حدود حضرموت الشرقية ، وتمتد ظفار من رأس بوس الى قرية (خر يفوط) على ساحل البحر •

حصــن الغراب :

يرجع تاريخ هذا الحصن الى ما قبل الاســلام : فقد وصفه المؤرخ الهمدانى بعد ذكره ســواحل الشحر ومهرة فقال : وفى منتصف من هــذا الساحل بين عمان وعدن وربسوت ، ويوجد حصن غراب وهو موئل كالقلعة ، بل قلعة مبنية بنيانا على ساحل البحر ، الذى يحيط به إلا من جانب واحد •

١٠ ــ البيوت المدرجة بالجبل الأخضر :

ومن الاستحكامات الحربية التى تنفرد بها سلطنة عمــان ، الدور المبنية على مدرجات الجبال التى تبدو وكأنها أبراج حصــون أو مبانى قلاع يعلو بعضها البعض • وتزخر جبال قرى منطقة الجبل الأخضر بهــذا النوع من المبانى • وهى ذات تخطيط مربع الشكل مكونة من عدة طوابق ، بنى كل طابق على طبقة من الصخــور المدرجة •





بعد هذا العرض الموجز لأهم حصون وقلاع وأبراج المناطق الادارية التسعة لسلطنة عمان ، يتبين لنا أن الاستحكامات الحربية الموجودة بمسقط وعمان ، تنقسم ثلاثـة أقسـام رئيسية لكل منها خصائصها ومميزاتها وفيما يلى بيانها :

أولا : استحكامات ساحلية :

١ — تقتصر هذه الاستحكامات على القلاع والأبراج المرتفعة ، حتى تستطيع مراقبة العدو على مسافات بعيدة فى عرض البحـر قبل اقترابه من الشاطىء •

٢ — توجد معظم هذه القلاع على قمم الجبال والصخـور العالية ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز ، مثل قلعة صحار التى تحمى ميناء صحار وتتحكم فى مضيق هرمز • ولمـا كانت قمم الجبال وكذا الرءوس الصخرية مساحتها ضيقة فمن ثم فهى لا تتسع لبناء الحصون ، بل تكفى فقط لاقامة القلاع والأبراج •

٣ — كل المنشـآت الحربية الساحلية مبنية بالحجر الصلد وكثيراً ما يكسوها طبقة سميكة من الجص ، وذلك لأن العوامل المناخية تحتاج الى مواد بنائية تستطيع مقاومة البحر وأنوائه •

٤ — يقل استخـدام الساقطات ((Machicoulis)) فى القـلاع والأبراج الساحلية ، وخاصة تلك التى تعلو قمم الجبال ، ذلك أن مهمة الساقطات هى صب المواد الحارقة على العدو عندما يقترب من سـور القلعة ، ولمـا كانت ساحة القتال بالنسـبة للسواحل والموانى هو البحر ، لذلك فان قلاعها ليست فى حاجة الى بناء الساقطات •

٥ — توجد المزاغل فى الطابق العلوى من أبراج السـواحل حتى

تستطيع أن تصيب سفن العدو على مسافات بعيدة • وهذا هو السبب الذى جعل البرتغال تضيف الى قلعة ميرانى سنة ١٦١٠م (أى بعد انشائها بثلاثة وعشرين عاما) برجا بمستوى البحر حتى تمنع القوارب الصغيرة من أن تمر بالقرب من القلعة وهى فى مأمن من أن تصيبها النيران لأنها تحت مستوى مرمى سهامها ومدافعها •

ثانيا : الاستحكامات الداخلية :

١ ـ هى عبارة عن حصون تتوسط المدن أو القرى وتحيط بها الأسوار أو على الطرق والوديان التى يخشى عليها من الاعتداء •

٢ ـ تتكون الحصون من مجموعة من المنشآت الحربية كالأبراج والقلاع ومخازن السلاح وكثيراً ما يضم الحصن مركز الحكم حيث يوجد به قصر للسلطان أو مقر للوالى •

٣ ـ تبنى الحصون الداخلية وخاصة فى المناطق الشديدة الحرارة من الطوب اللبن فهو أكثر ملاءمة للحرارة من الأحجار التى تكون عرضة للتصدع من شدة الحرارة •

٤ ـ تكثر الساقطات فى الأبراج التى تتخلل الأسوار وقلاع الحصون وكذا الفتحات التى توجد خلف عقود المداخل الرئيسية، ذلك لصب المواد الحارقة على العدو الذى يقترب من الأسوار أو الأبراج •

٥ ـ توجد المزاغل لرمى السهام فى الطابق الثانى من أبراج الحصون ذلك أنها تكون عادة مبنية فى سهل أو على ربوة أو تل قليل الارتفاع •

ثالثا : استحكامات محلية : (الدور والأفلاج)

١ ـ لقد كانت دار كل قبيلة فى العصـــور الوسطى أشبه بحصن يحميها من اعتداء القبائل الأخـــرى المنافسة لها ، أو اعتداء اللصـــوص اذا كانت القبيلة ذات ثراء واســـع •

٢ ـ ومن ثم فقد كانت الدار تحتوى على برج أو أكثر للمراقبـــة يحميها اذا ما اعتدى عليها معتدٍ •

٣ ـ توجد بتلك الدور مزاغل لرمى السهام وكذا ساقطات لصب المواد الحارقة اذا ما جد الجـــد •

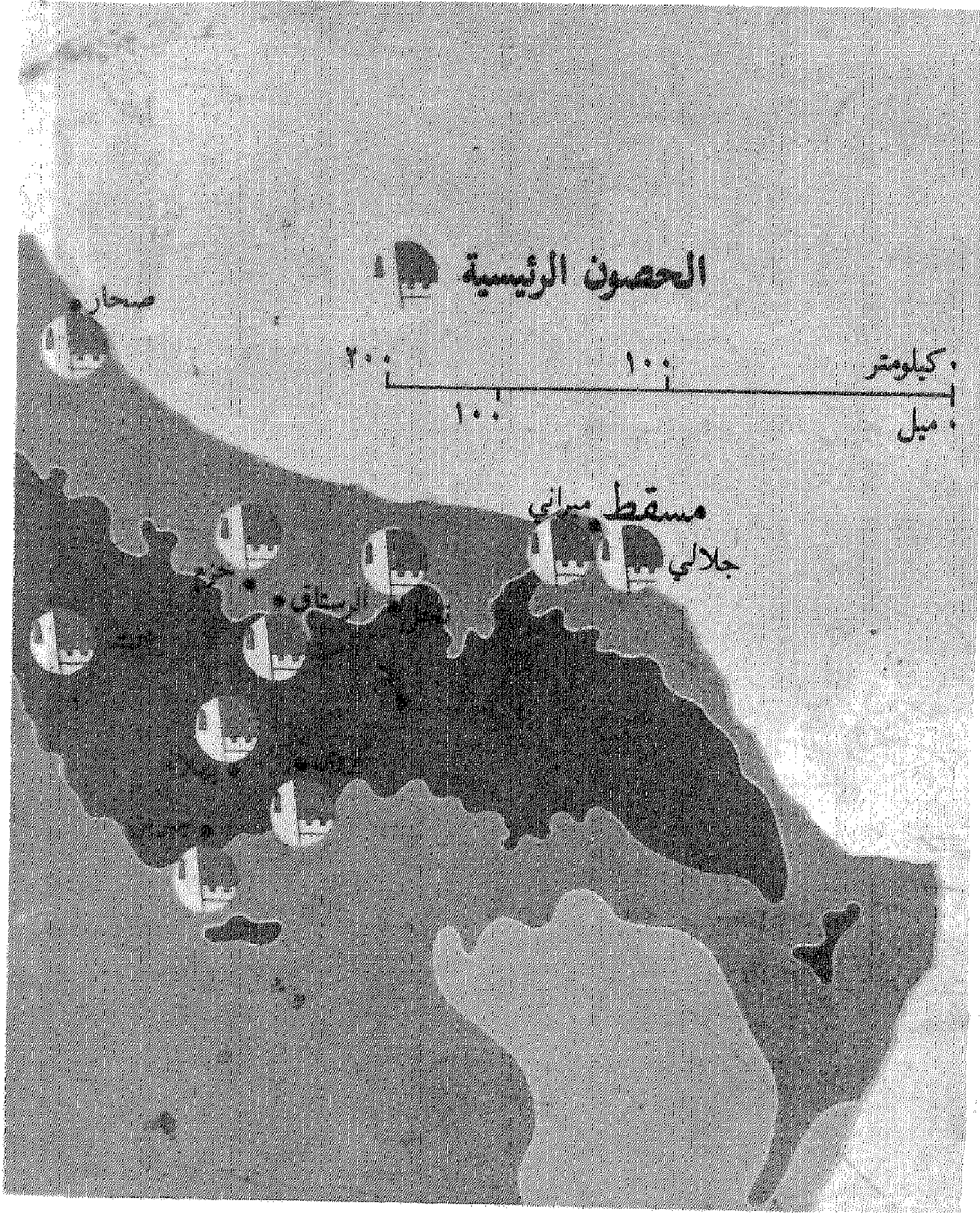
٤ ـ تحتوى الدور على مداخل منكسرة ((Bent-Entrance)) حتى تعوق اندفاع العدو من الدخول الى صحن الدار ، كما أنها تراعى حرمة الدار ، فلا يرى مَنْ بالباب أحدا من الموجودين بصحنه •

٥ ـ تبنى الدور الكبيرة عادة بجانب الأفلاج أو بالقرب منها حتى لا تكون فى حاجة الى تخزين المياه ، كمـــا لا يستطيع العـــدو قطع المياه عنها •

بيـــان بالأشـــكال واللوحـــات

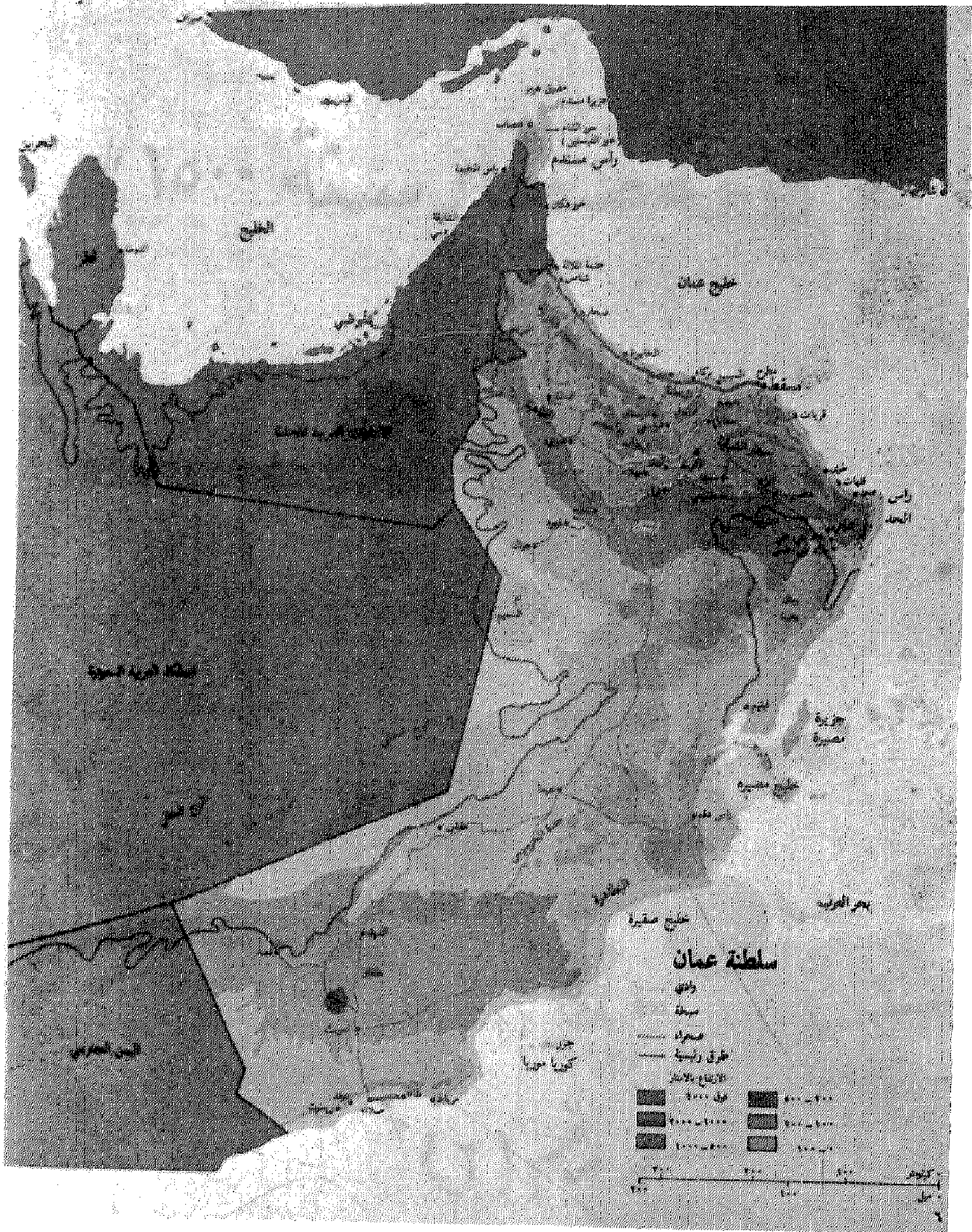
التى ورد ذكرها فى البحث الســـــابق

الأشكال واللوحات رتبت حسب تعليمات الأستاذة مؤلفة البحث



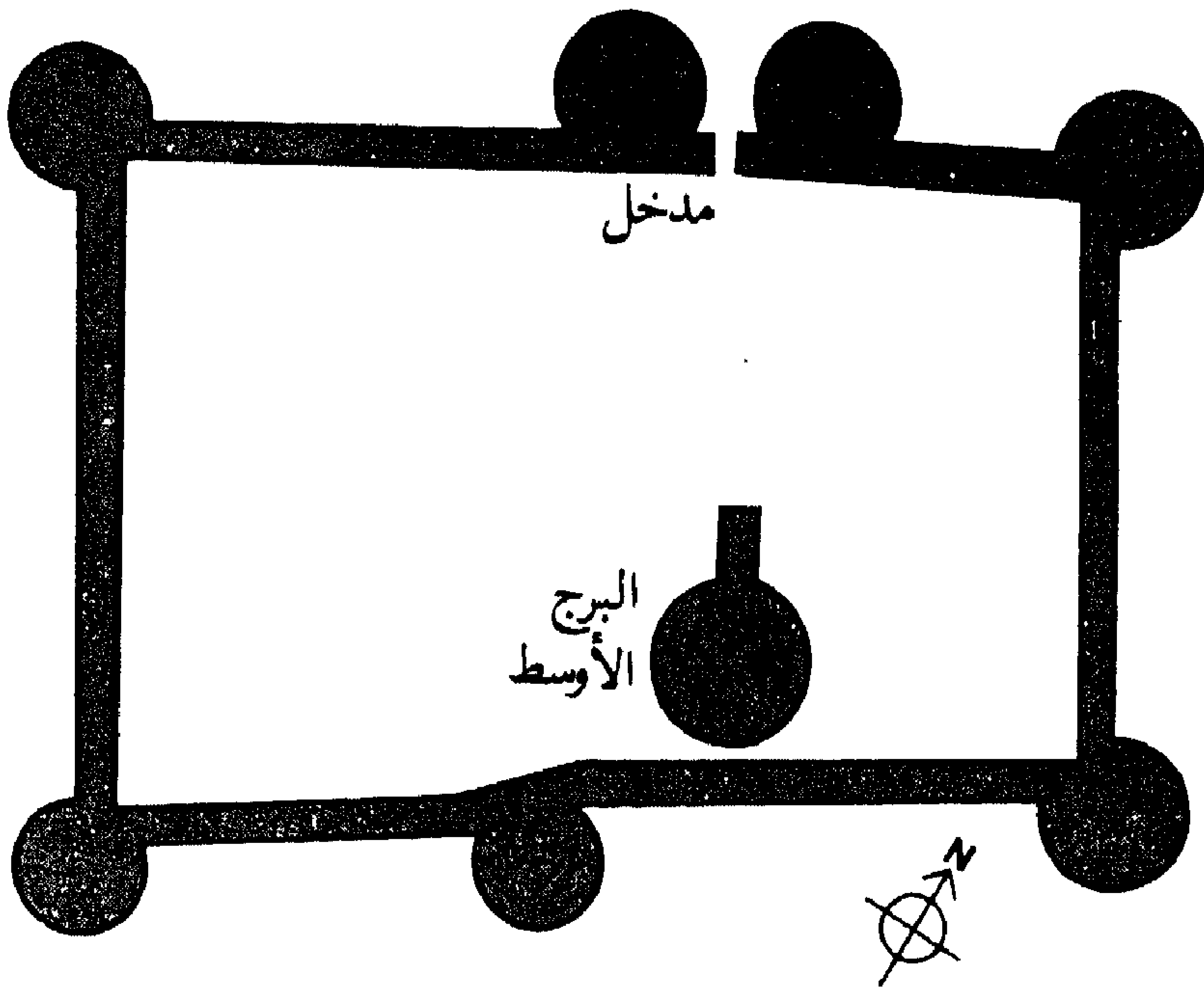
(شــكل رقم ١)

(منطقــة مســقط)

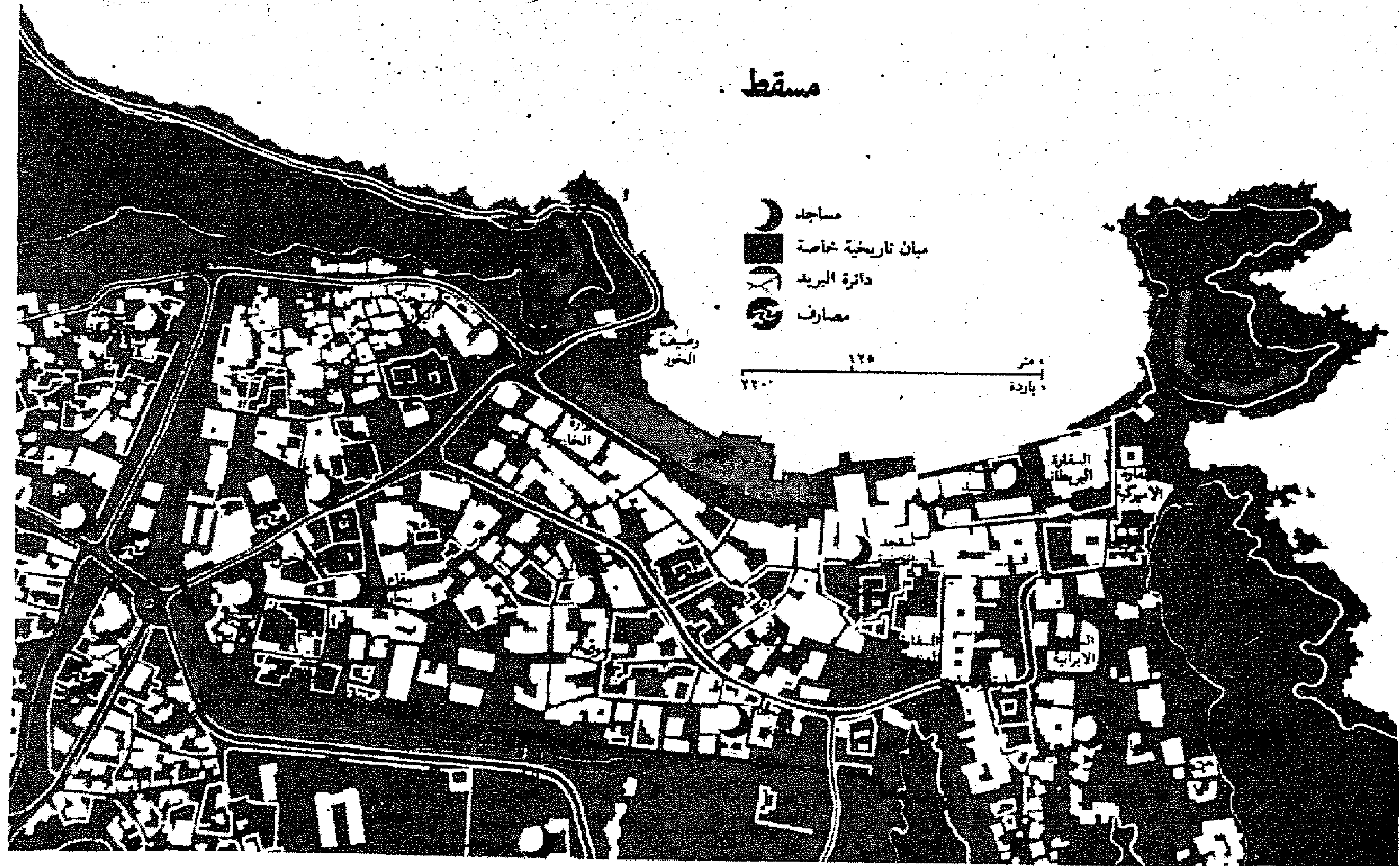


(شــكل رقم ٢)
(ســـلطنة عمـــان)

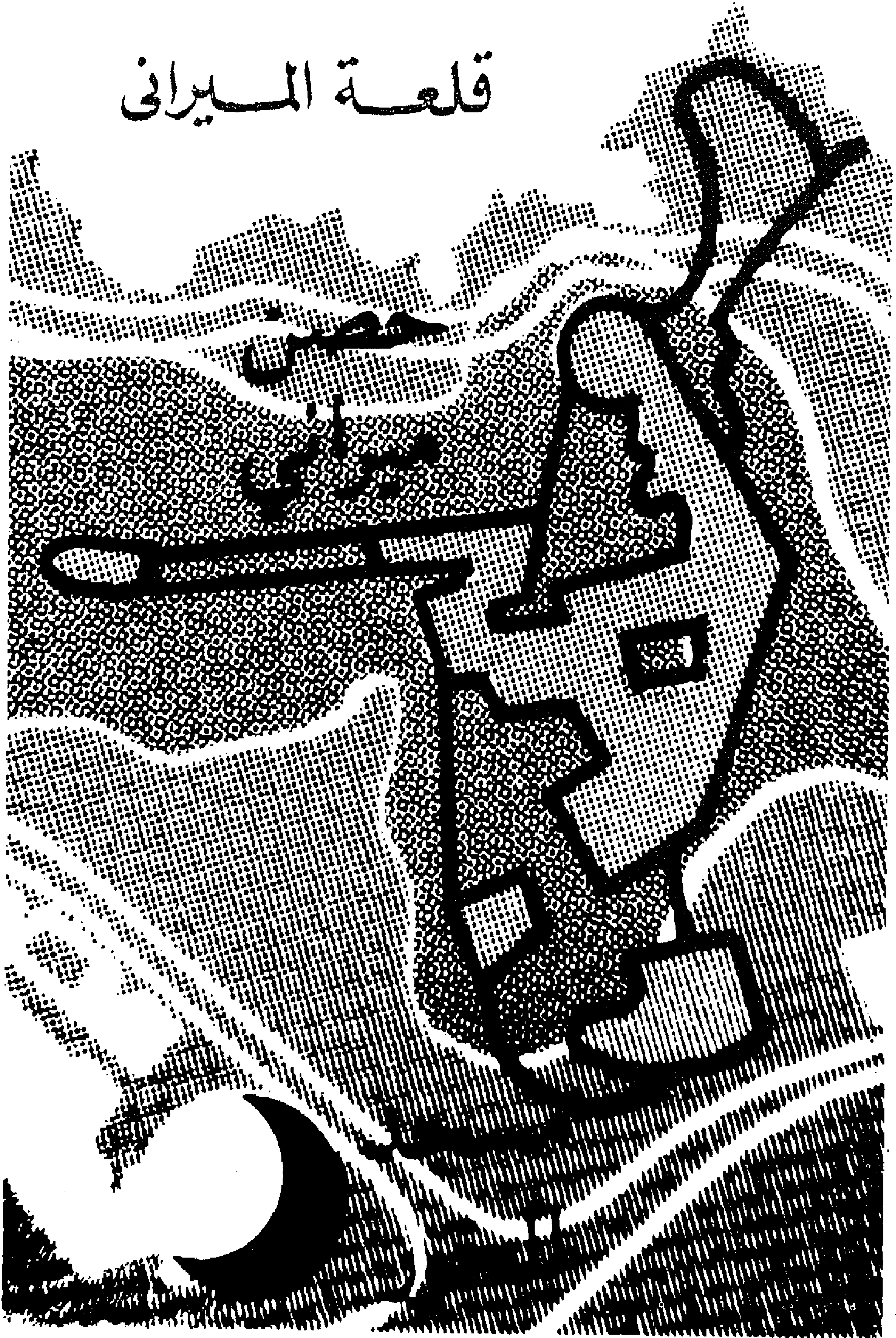
قلعة صحار سنة ١٥٠٠



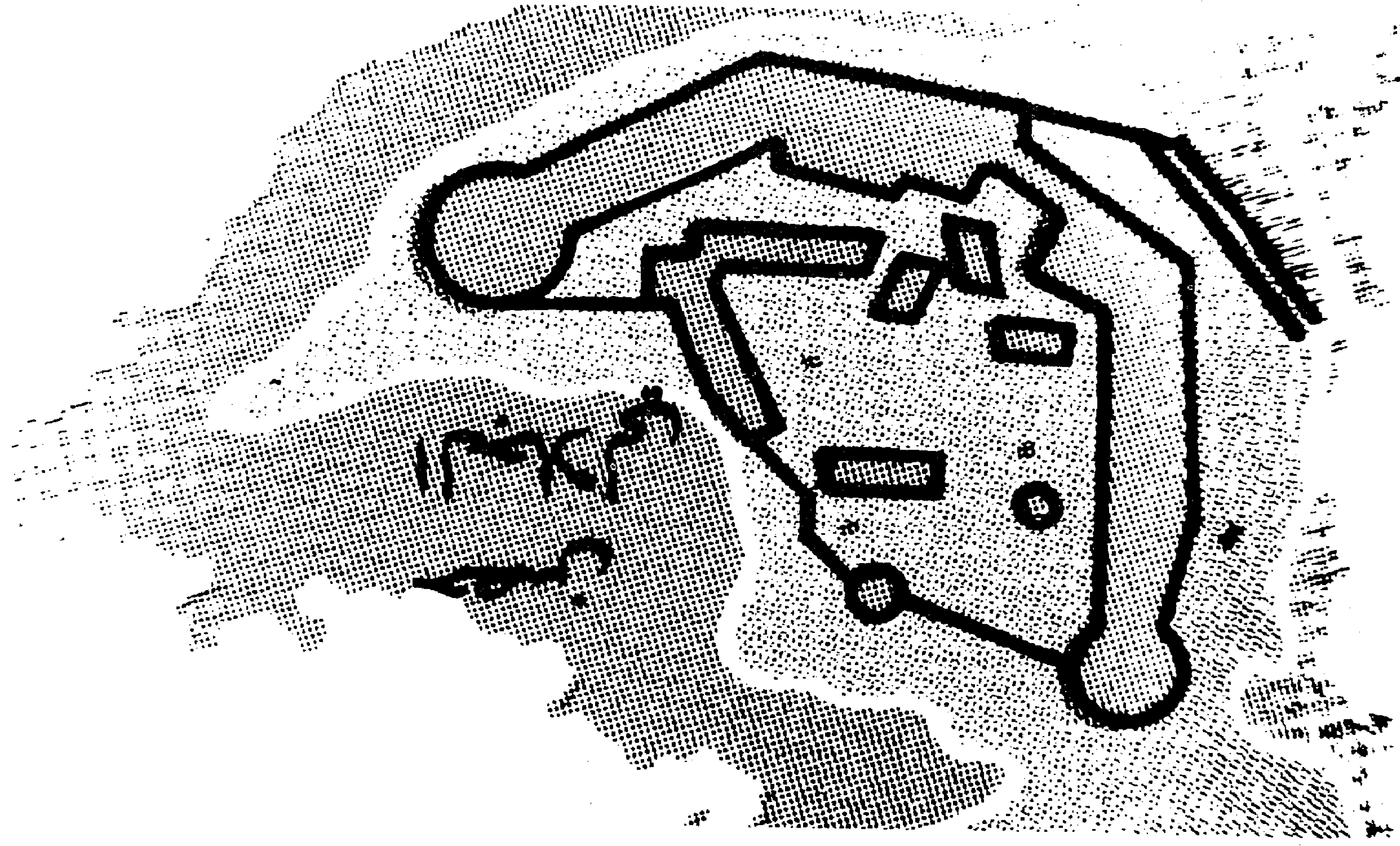
شكل رقم (٢)


القسم الرابع — الوطن
مسقط
مساجد
مبان تاريخية خاصة
دائرة البريد
مصارف
رصيفة الخور
١٢٥
٠ متر
٢٢٠٠
٠ ياردة
السفارة البريطانية
الإيرانية

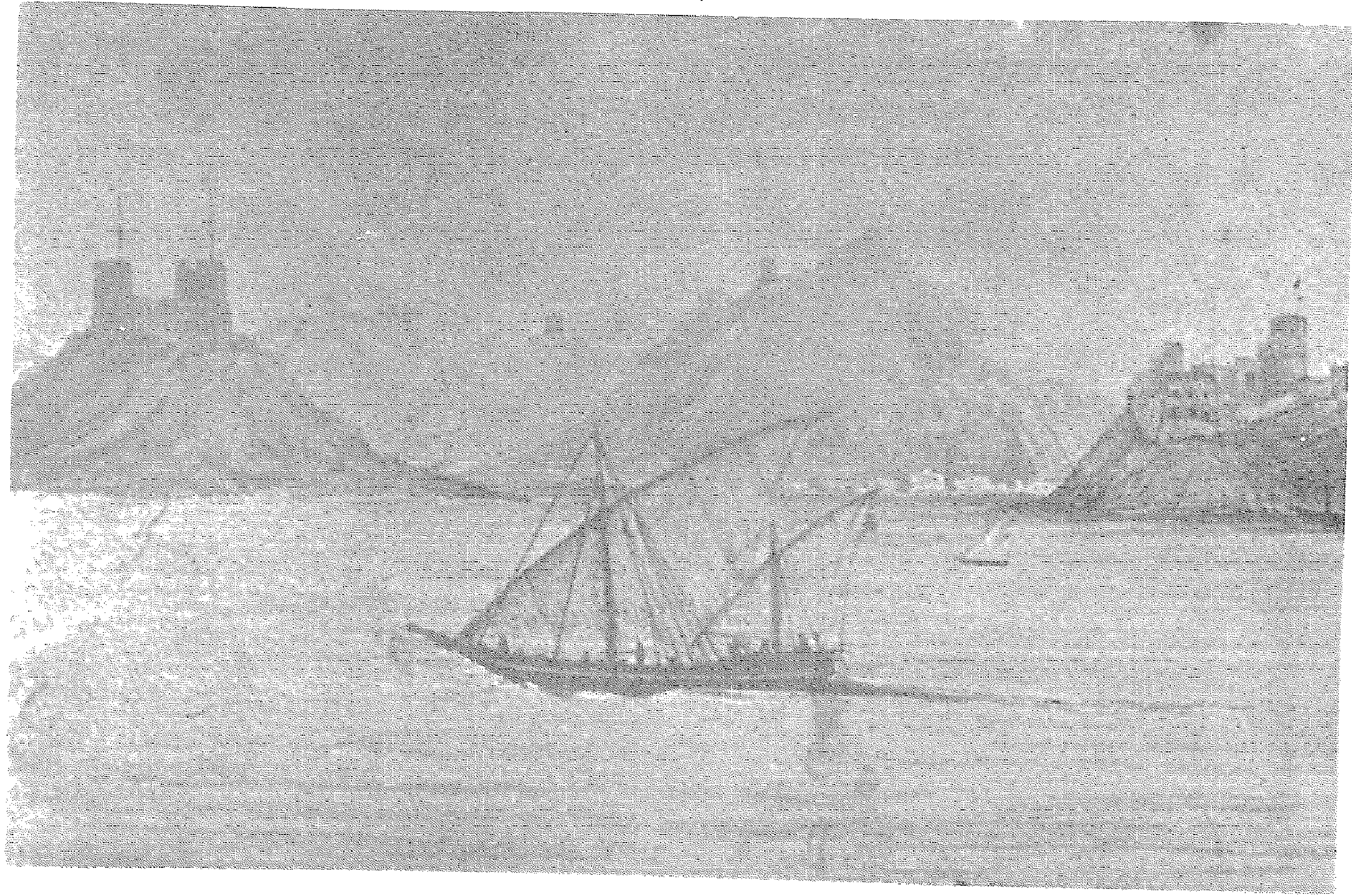
(شـــكل رقم ٤)



(شـــكل رقم ٥)

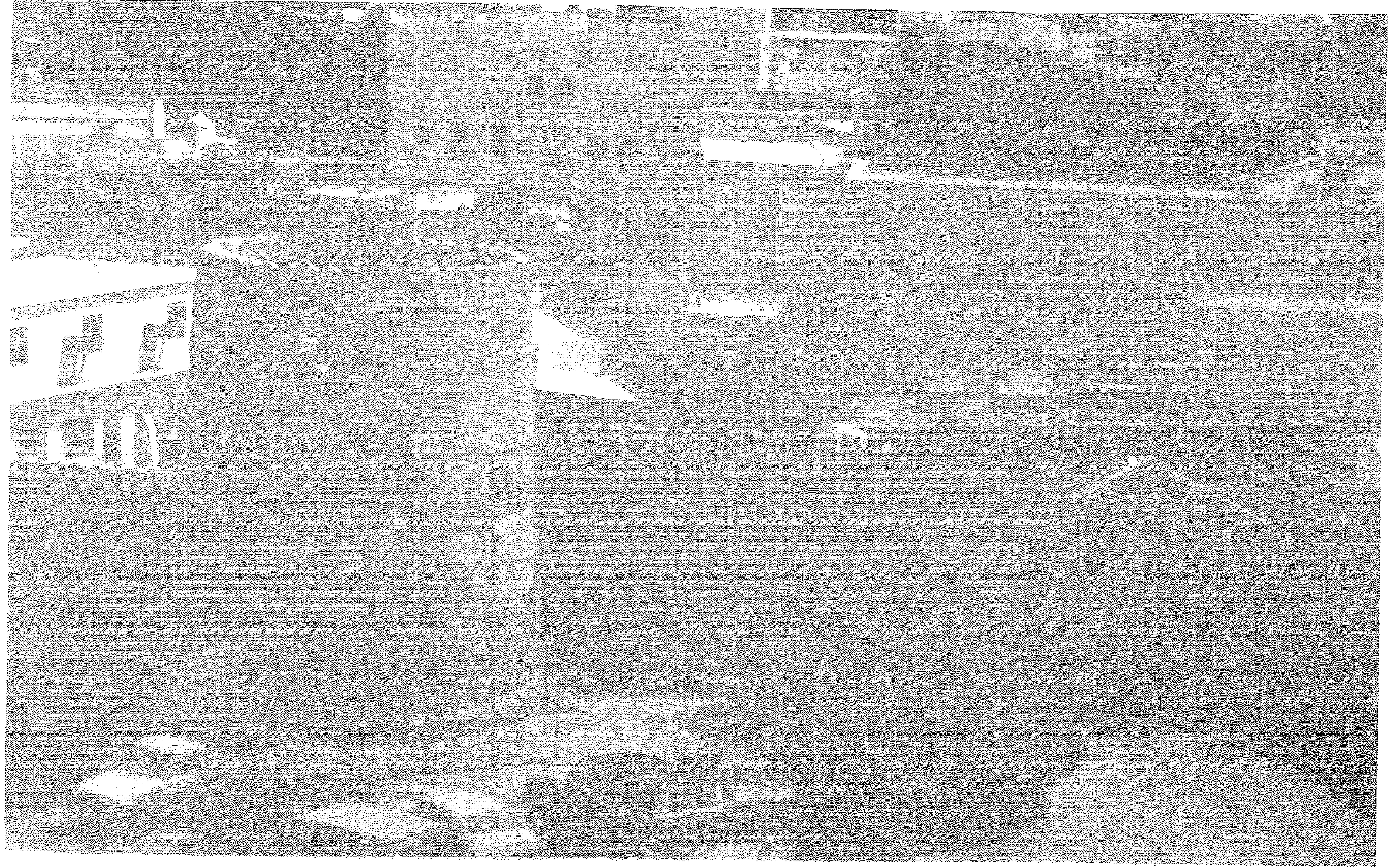


(شكل رقم ٦)



(لوحة رقم ١)

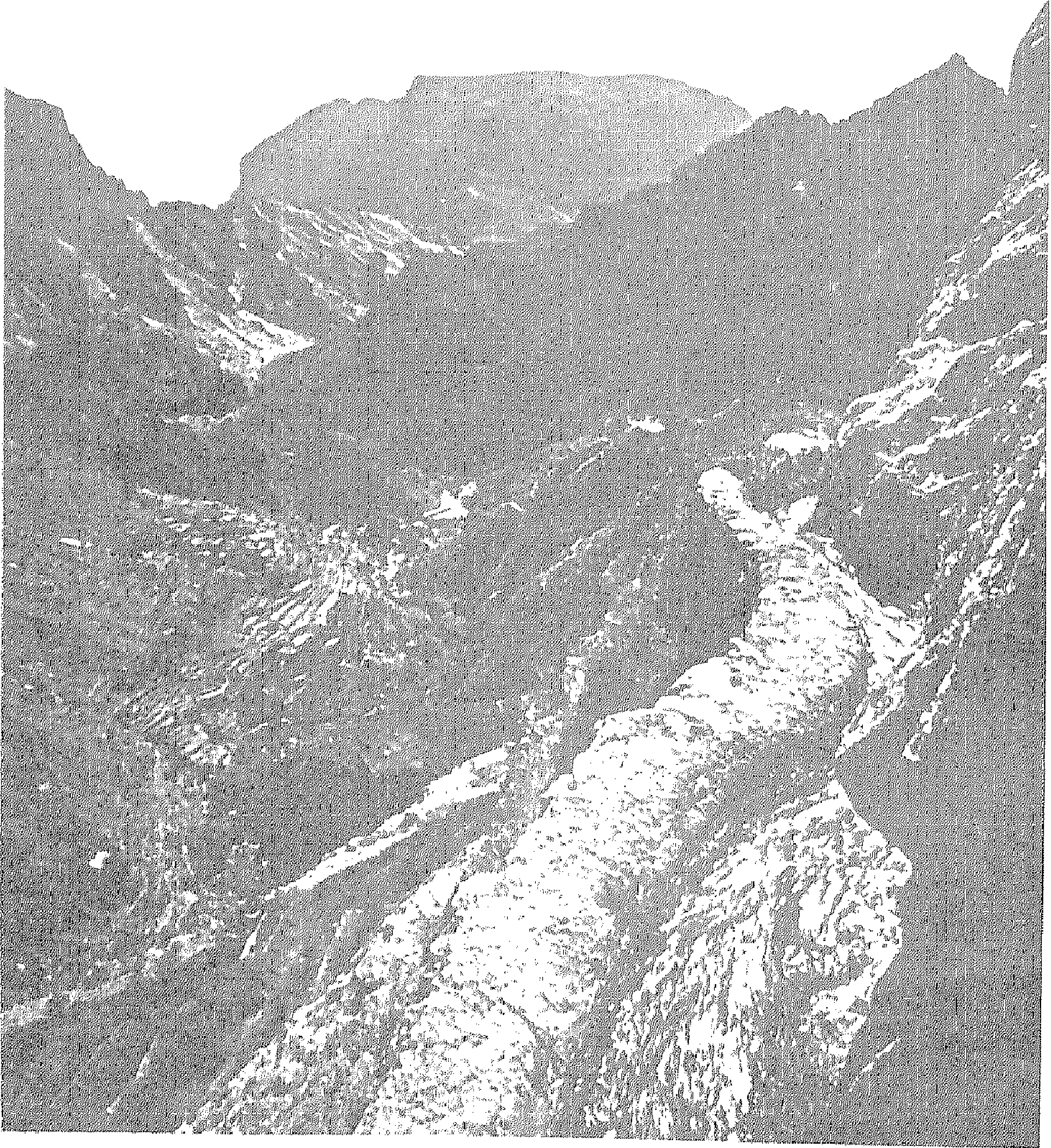
قلعة الميرانى الى الغرب من مسقط وقلعة الجلالى التى تقع الى الشرق . ويرى بينهما الجبال والتلال تعلوها الأبراج



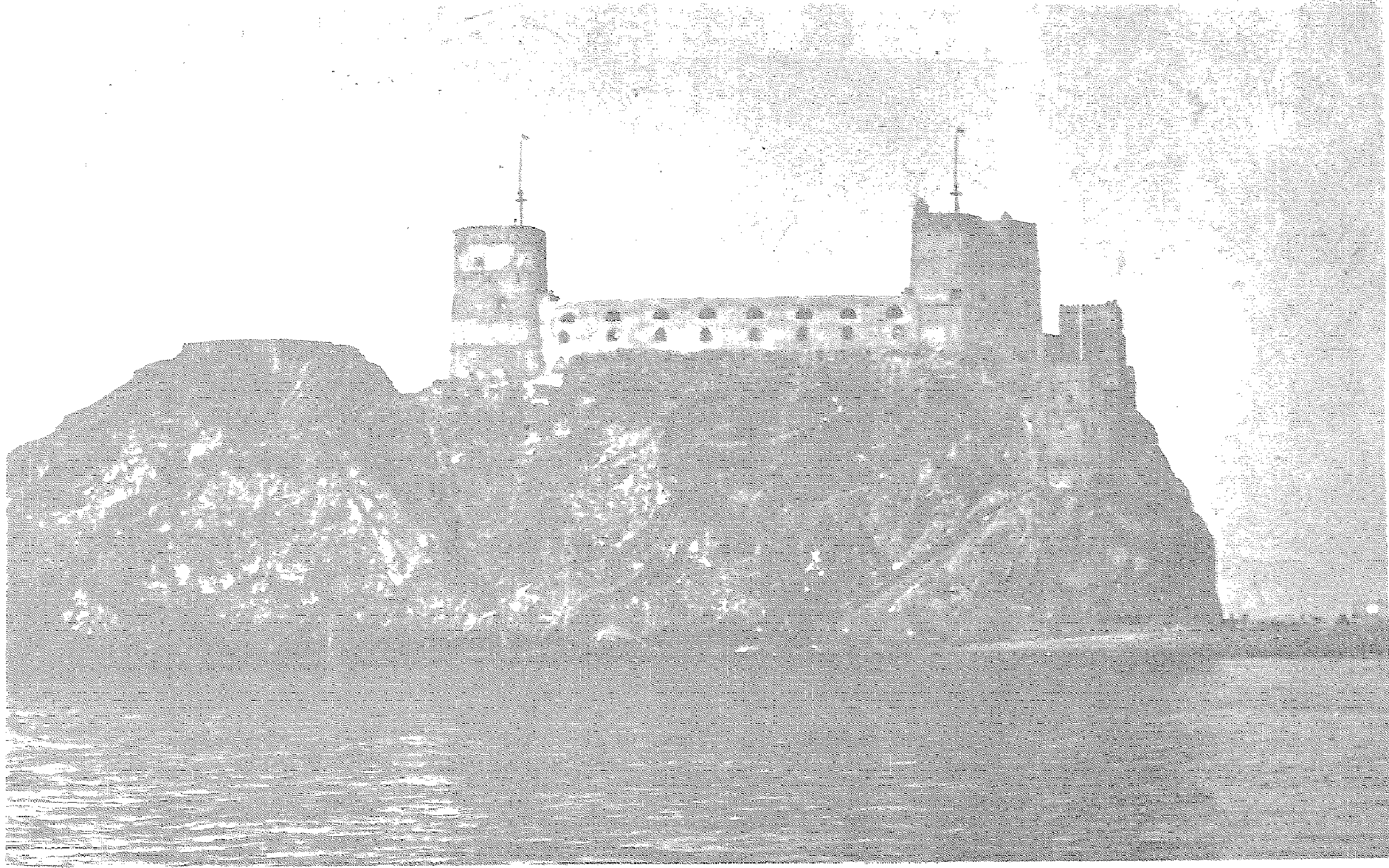
(لوحة رقم ٢)
العاصمة مسقط وقد ظهر بها الأسوار والأبراج والقلاع



(لوحة رقم ٣)
أحد أفلاج غيال



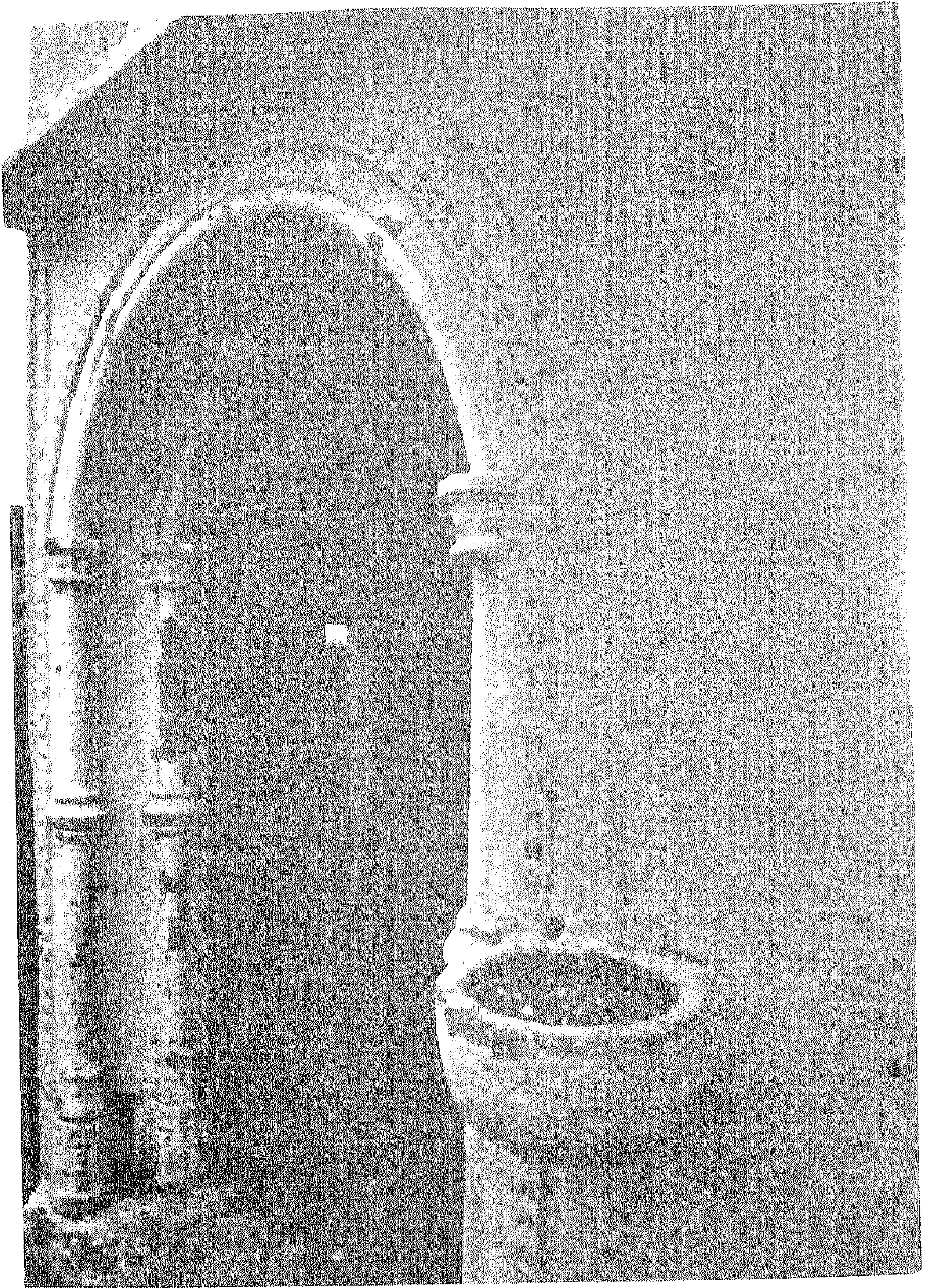
(لوحـــة رقم ٤)
أحــد أفلاج الكوانت (Quant) وهى التى تتخذ مجــراها
فى اقبـــاء تسير تحت الأرض



(لوحة رقم ٥)
قلعة الجلالى



(لوحـــة رقم ٦)
بيت جريزا (grazia)



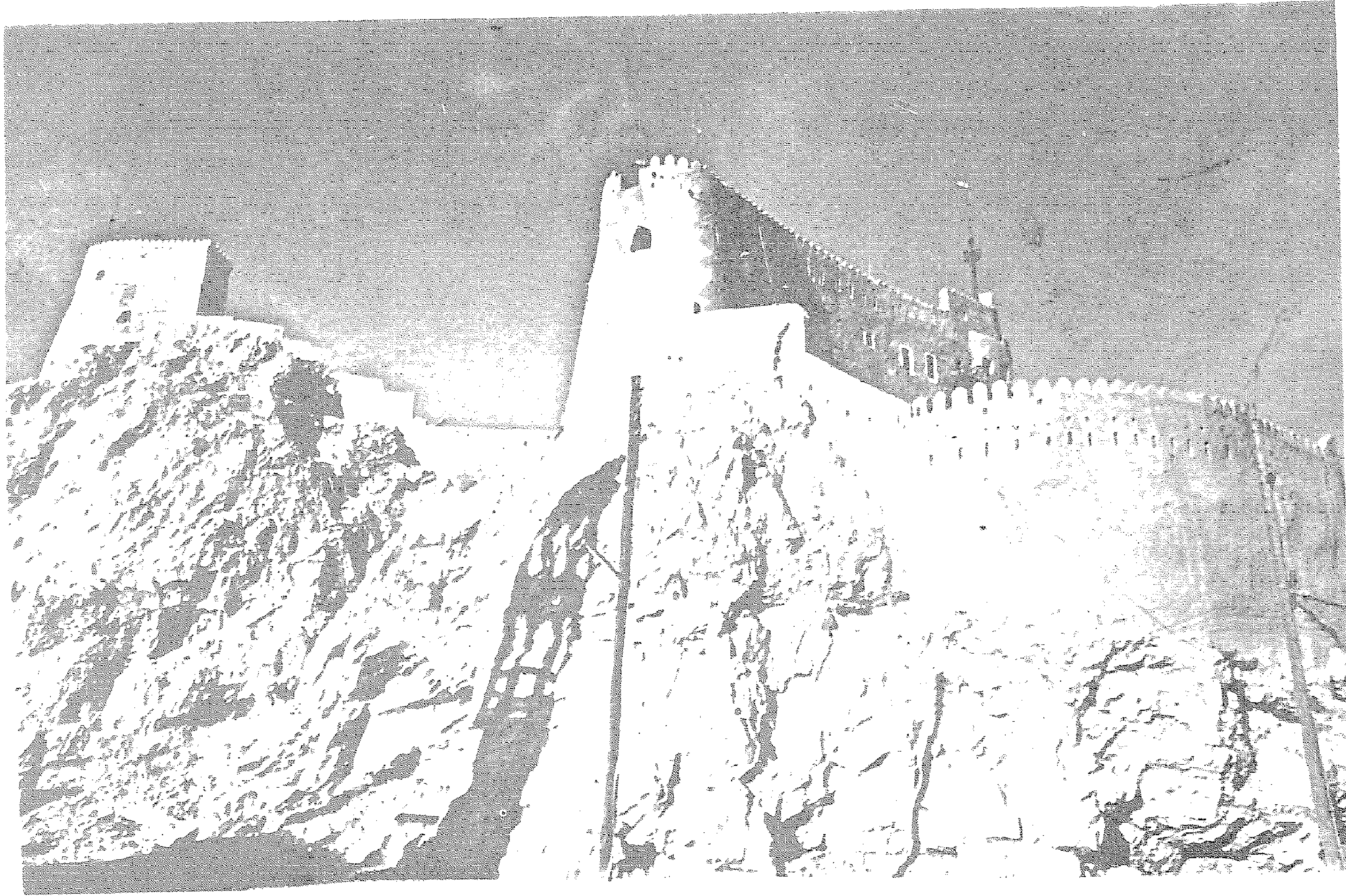
(لوحـــة رقم ٧)

بيت جريزا وقد احتفظ بالكأس المملوءة بالميـــاه المقدسة

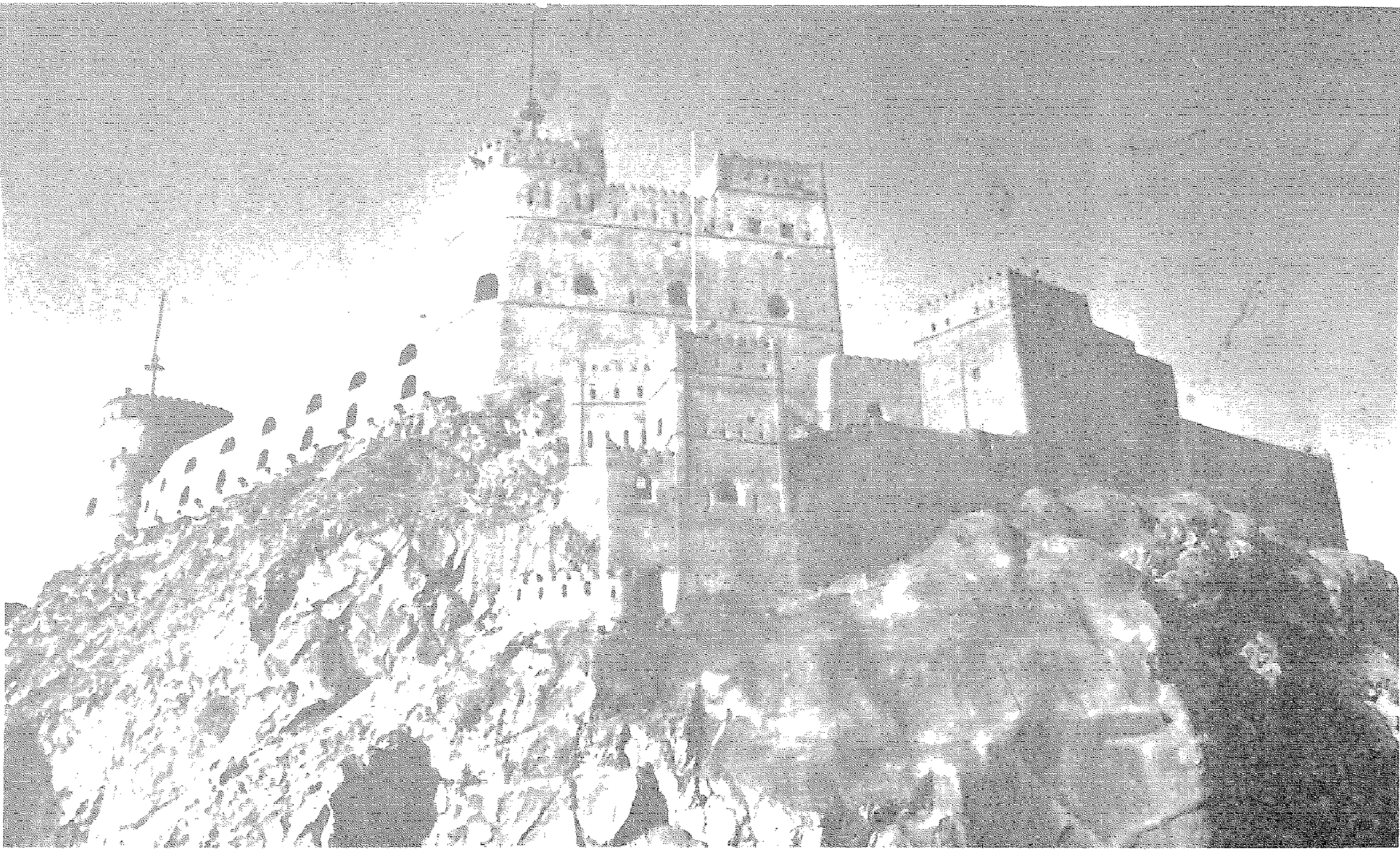




(لوحـــة رقم ٨)
الشارات التى وجـدت على احـــد مواقع البرتغـــال
وقد نقش عليها تاريخ استيلاء عمان على قلعة الميرانى
(١٦٤٩م / ١٠٥٩هـ)



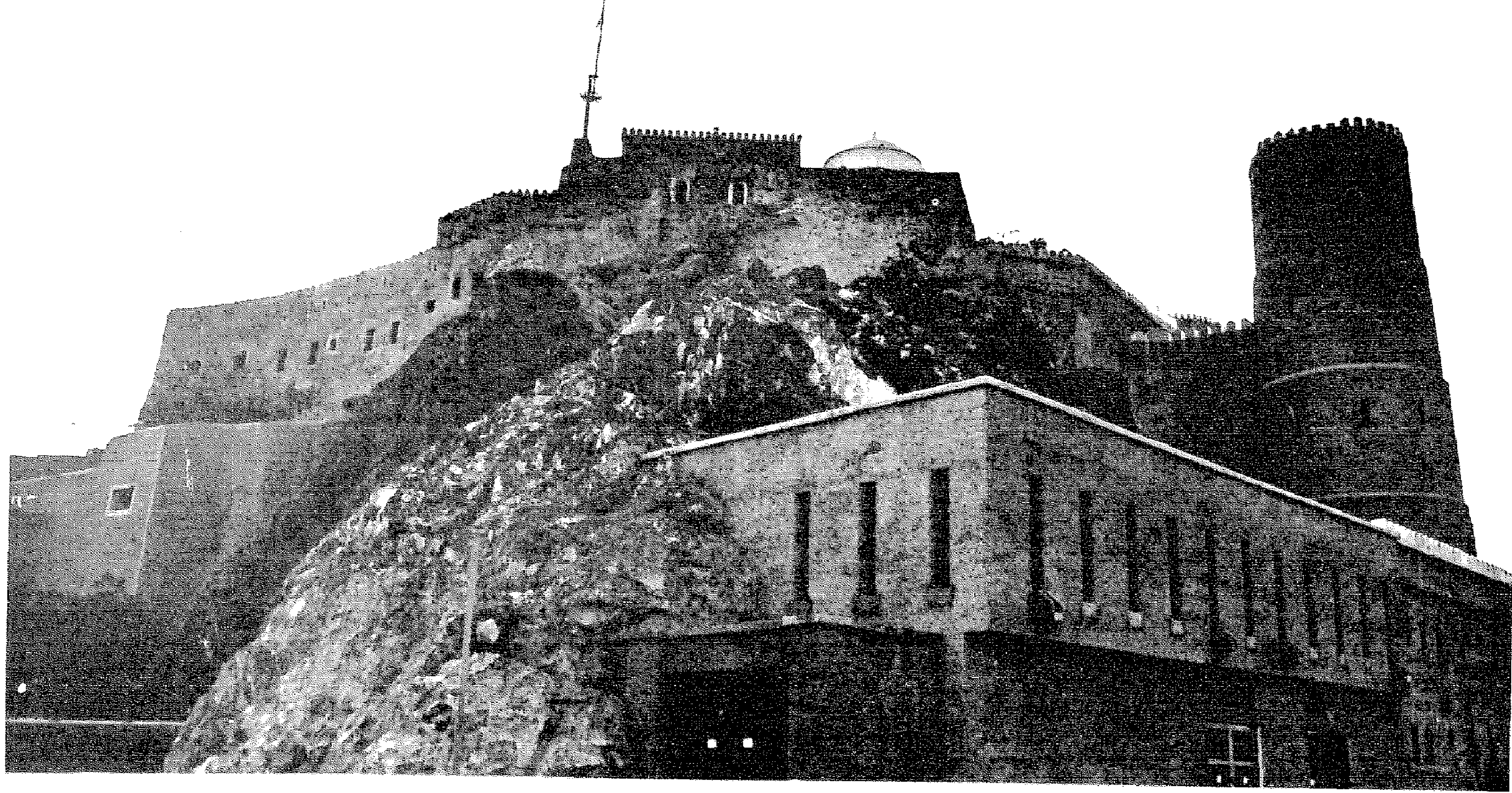
(لوحـــة رقم ٩)
قلعة الميرانى بمســـقط



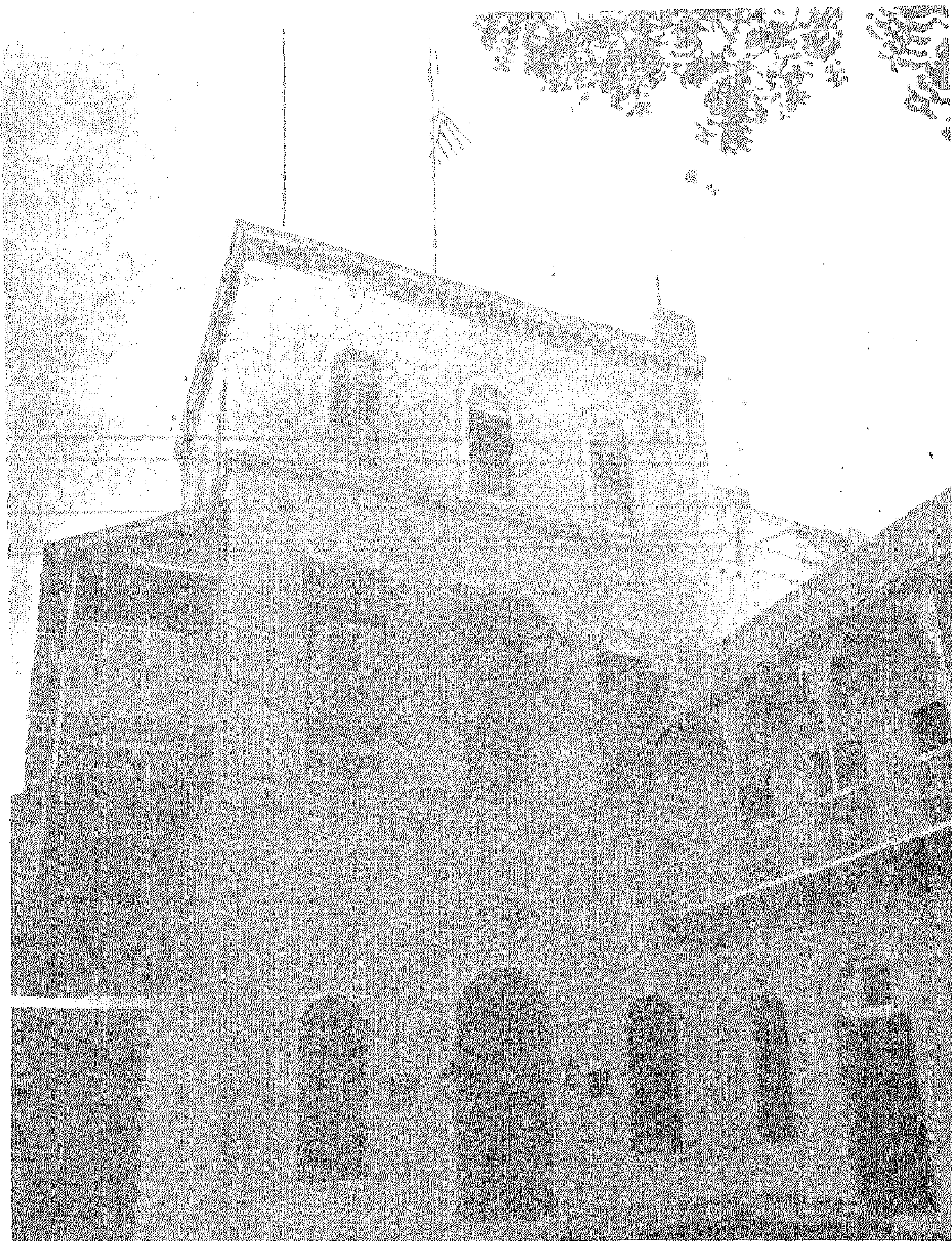
(لوحـــة رقم ١٠)
برجان من أبراج قلعة الجلالى بمسقط



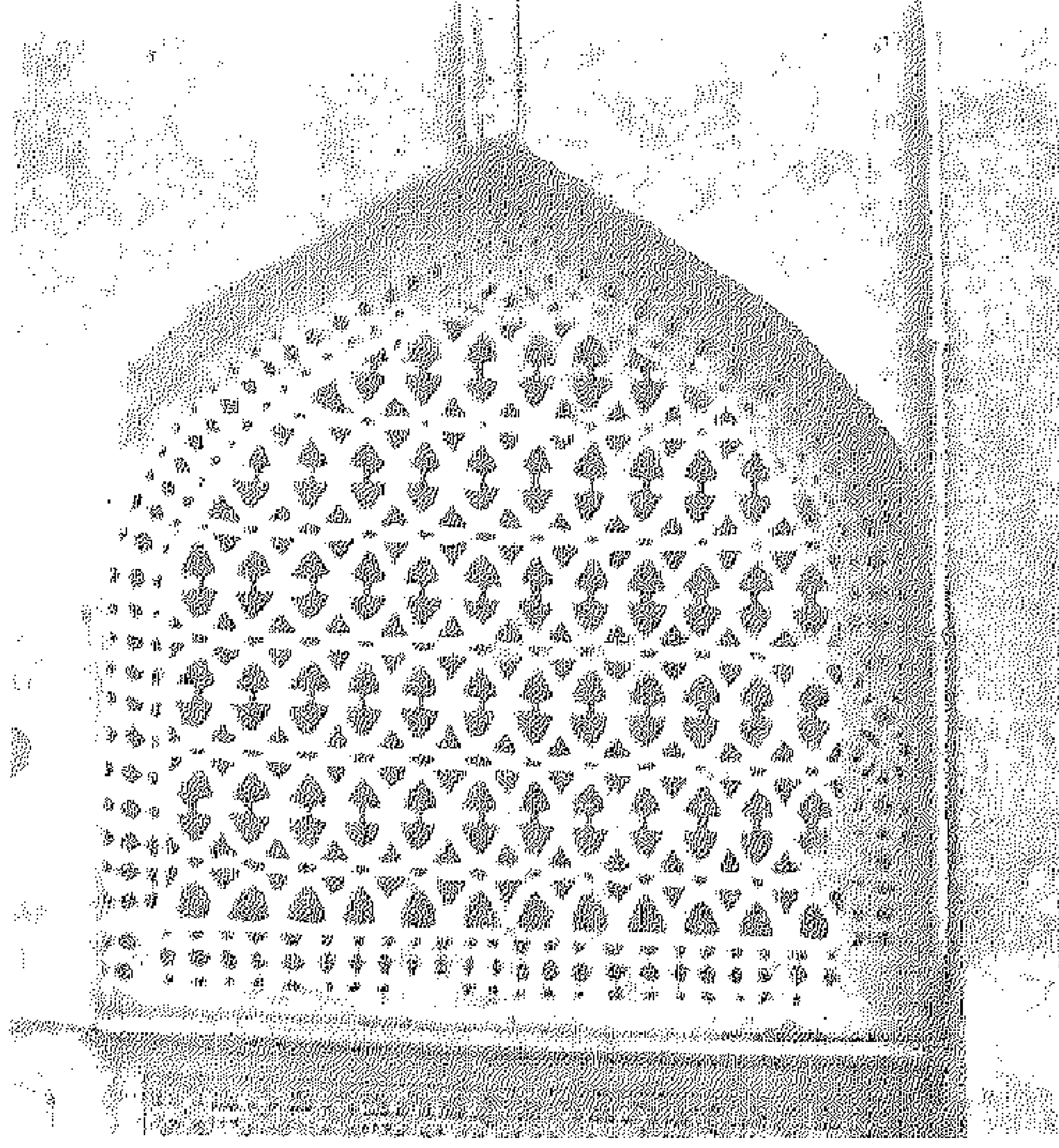
(لوحة رقم ١١)
بعض بيوت مسقط الأثرية وقد توسطها
فناء كما يعلوها شرفات كبيرة يمكن استخدامها
فى وضع فوهات المدافع

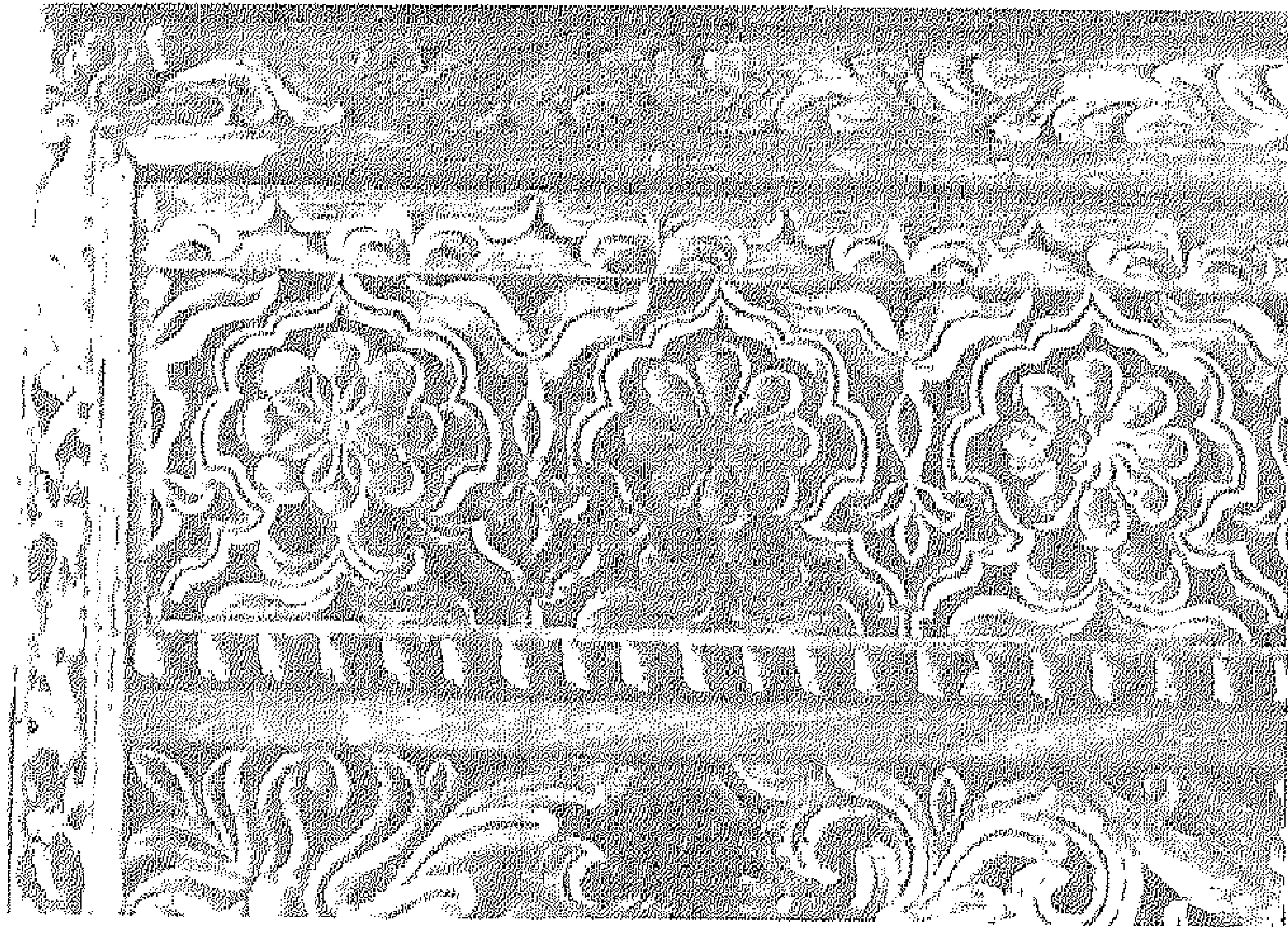


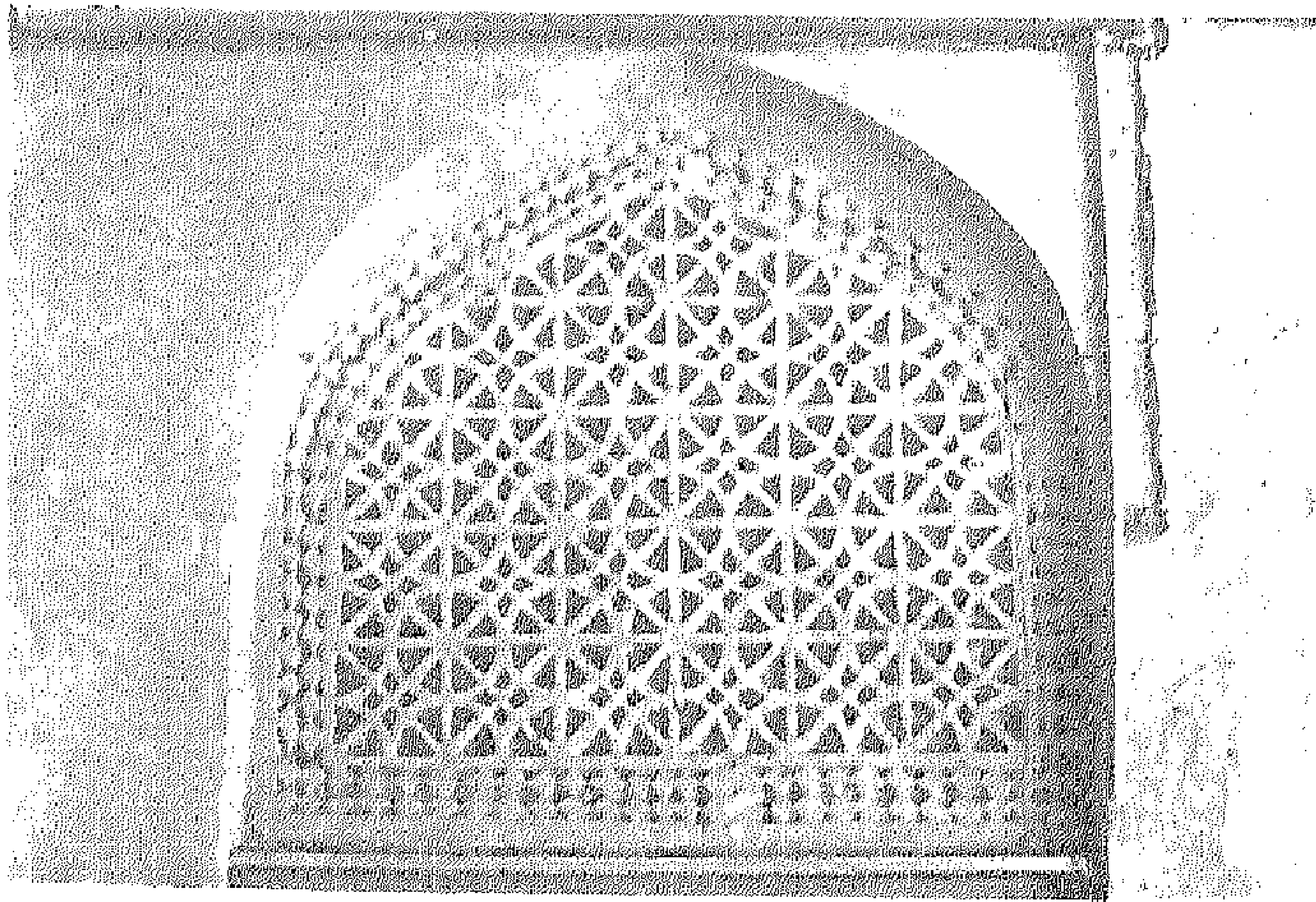
(لوحـــة رقم ١٢)
أحد بيوت مسقط الأثرية المتاخمة لقلعة الميرانى



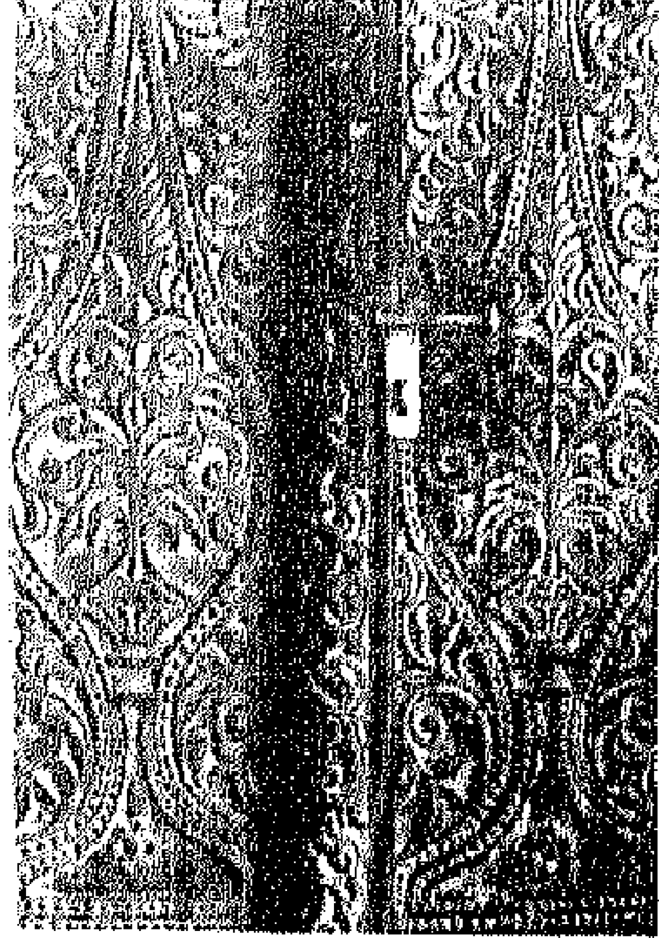
(لوحـــة رقم ١٣)
بيت الزواوى بمســـــقط





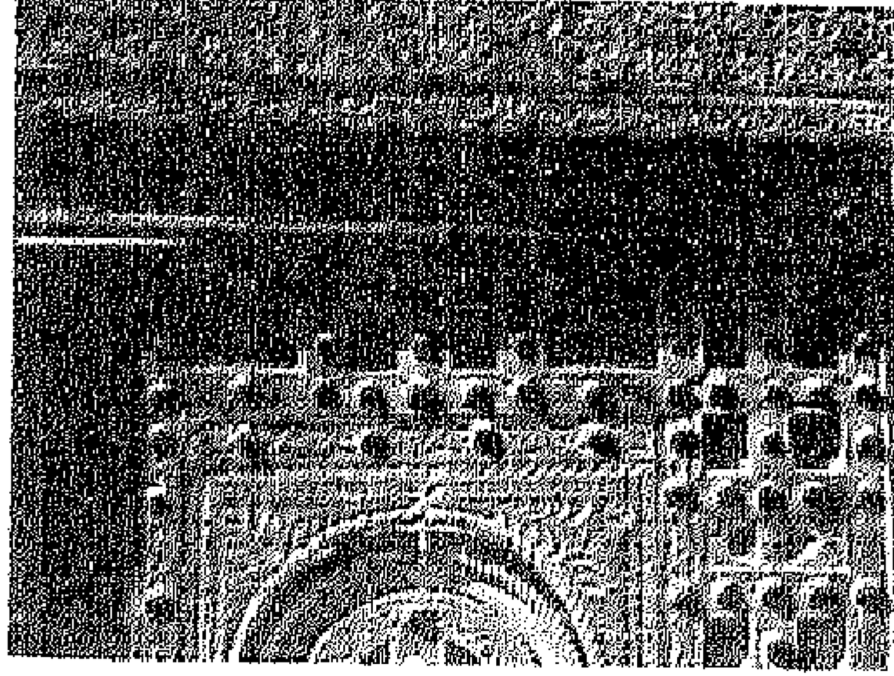


(لوحـــة رقم ١٤)
النوافذ المزخرفة بالجص المخرم والخشب المحفور

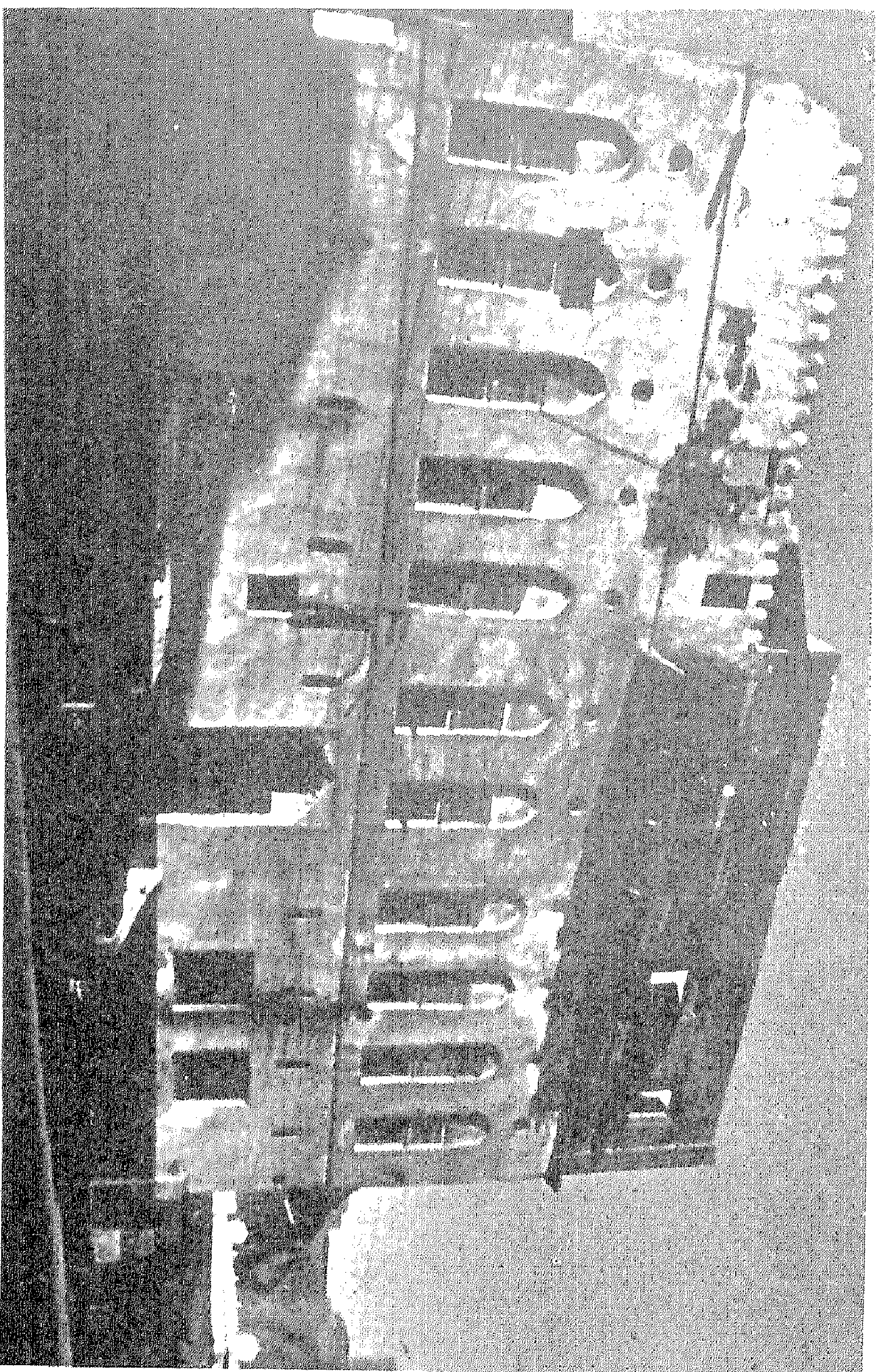








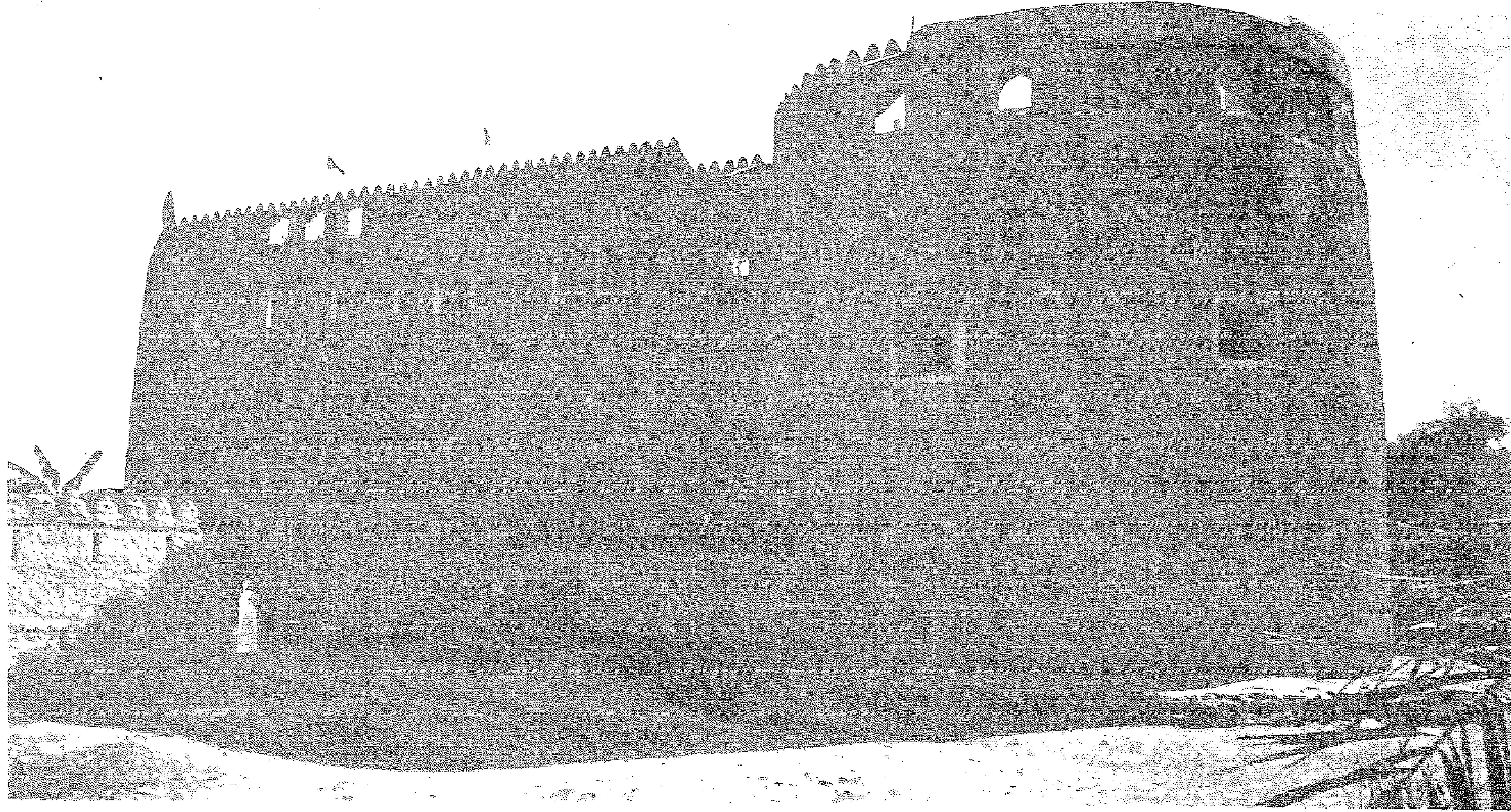
(لوحـــة رقم ١٥)
السقوف والأبواب الخشبية المزخرفة بطريقة الحفر



(لوحة رقم ١٦)
أحد منازل مسقط الأثرية



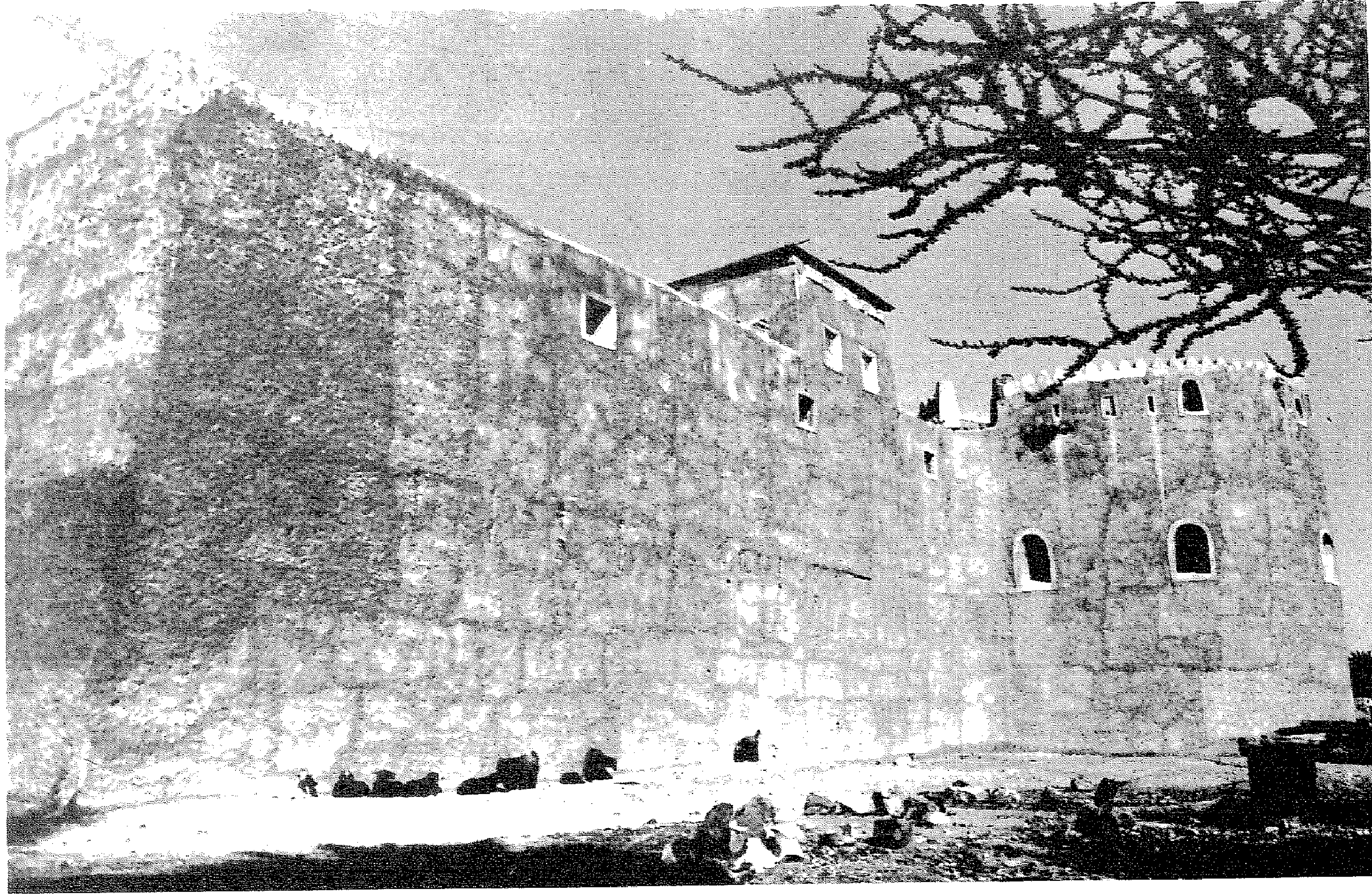
(لوحة رقم ١٧)
مدينة مطرح القديمة وقلعتها



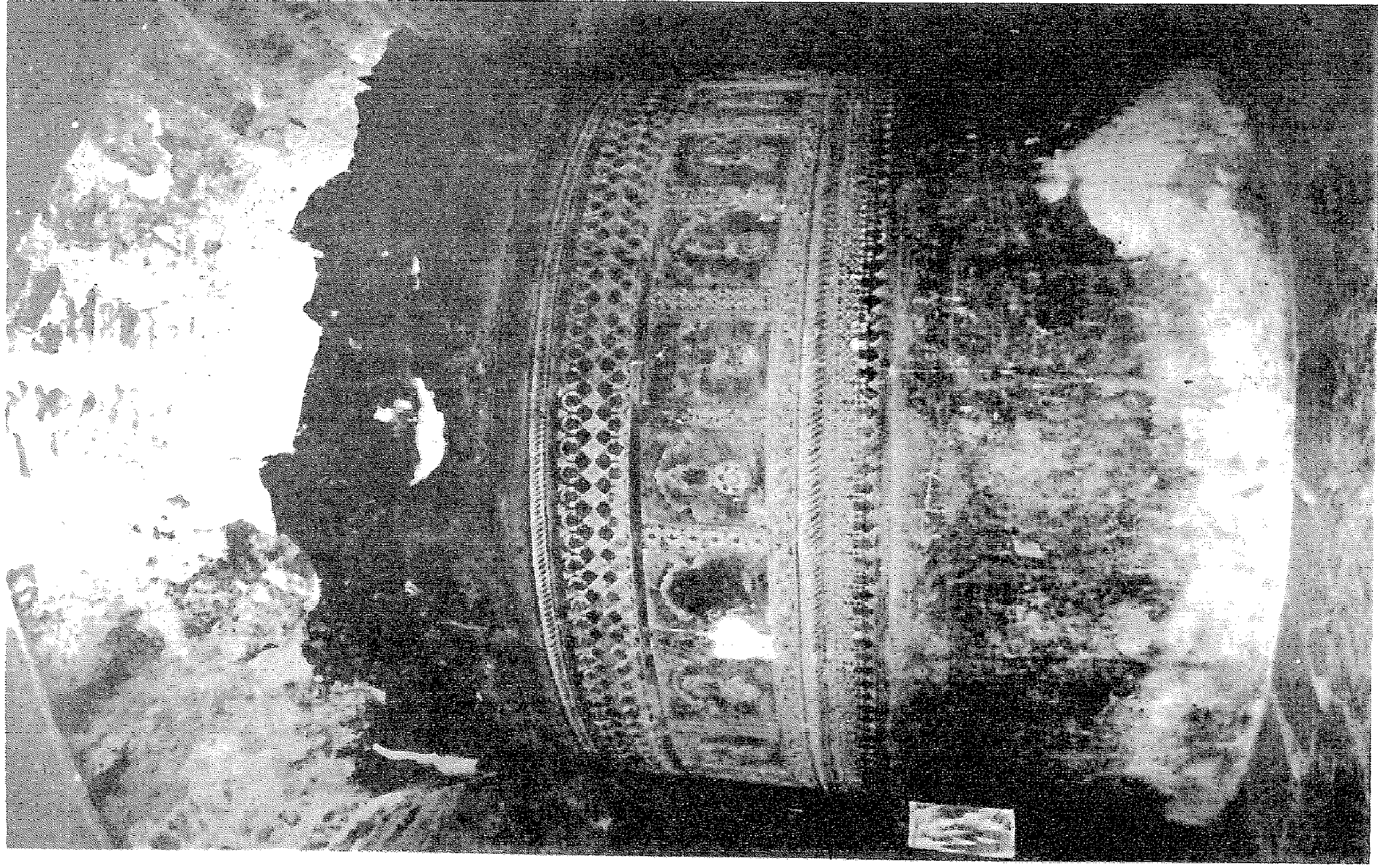
(لوحـــة رقم ١٨)

قلعـــة الحـــزم

التى شيدها سلطان بن سيف اليعربى فى مطلع القرن الثامن عشر



(لوحة رقم ١٩)
برج مربع بقلعة الحزم



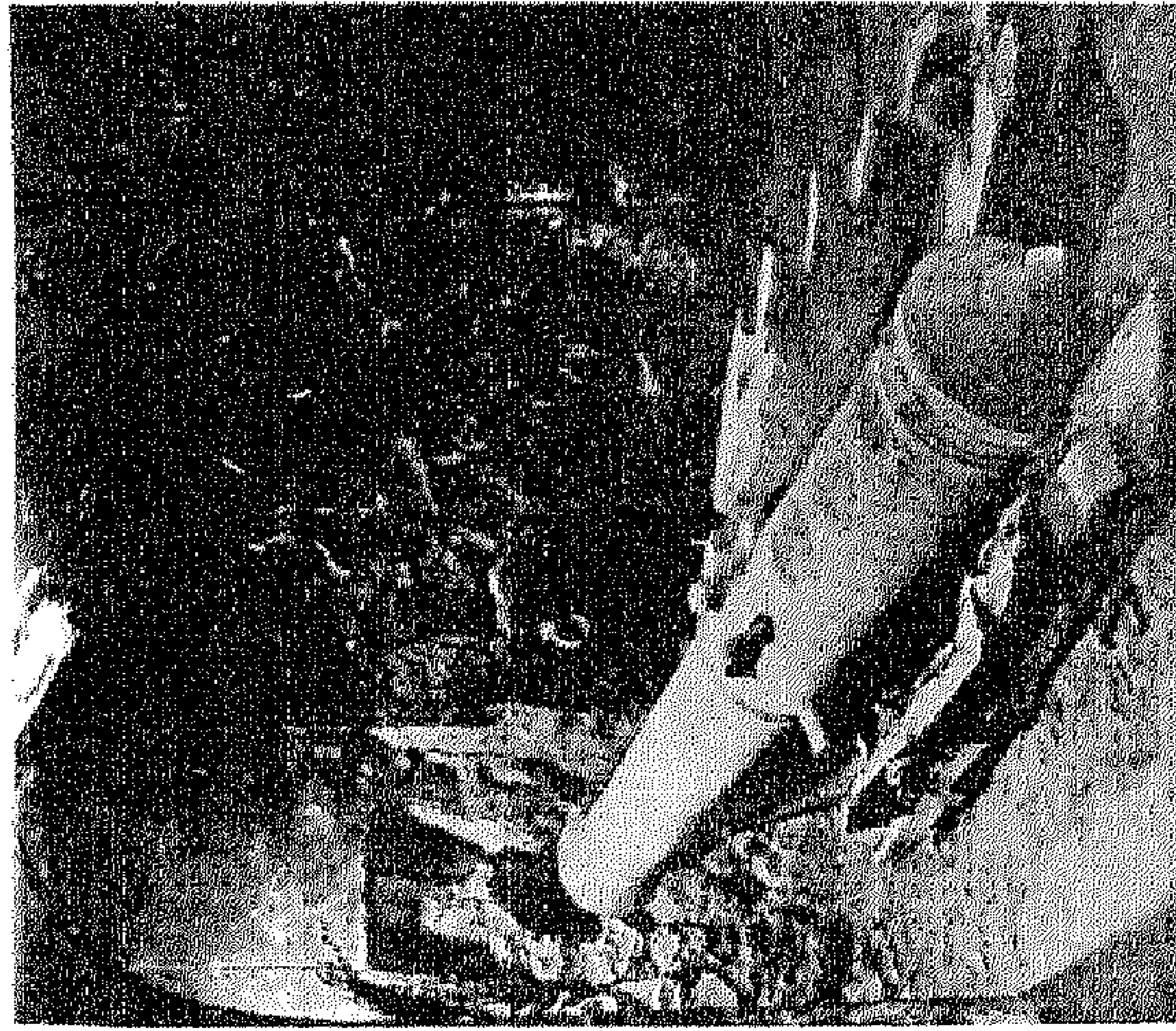
(لوحة رقم ٢٠)
الزخارف الجصية التى تزخرف
أبراج قلعة الحزم



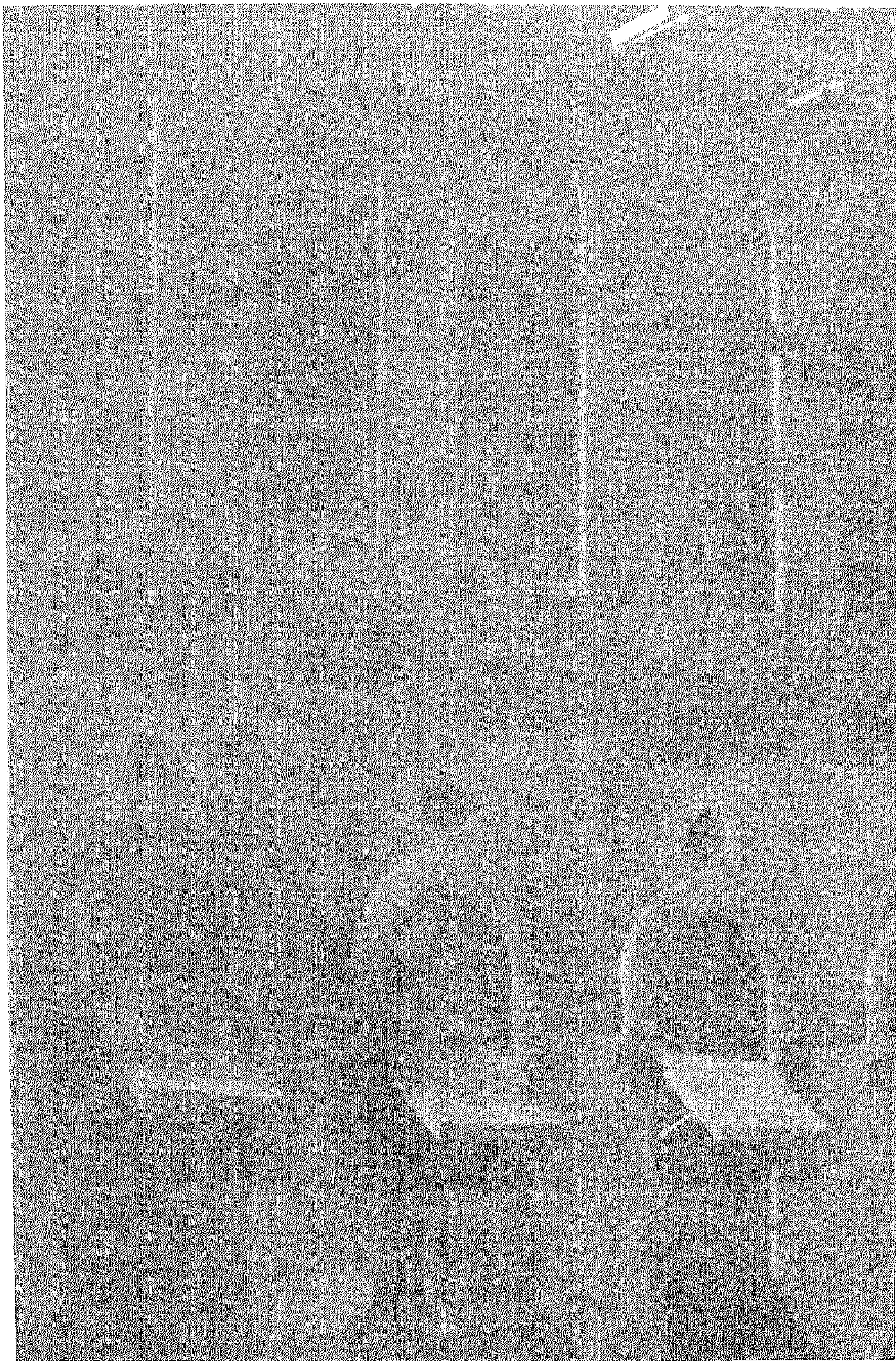
(لوحـــة رقم ٢١)
المدخل الرئيسى لقلـعة الحزم



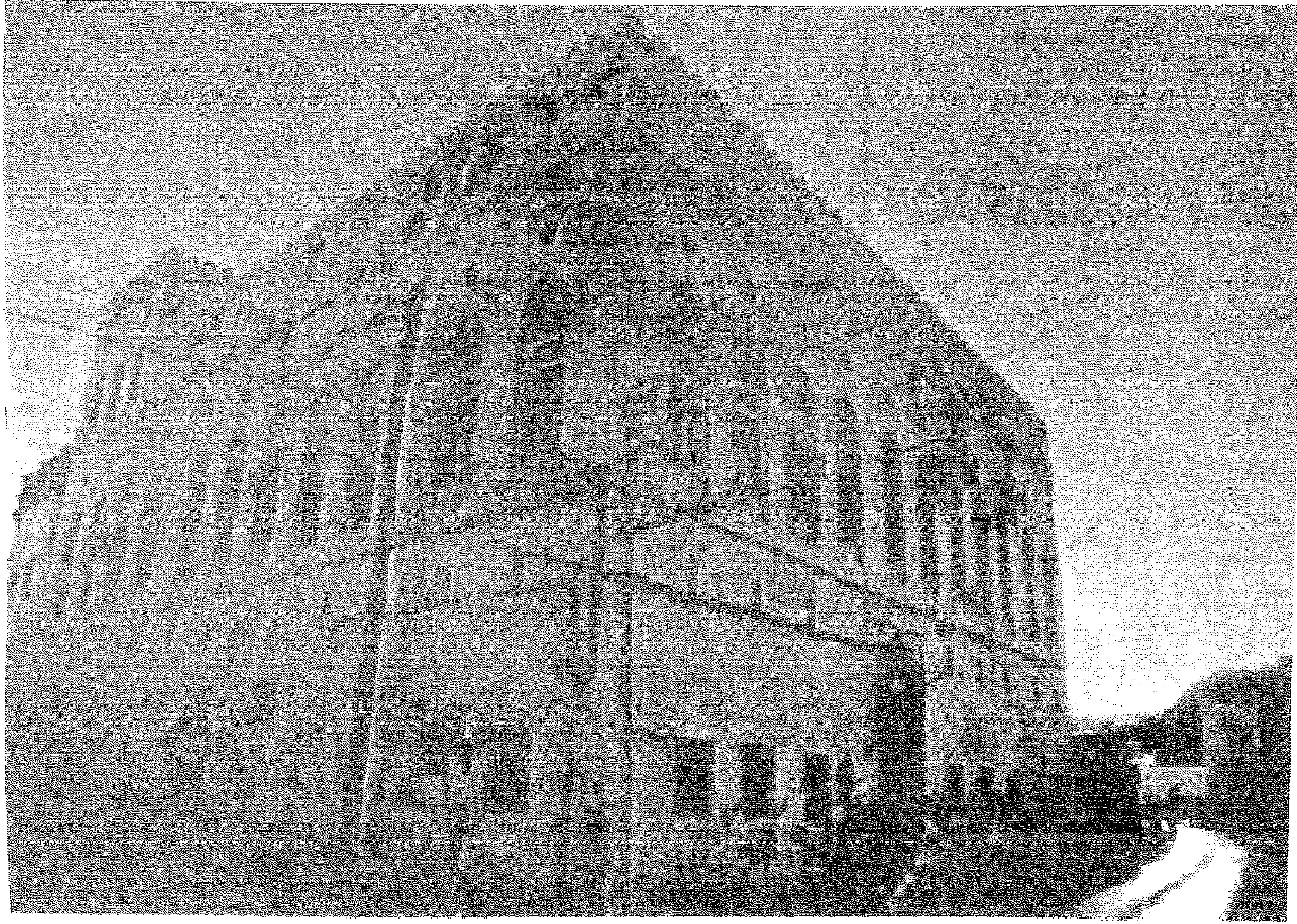
كتابة باللغة البرتغالية على أحد المدافع الموجودة بقلعة الحزم



(لوحـــة رقم ٢٢)
(مدفع برتغالى بقلعة الحزم)



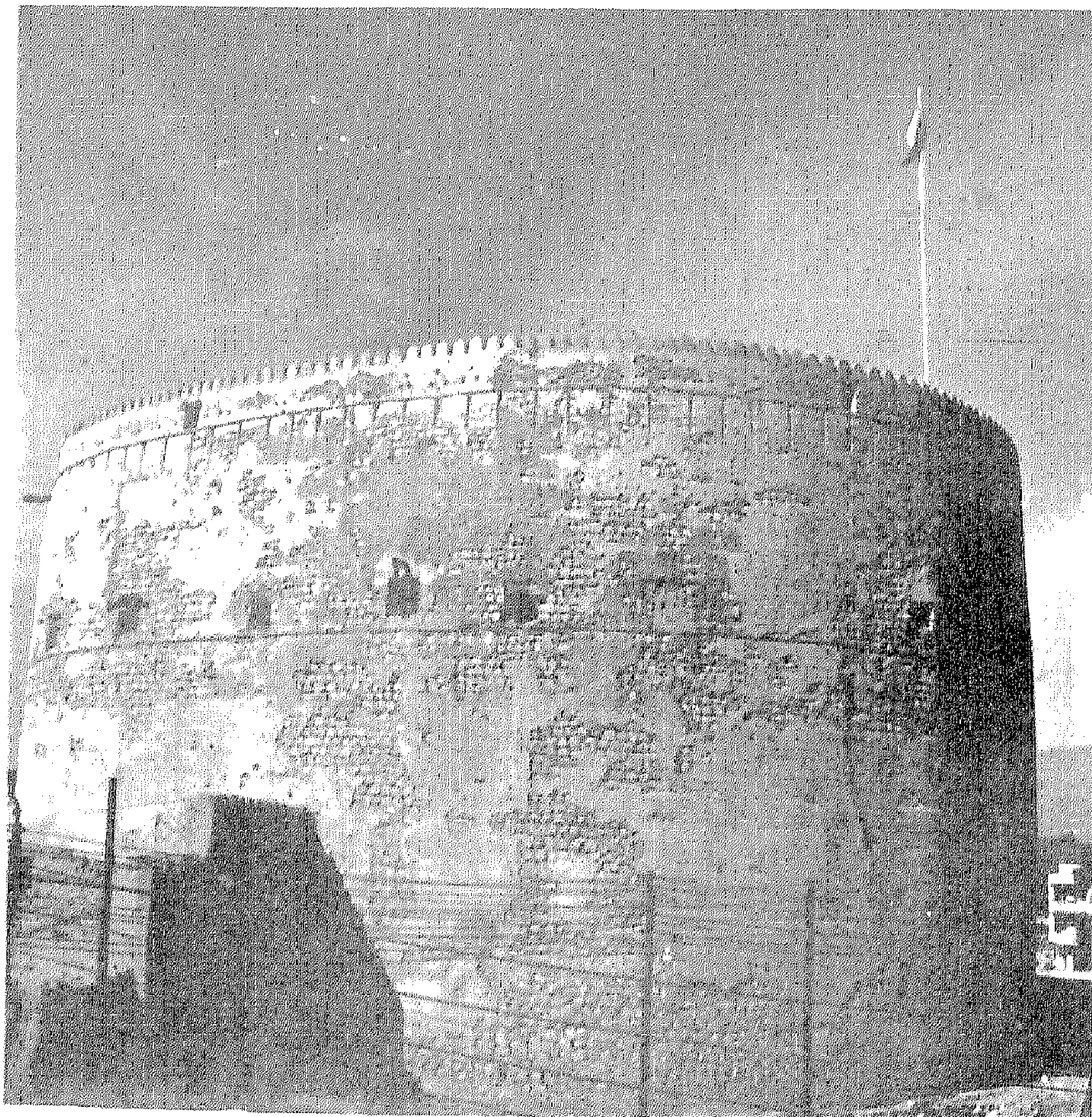
(لوحـــة رقم ٢٣)



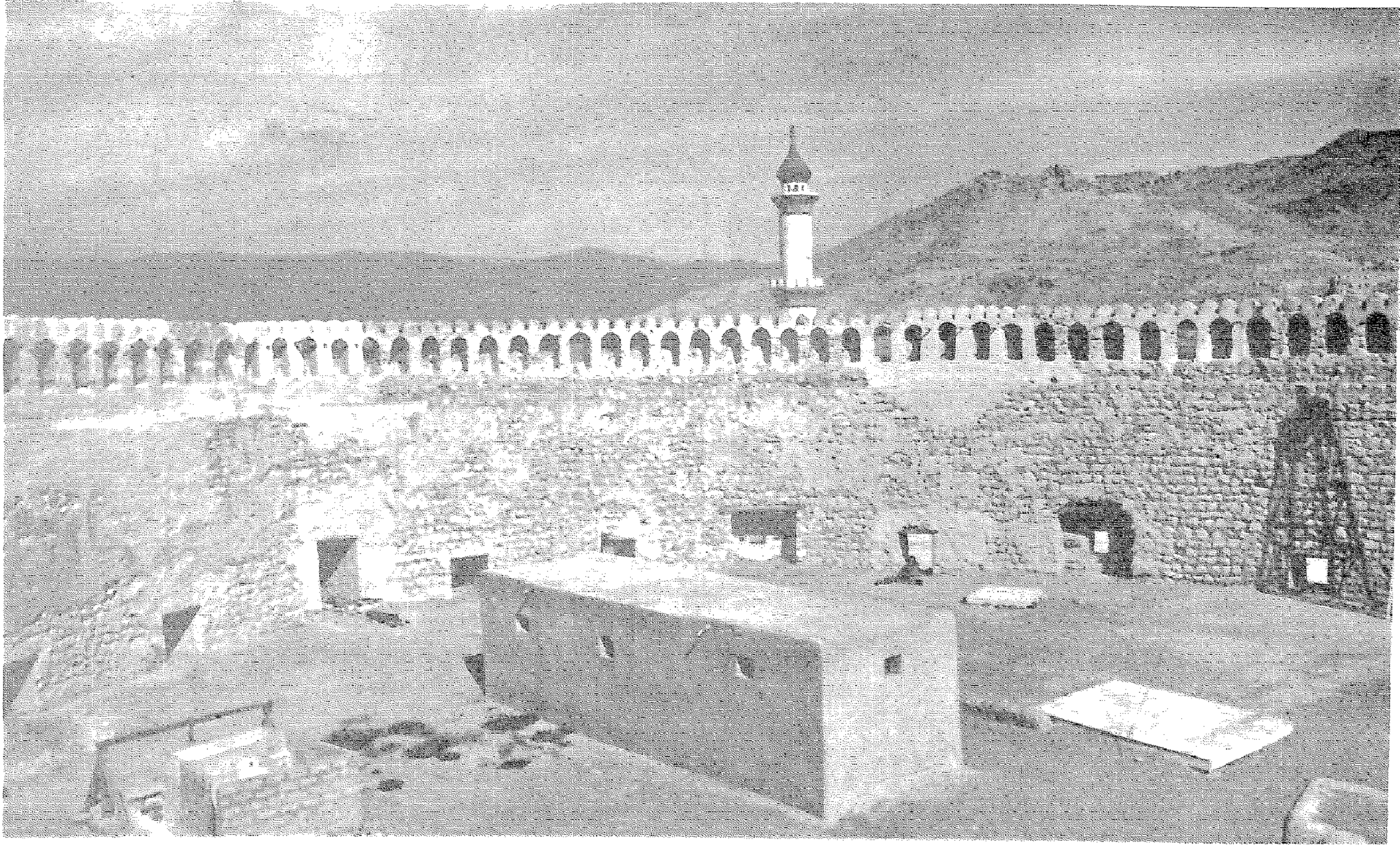
(لوحة رقم ٢٤)
بيت السيد نادر بمسقط



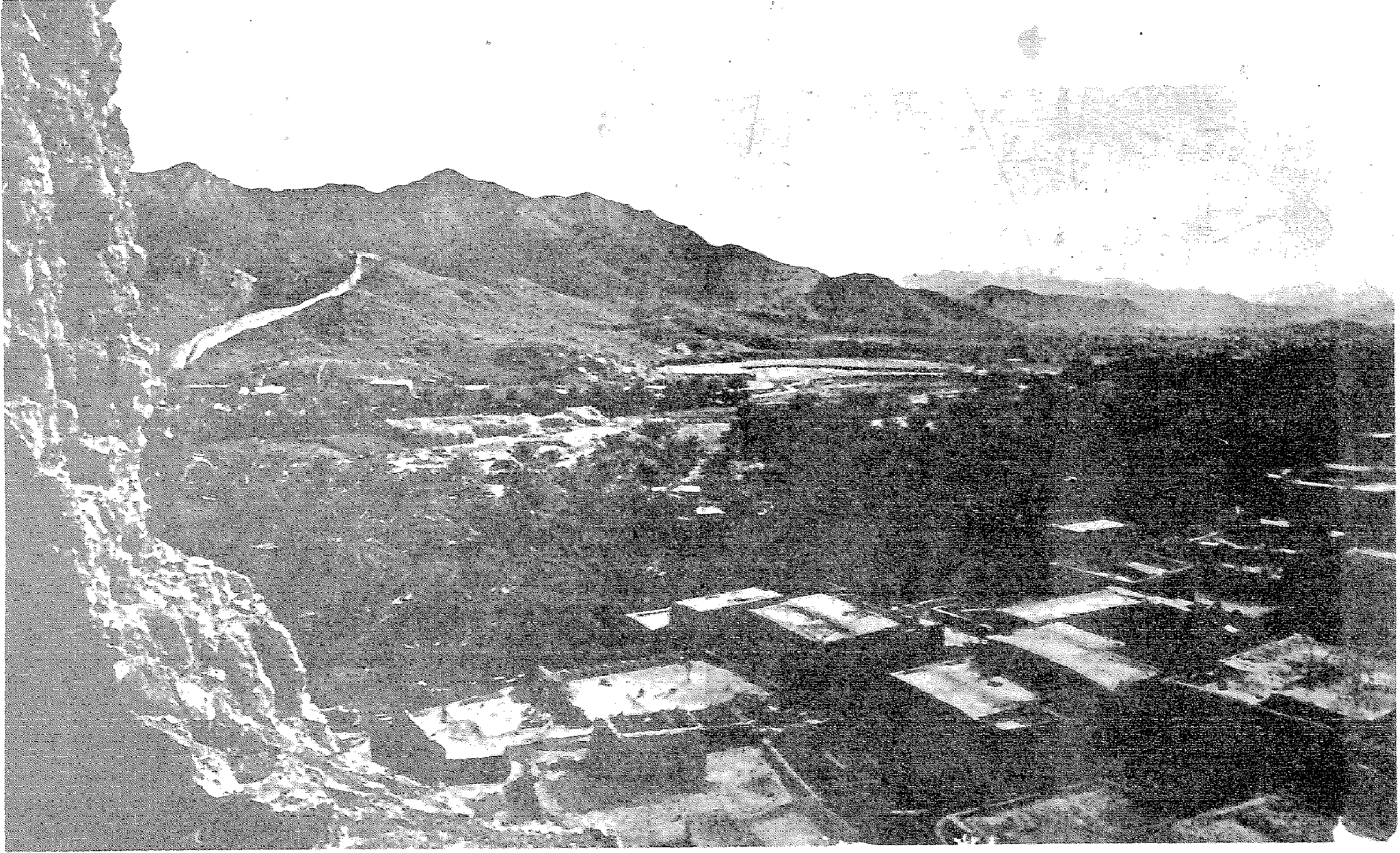
(لوحة رقم ٢٥)
قلعة صحار وبجوارها بئر ماء



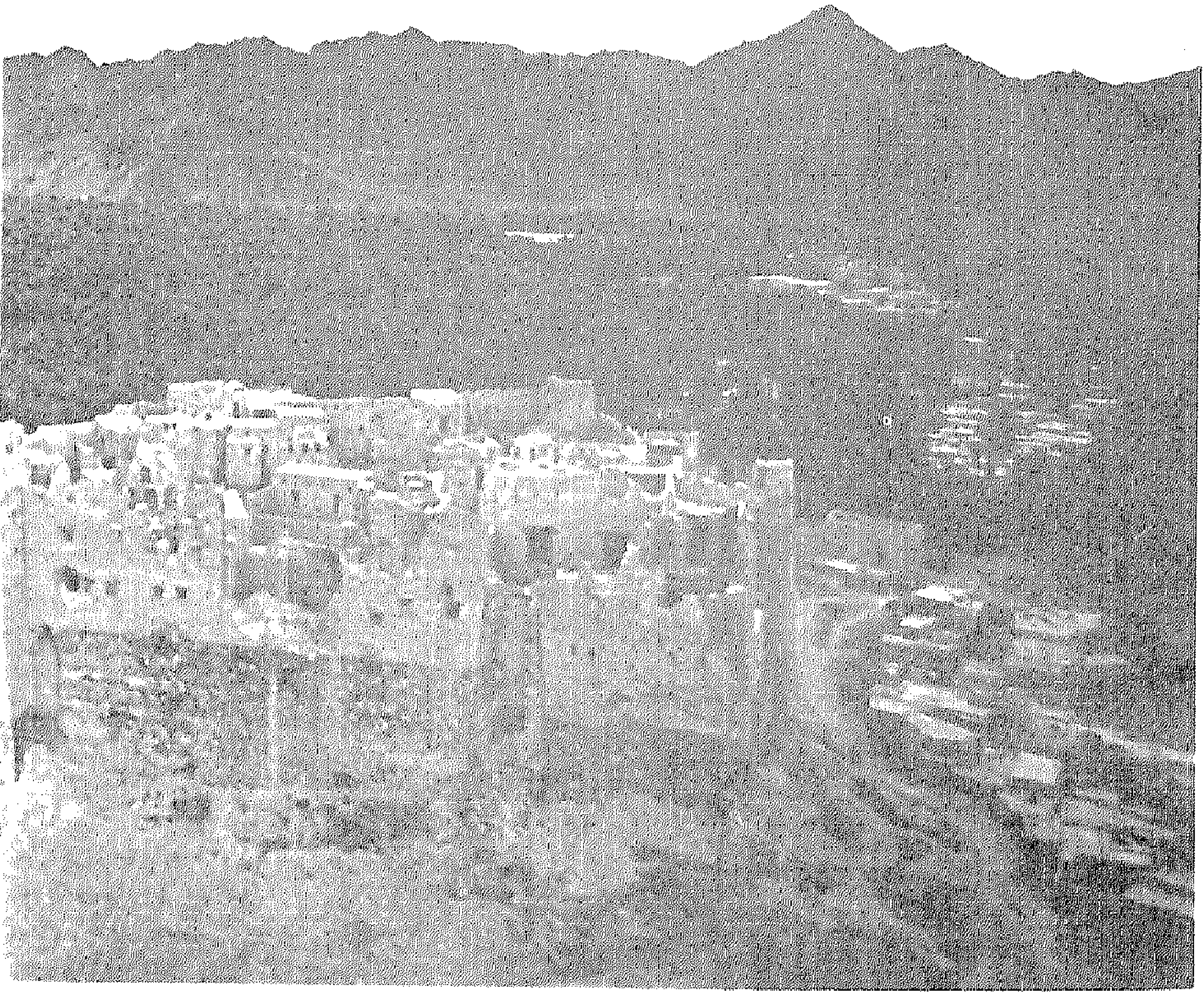
(لوحـــة رقم ٢٦)
البرج المركزى بقلعة نزوى كما يظهر من الخارج



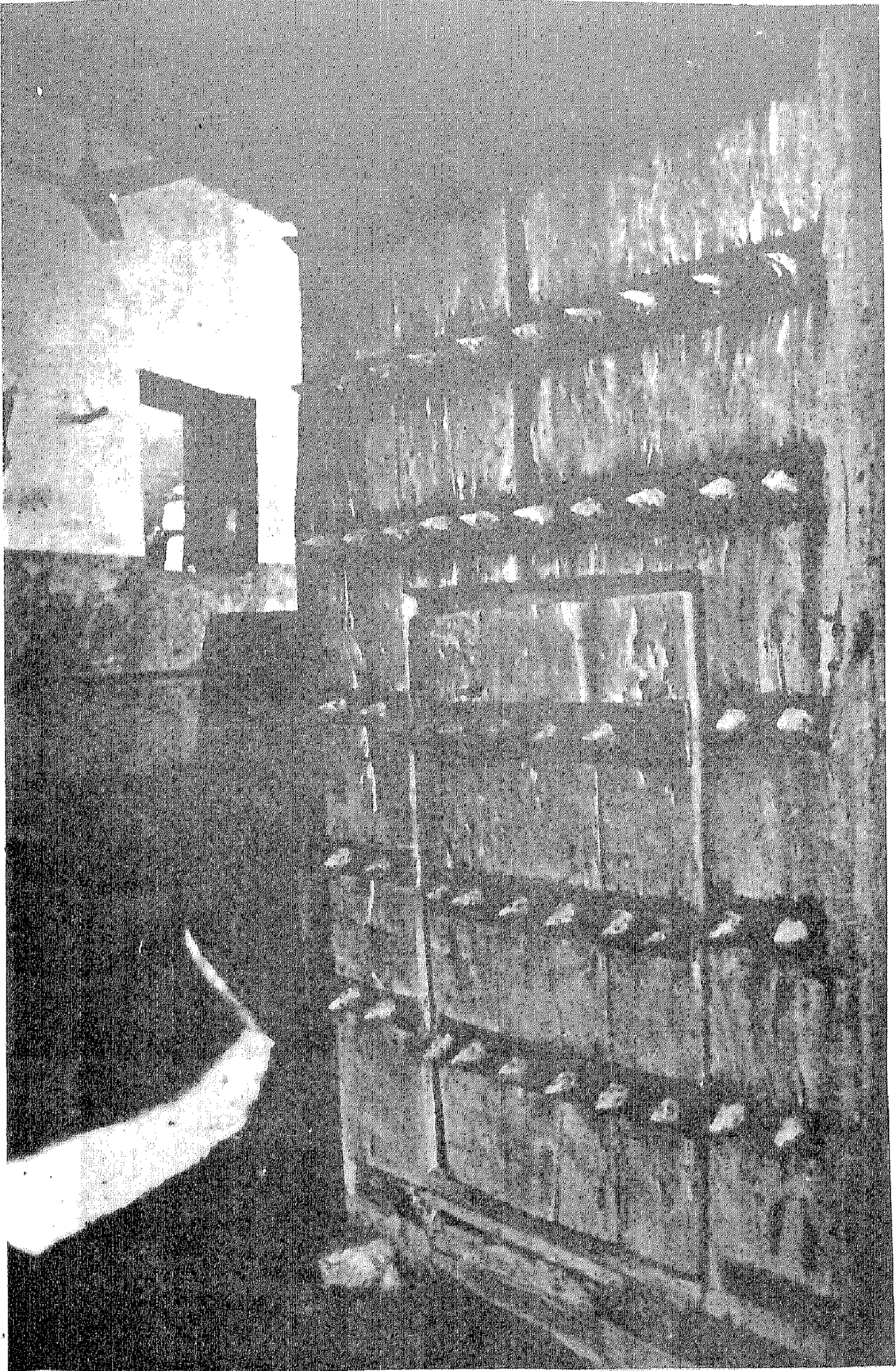
(لوحـــة رقم ٢٧)
البرج الكبير بقلعة نزوى كما يظهر من الداخل



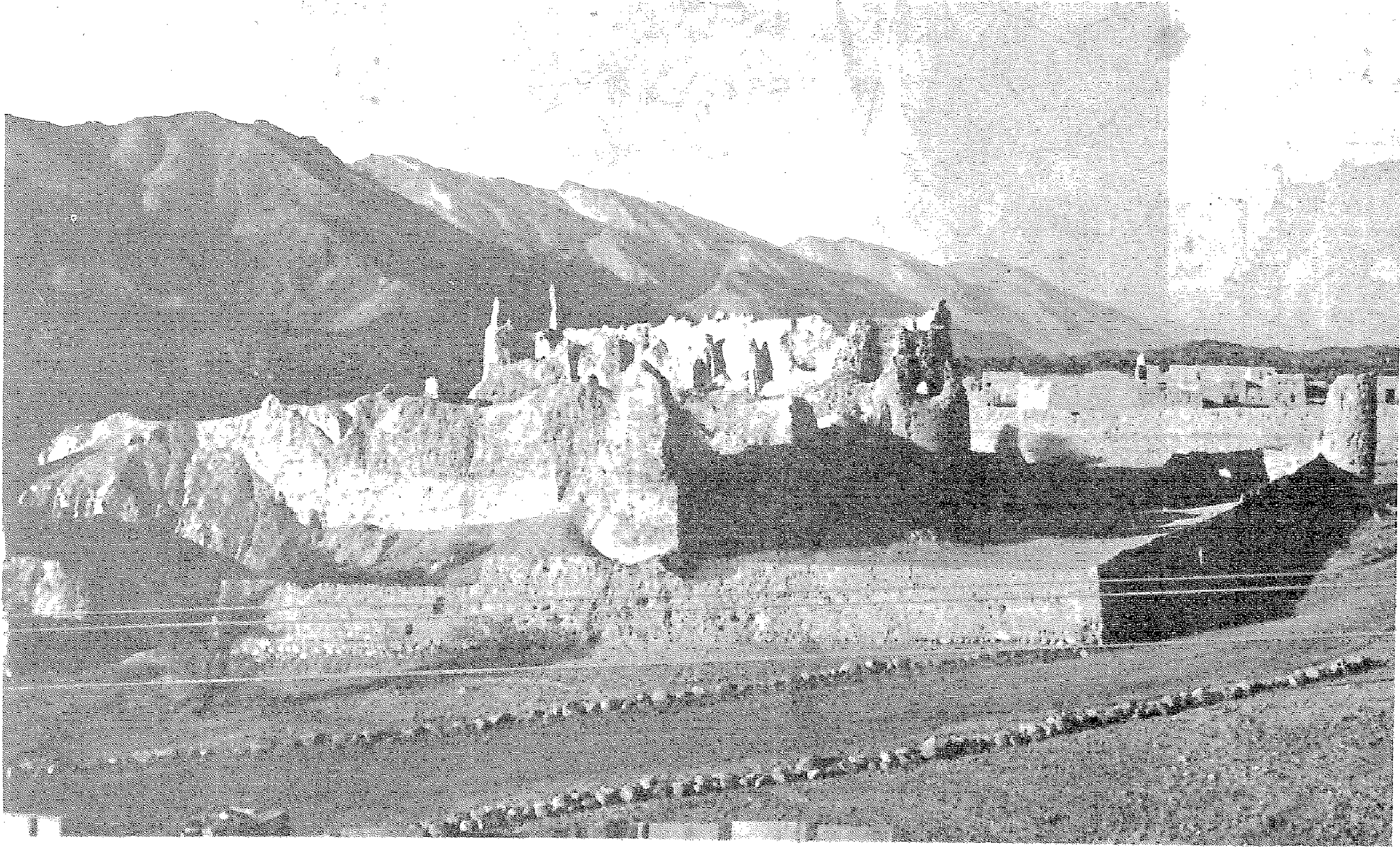
(لوحة رقم ٢٨)
أسوار مدينة بهلا تحيط بالدور



(لوحــة رقم ٢٩)
جزء من حصن بهلا داخل الأسوار التى يبلغ طولها
سبعة أميال وهى مبنية من اللبن وترجع الى ما قبل الاسلام



(لوحـــة رقم ٣٠)
أحد ابواب قلعة بهلا

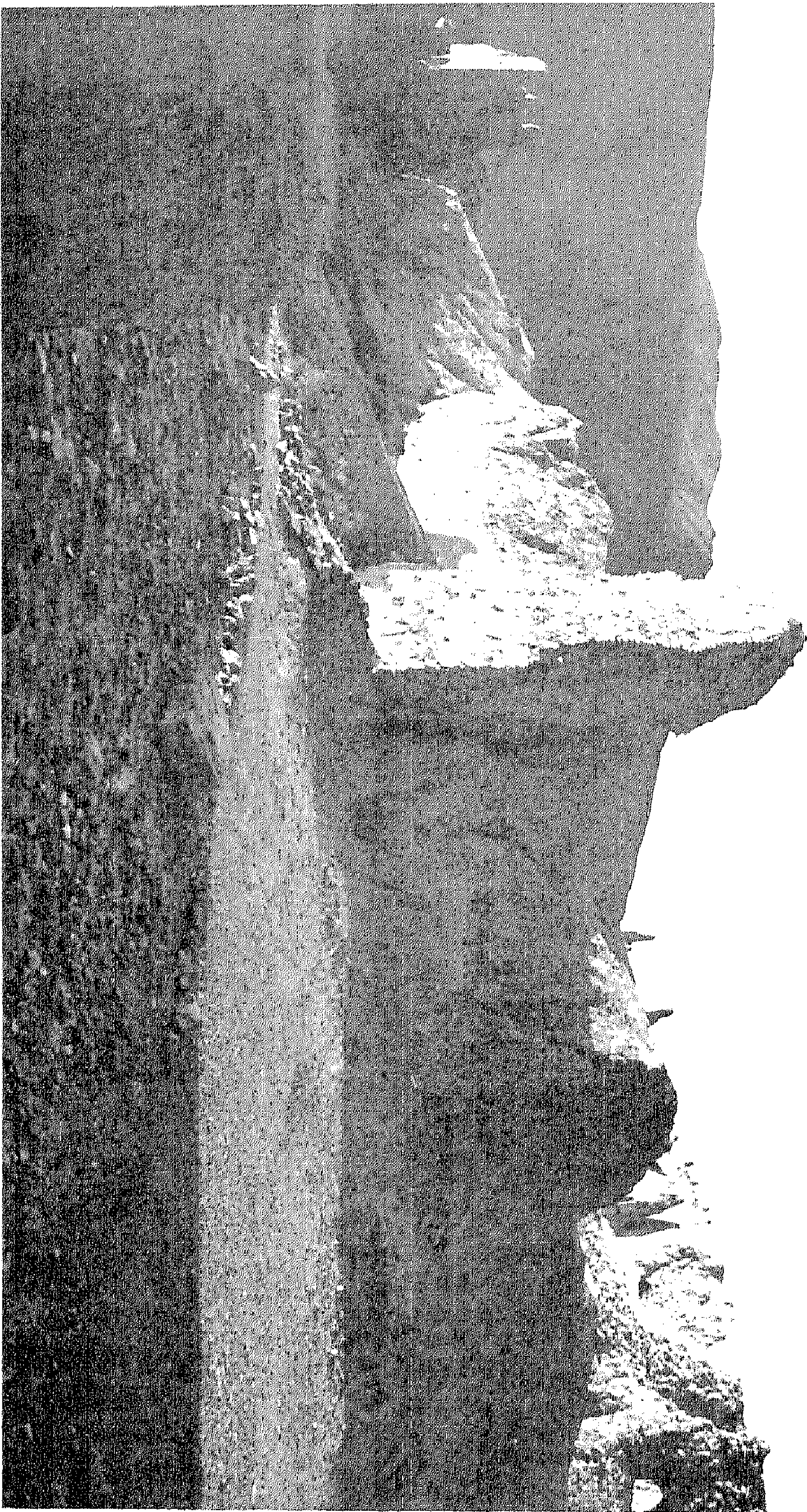


(لوحة رقم ٣١)

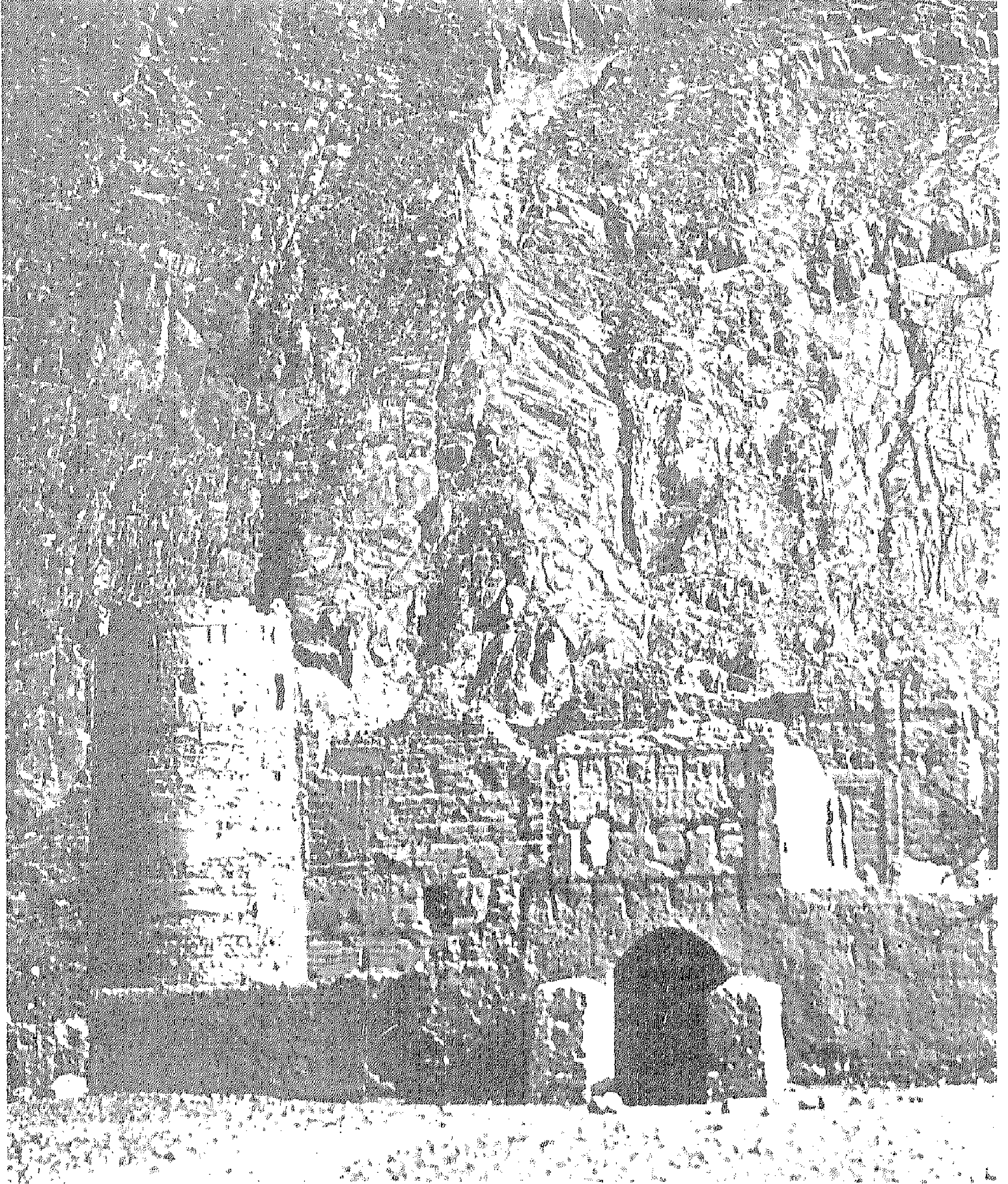
حصن مدينة بهلا



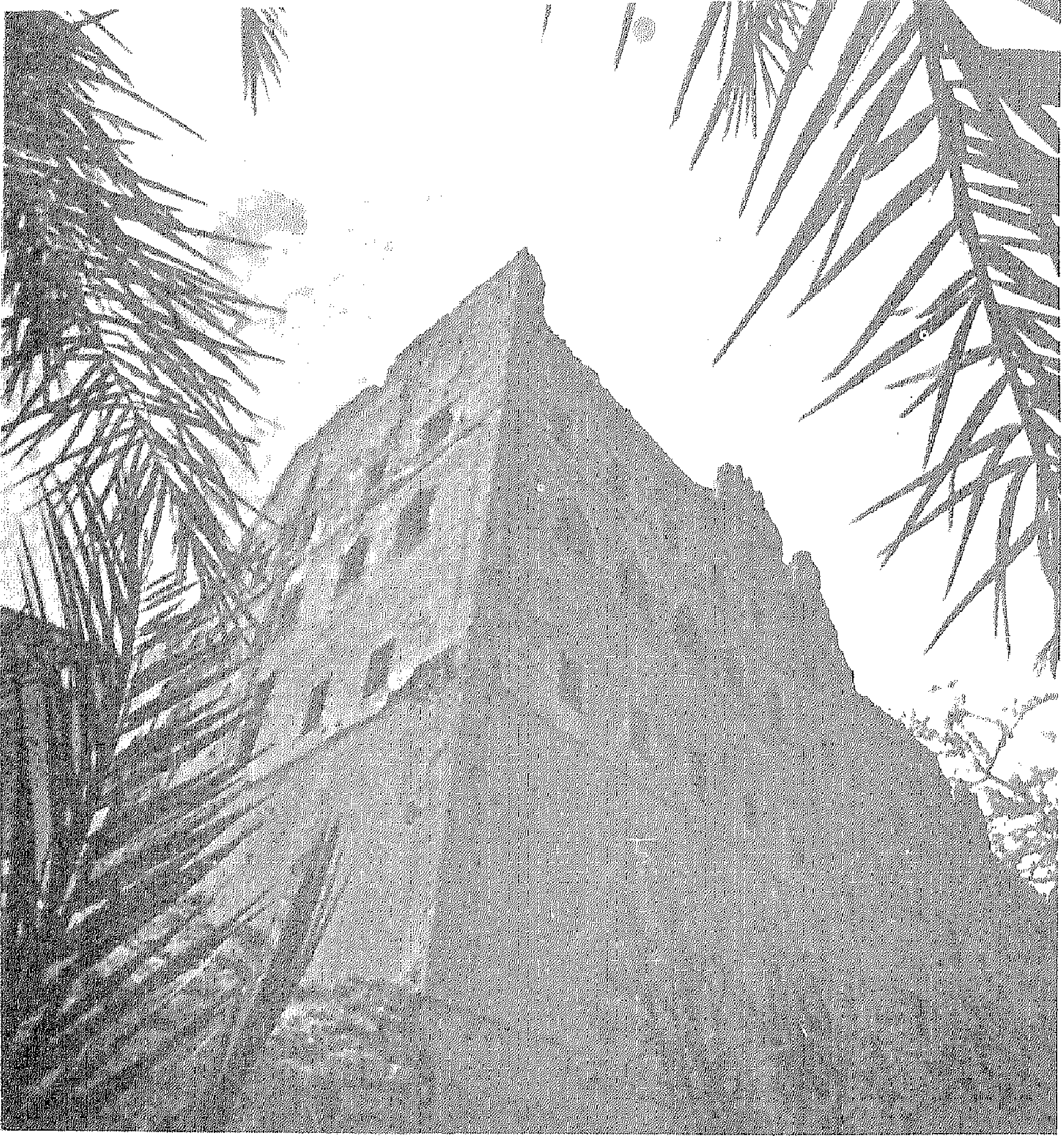
(لوحـــة رقم ٣٢)
سلسلة جبال الحجـر الغـربى التى تفصل
بين السـهل الساحلى وبين المنطقة الداخلية
والاقليم الجنوبى



(لوحـــة رقم ٣٣)
قلعة ازكى وقد ظهر بجانبها احد برجي المـاء



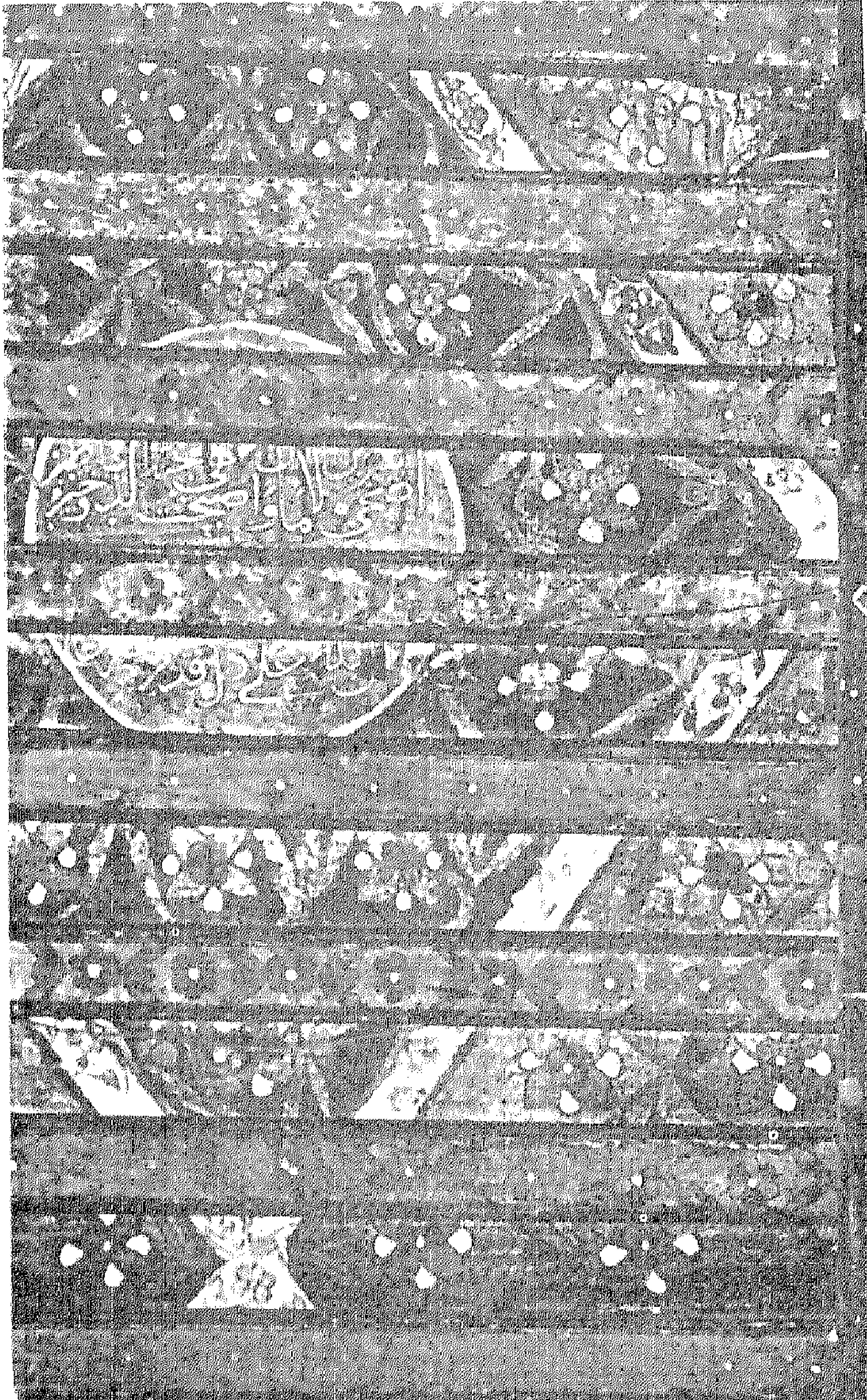
(لوحـــة رقم ٣٤)
قلعـــة بركة المـــوز



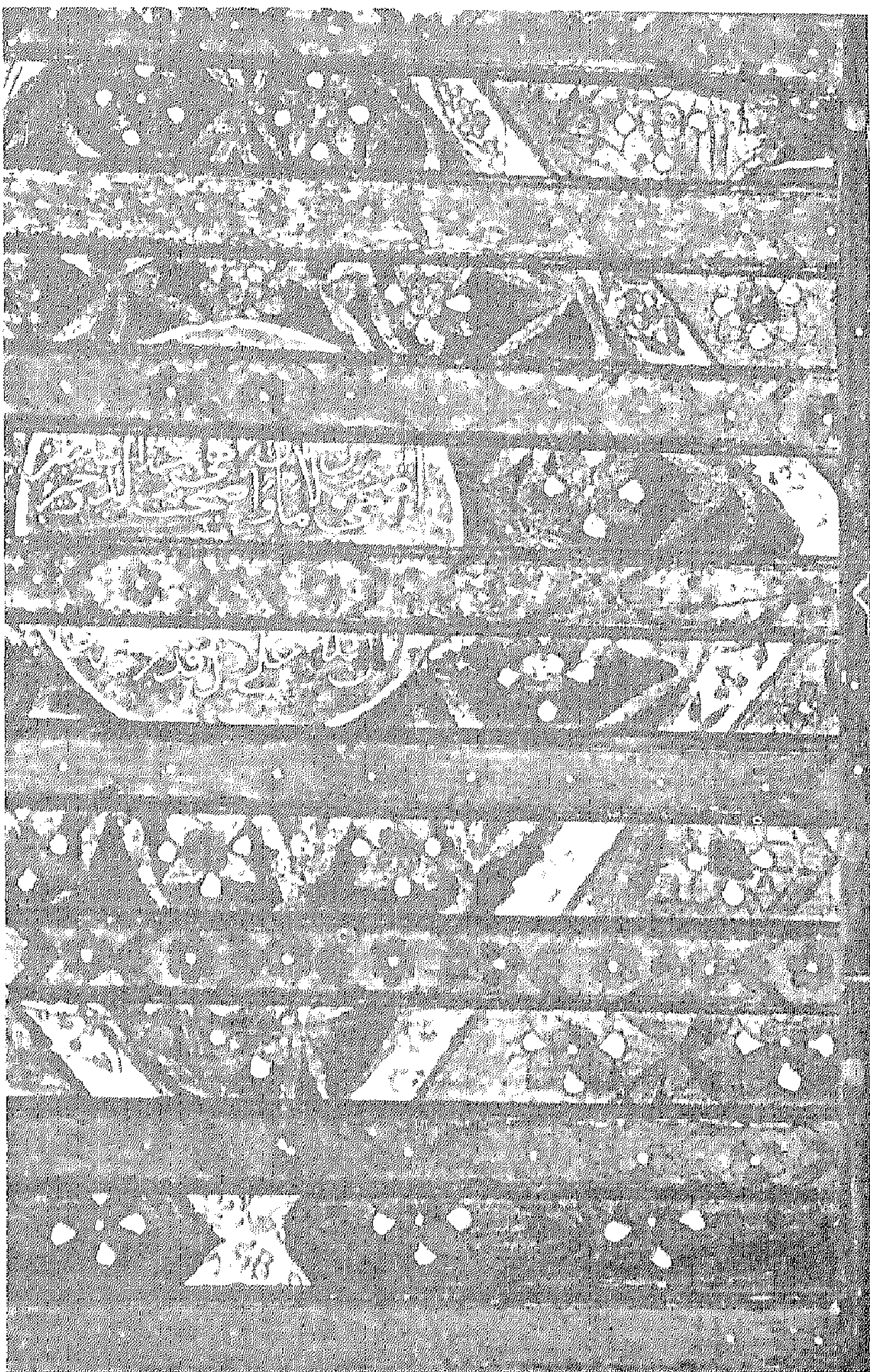
(لوحــــة رقم ٣٥)
البرج المربع يتقدمه الساقطة وحول القلعة سور مدينة جبرين



(لوحة رقم ٣٦)
ابواب حصن جبرين وزخارفها



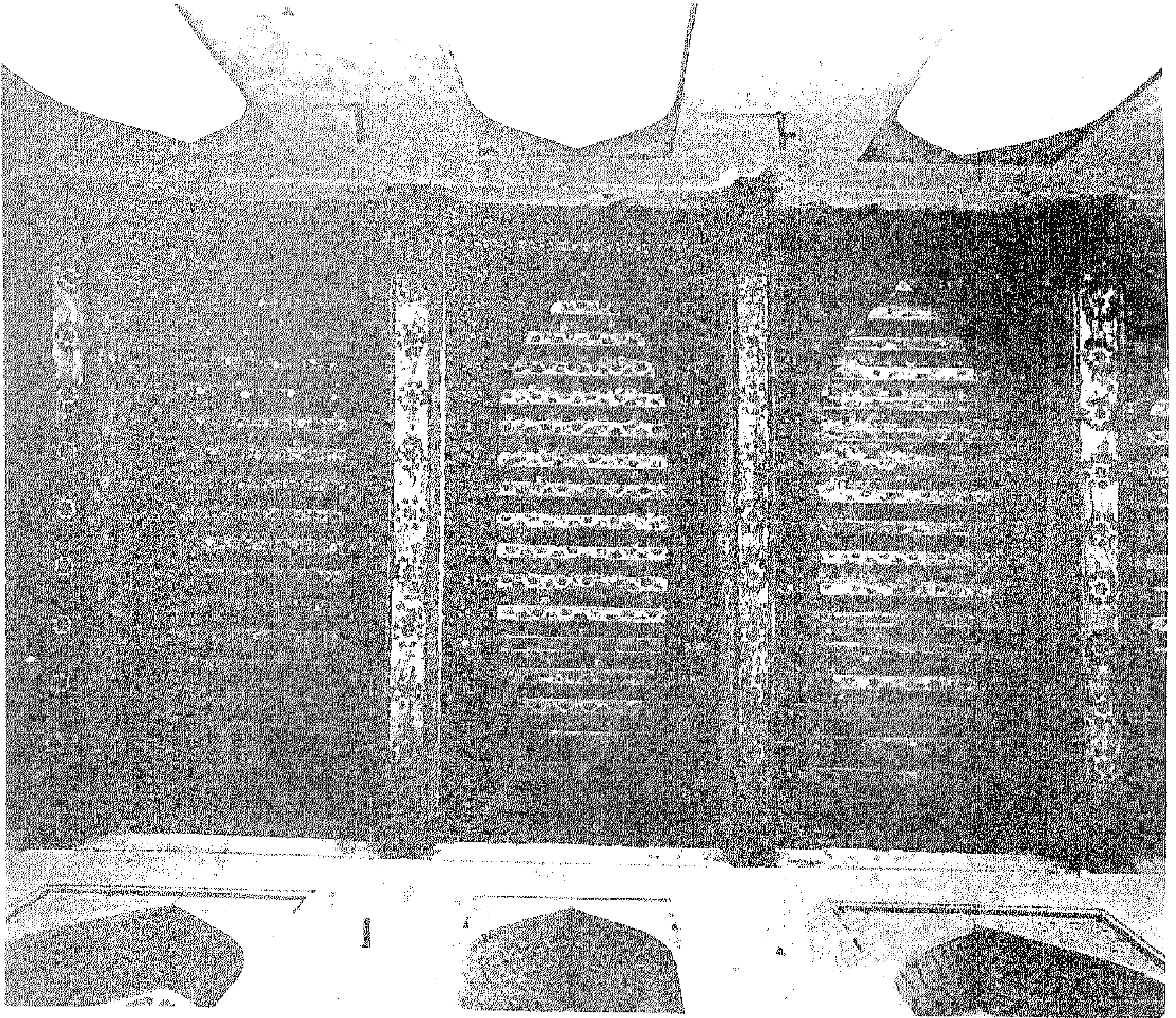
(لوحة رقم ٣٧)
سقوف حصن جبرين



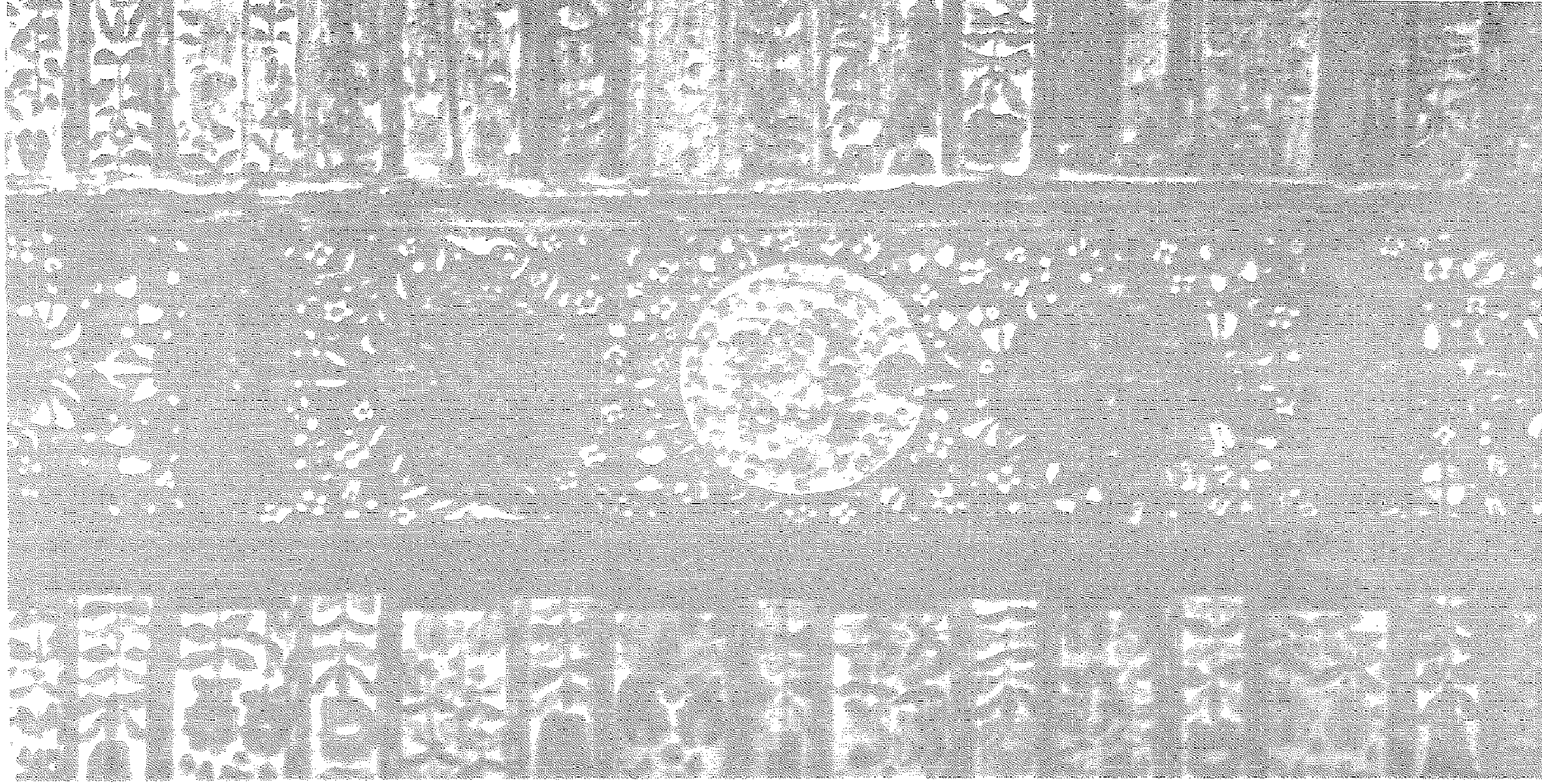
(لوحة رقم ٣٨)
السقوف المنقوشة فى حصن جبرين



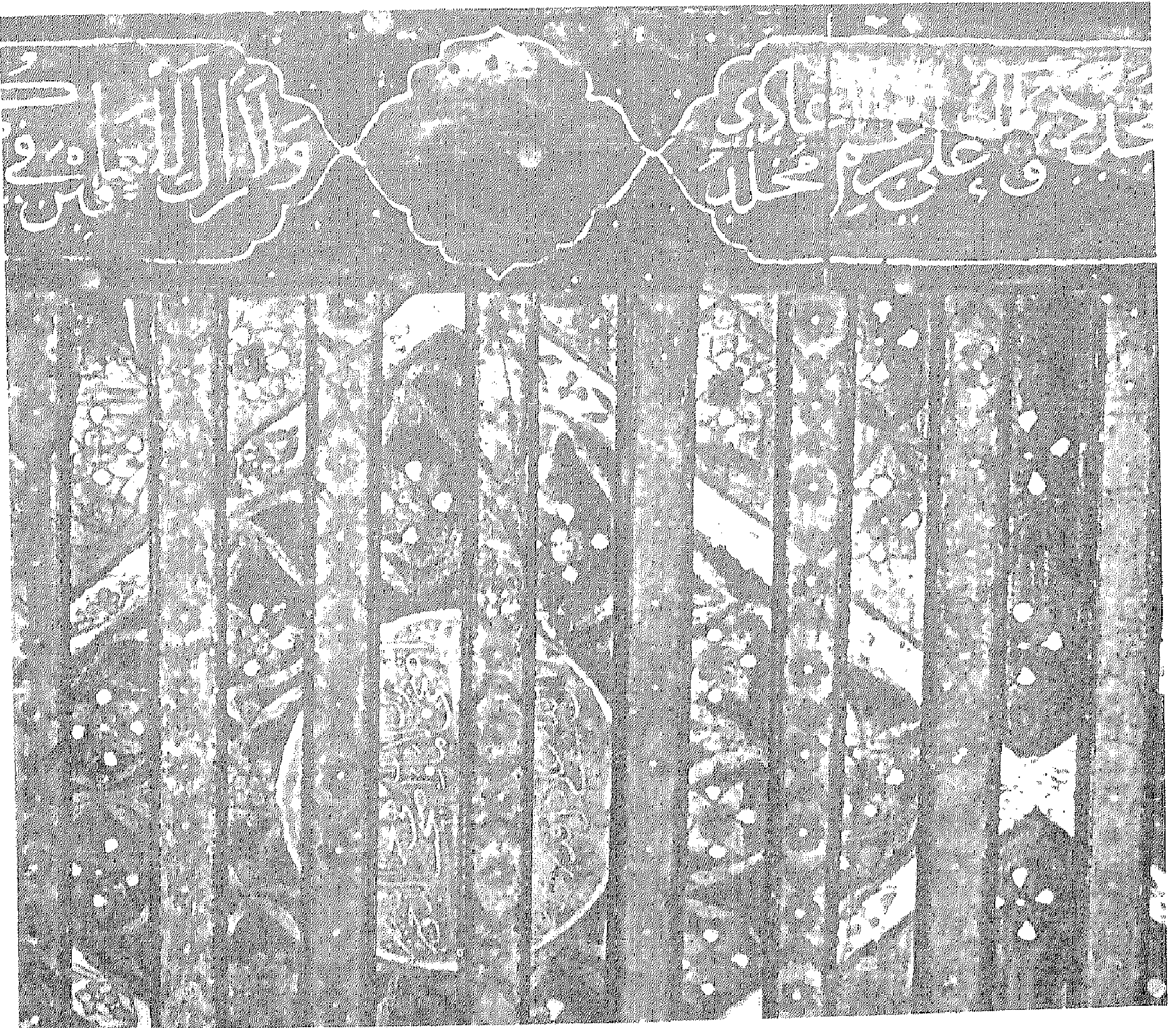
(لوحــة رقم ٣٩)
نقوش هندسية وأخرى قرآنية تزخرف مبانى حصن جبرين



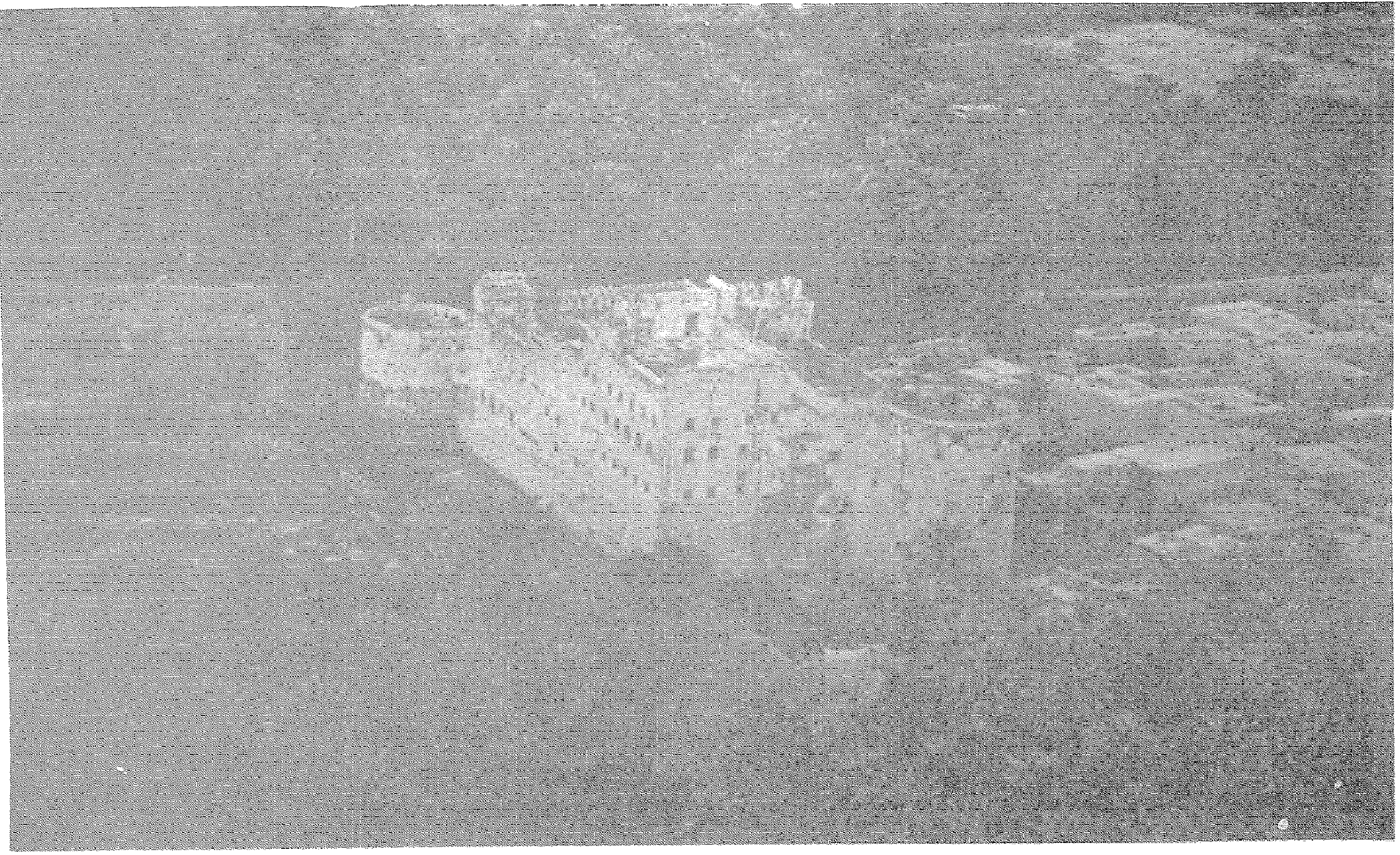
(لوحــة رقم ٤٠)
الزخارف والكتابات المحصورة فى بحور تزين سقوف حصن جبرين



(لوحة رقم ٤١)
أحد الأعمدة الخشبية التي ترتكز عليها سقوف
حصن جبرين



(لوحـــة رقم ٤٢)
كتابات قرآنية محصورة فى بحور تزين سقوف حصن جبرين

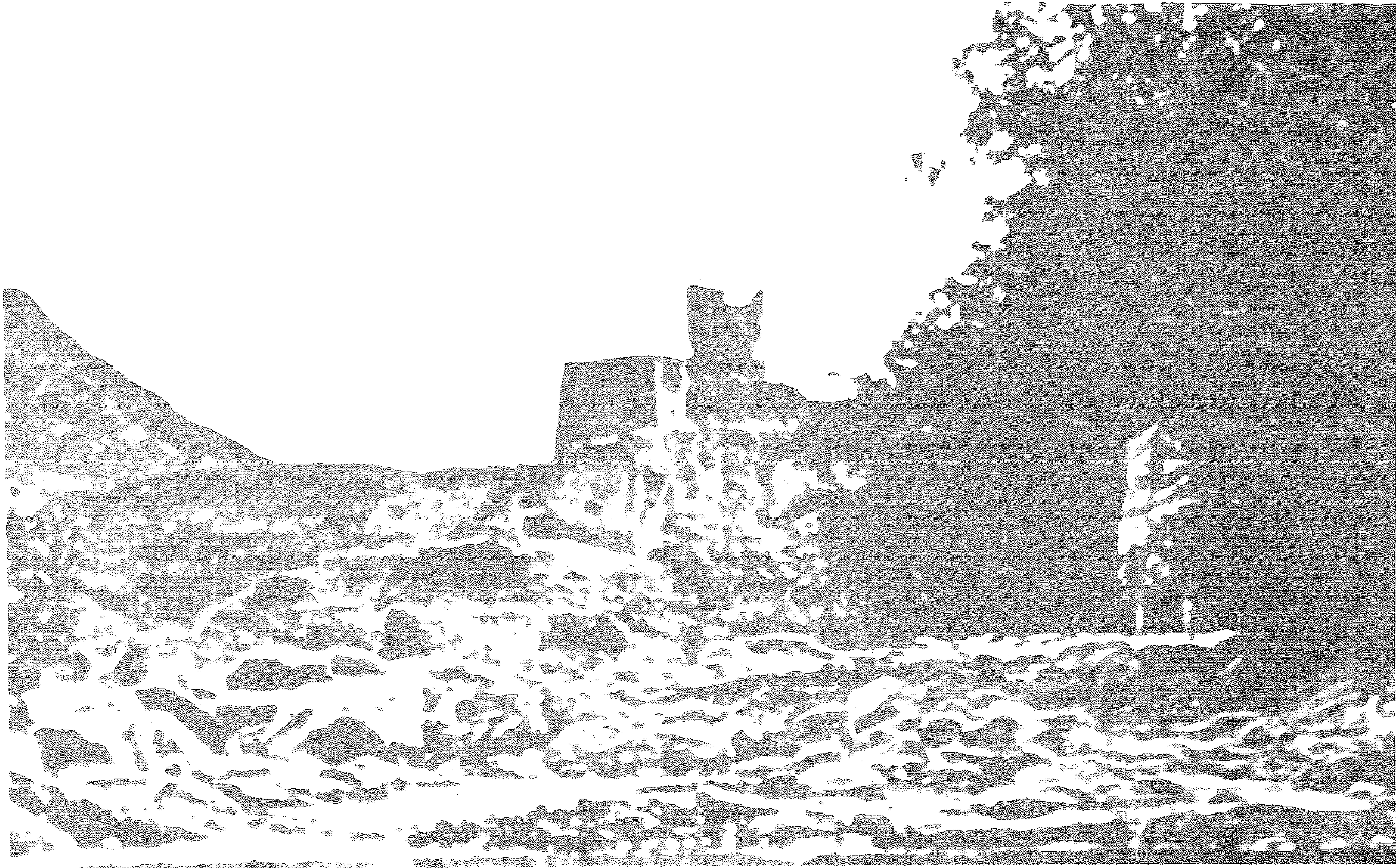


(لوحـــة رقم ٤٣)

حصن جبرين الذى يرجع تاريخه الى القرن ١٧ حيث يوجد به اجمل قصور عمان مما جعلها مركزا هاما من مراكزها الثقافية



(لوحـة رقم ٤٤)
قلعـة حبى

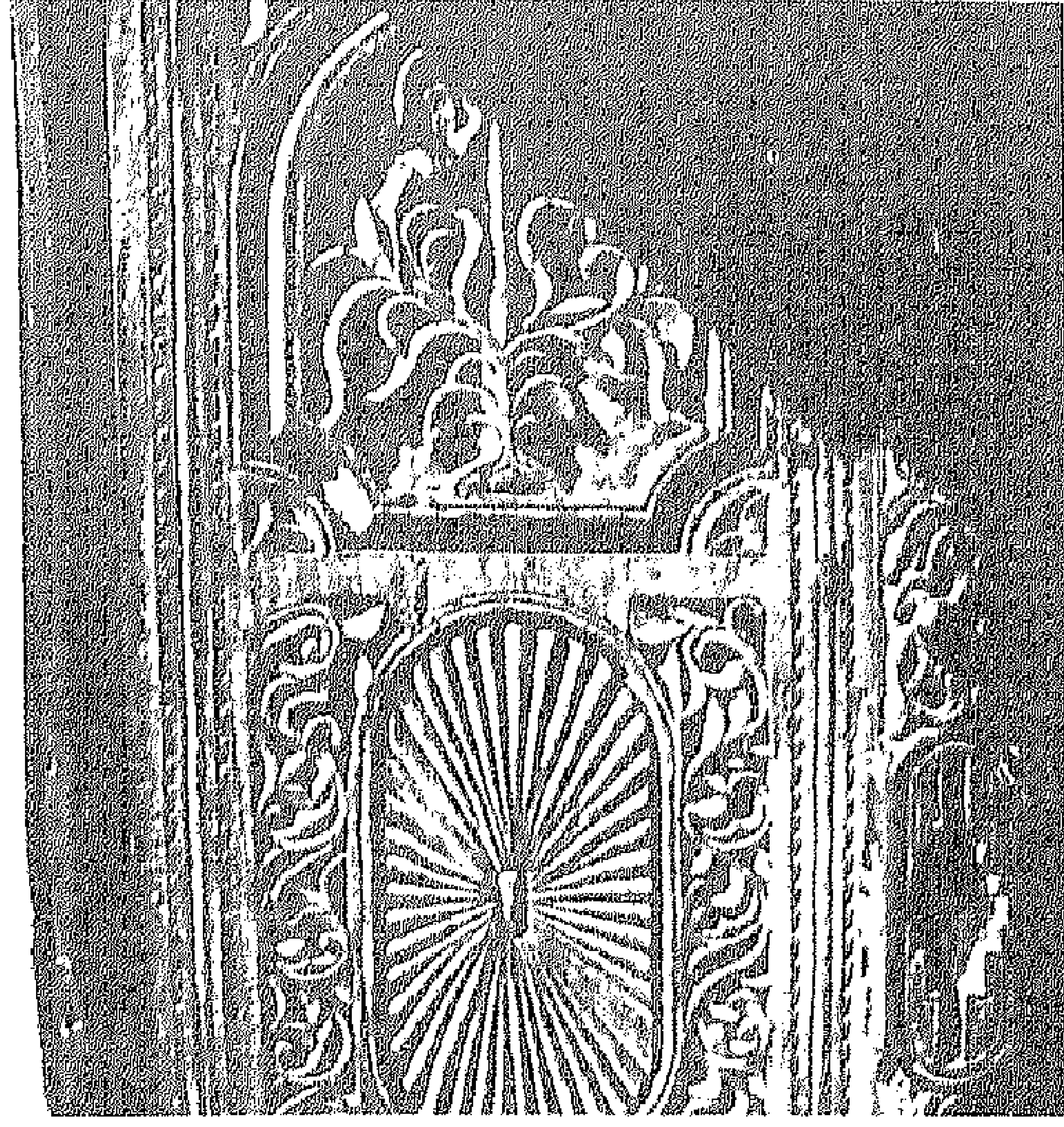


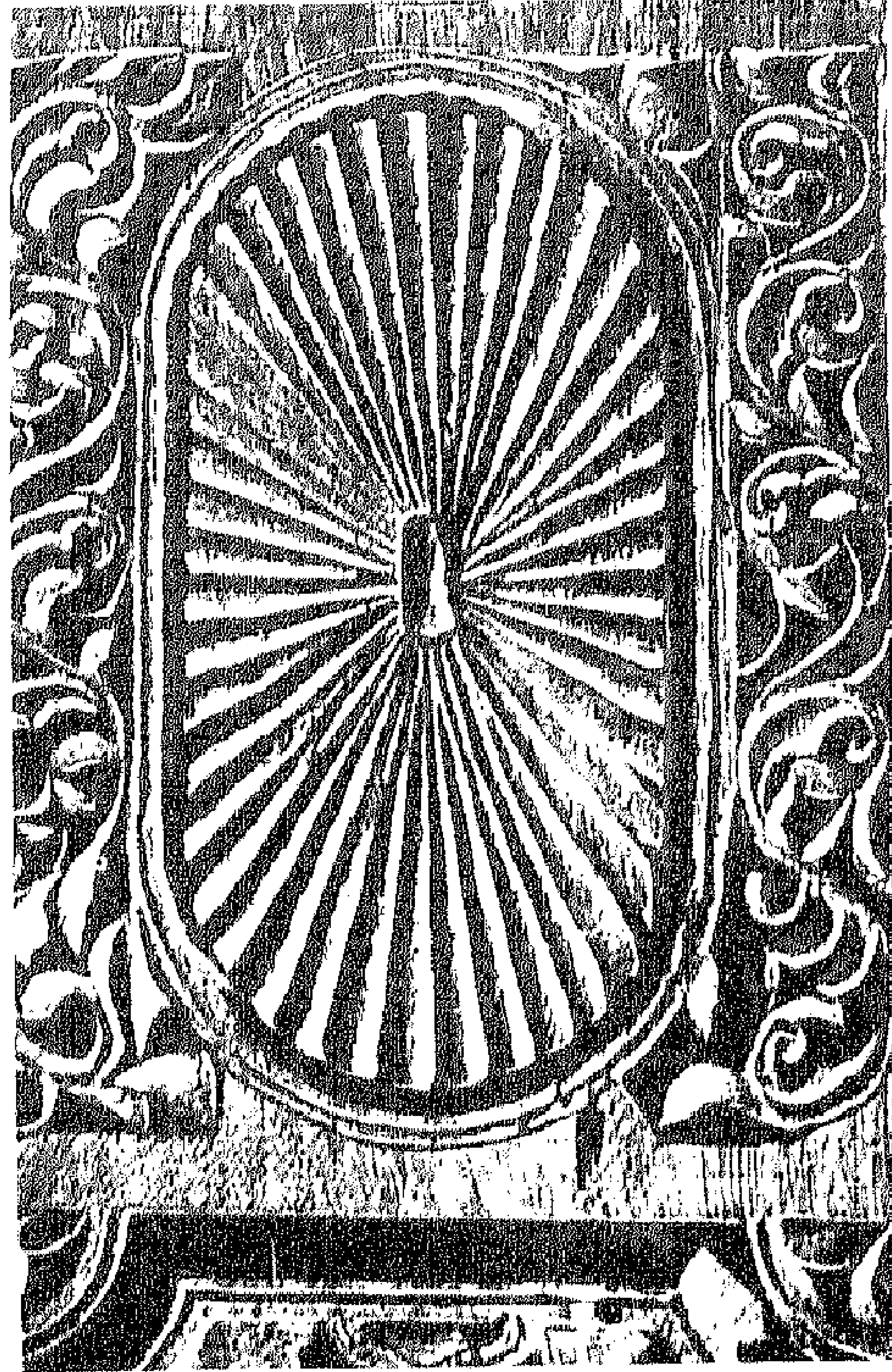
(لوحة رقم ٤٥)
قلعة حبى



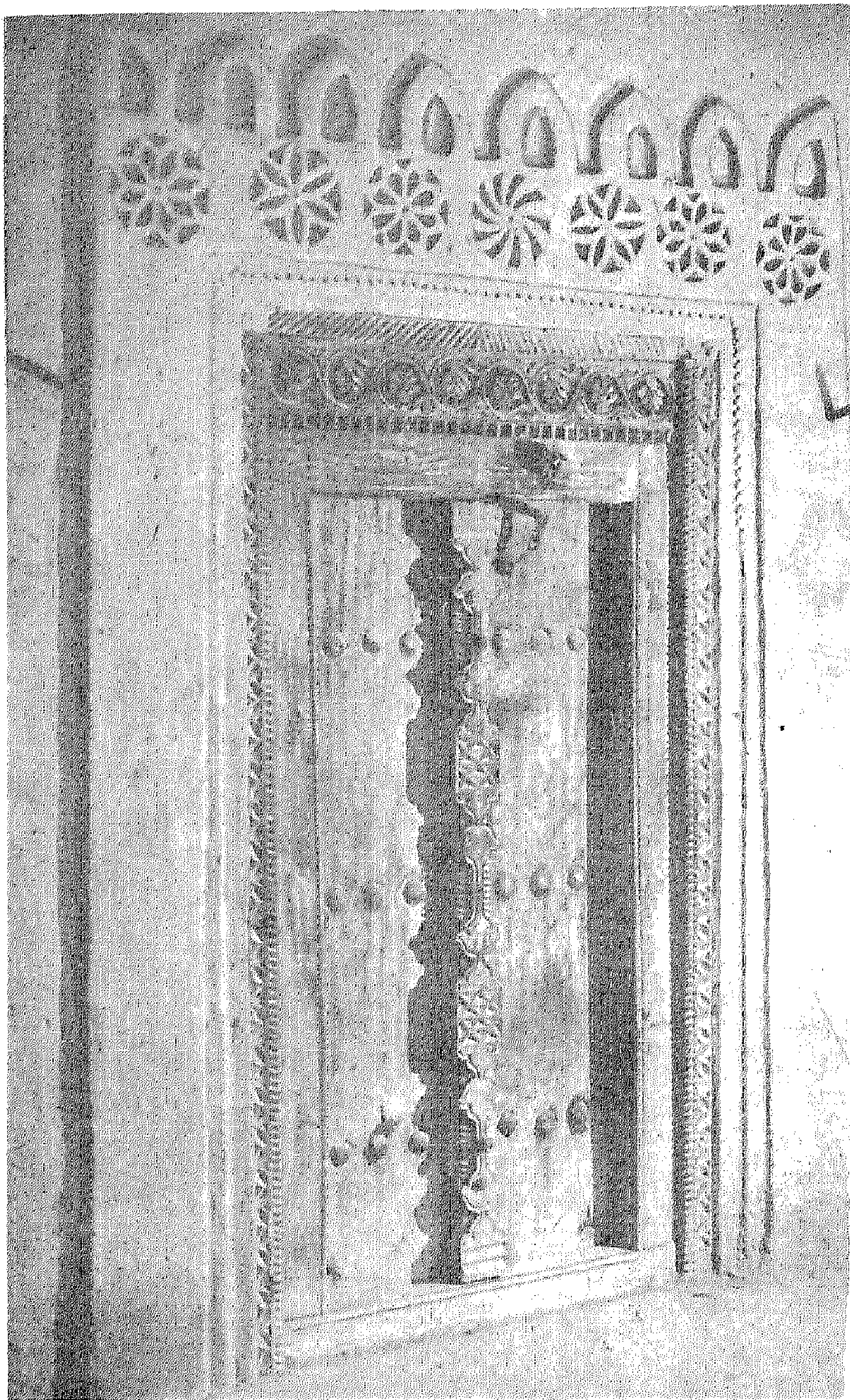
(لوحة رقم ٤٦)

بيت من القرن ١٨م فى مدينة ابرا

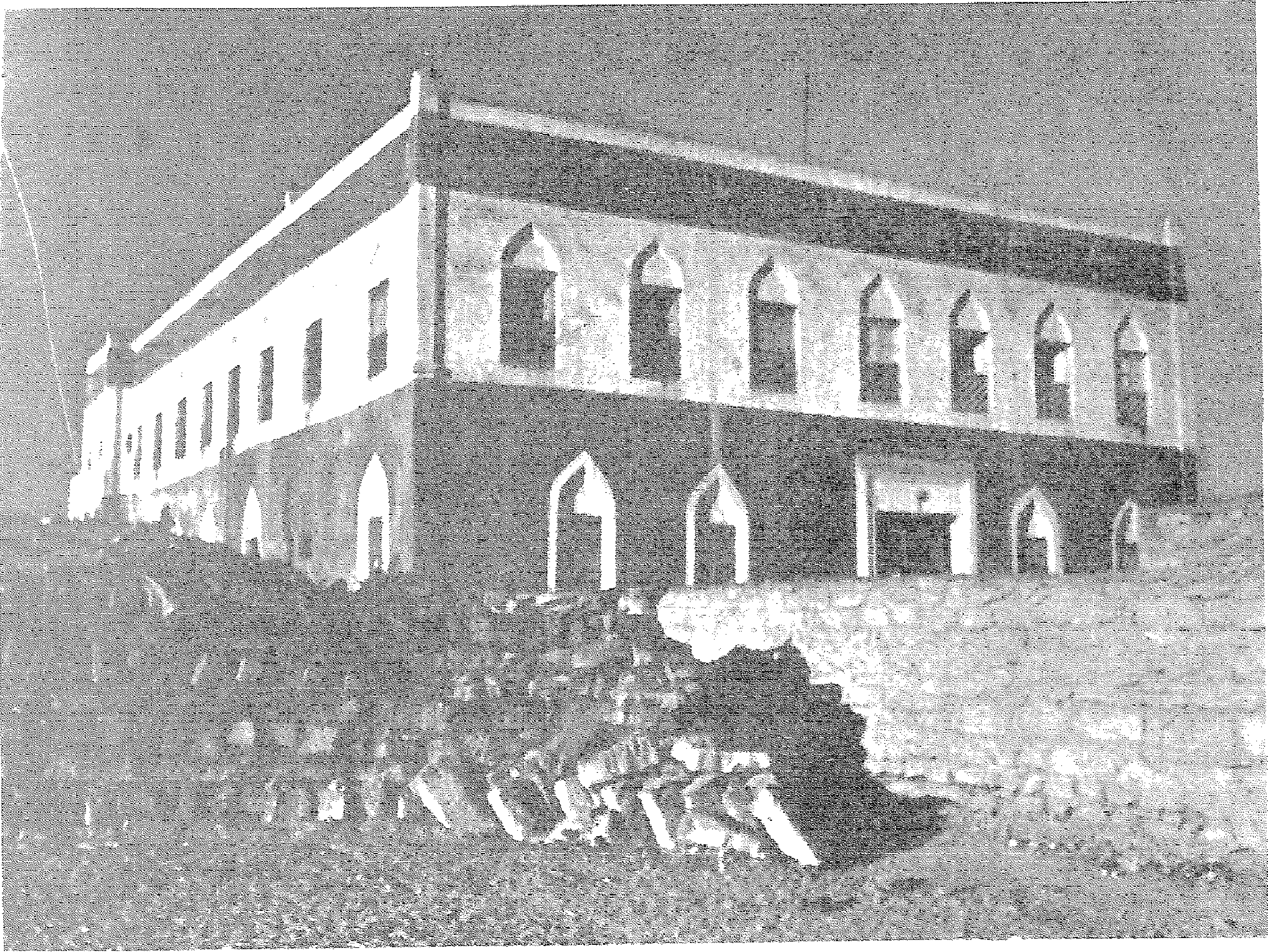




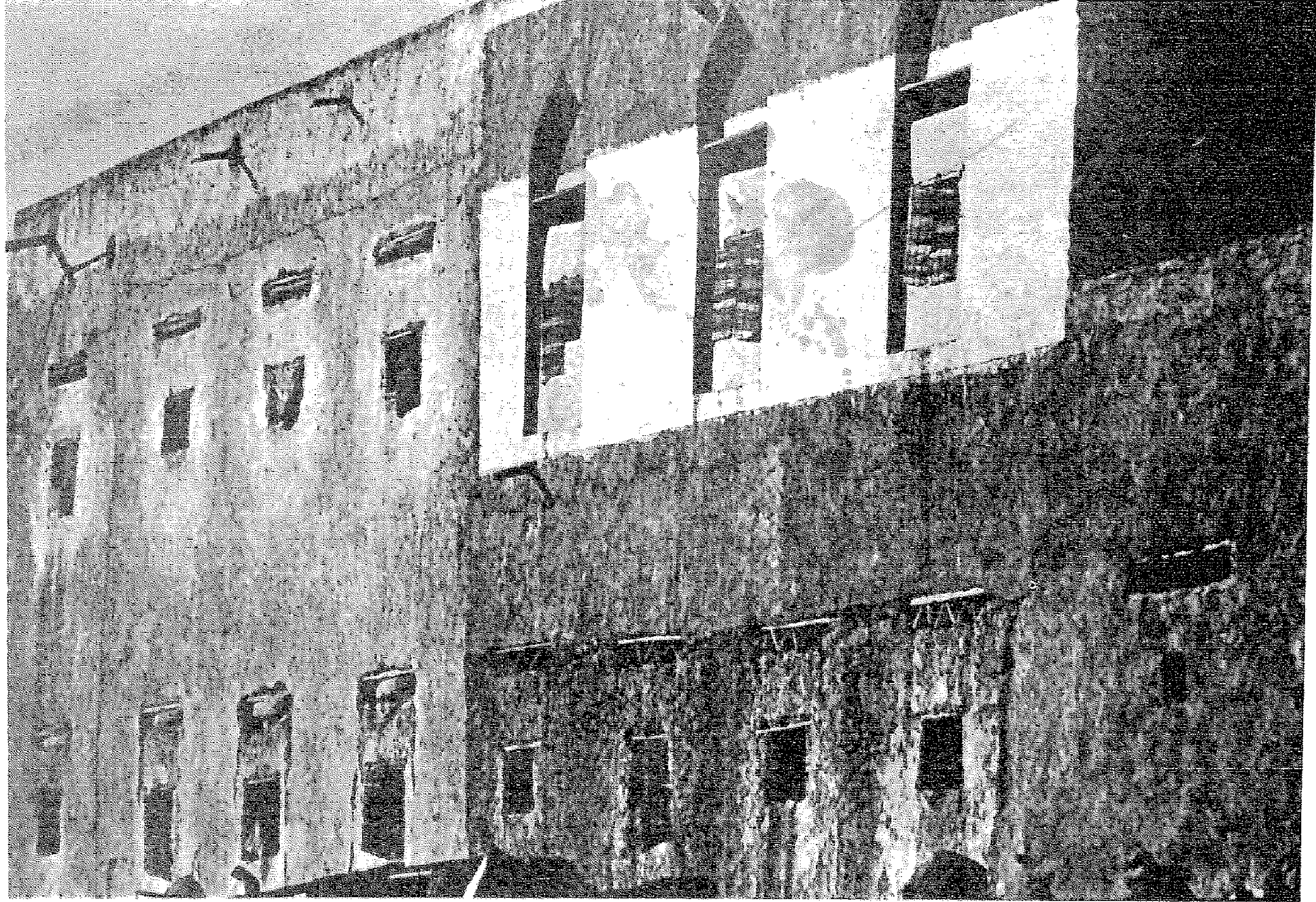
(لوحـــة رقم ٤٧)
زخرفة أخشاب منازل ابرا
بطريقة الحفر البارز والغــائر
المتأثر بالأســـــلوب الصفوى



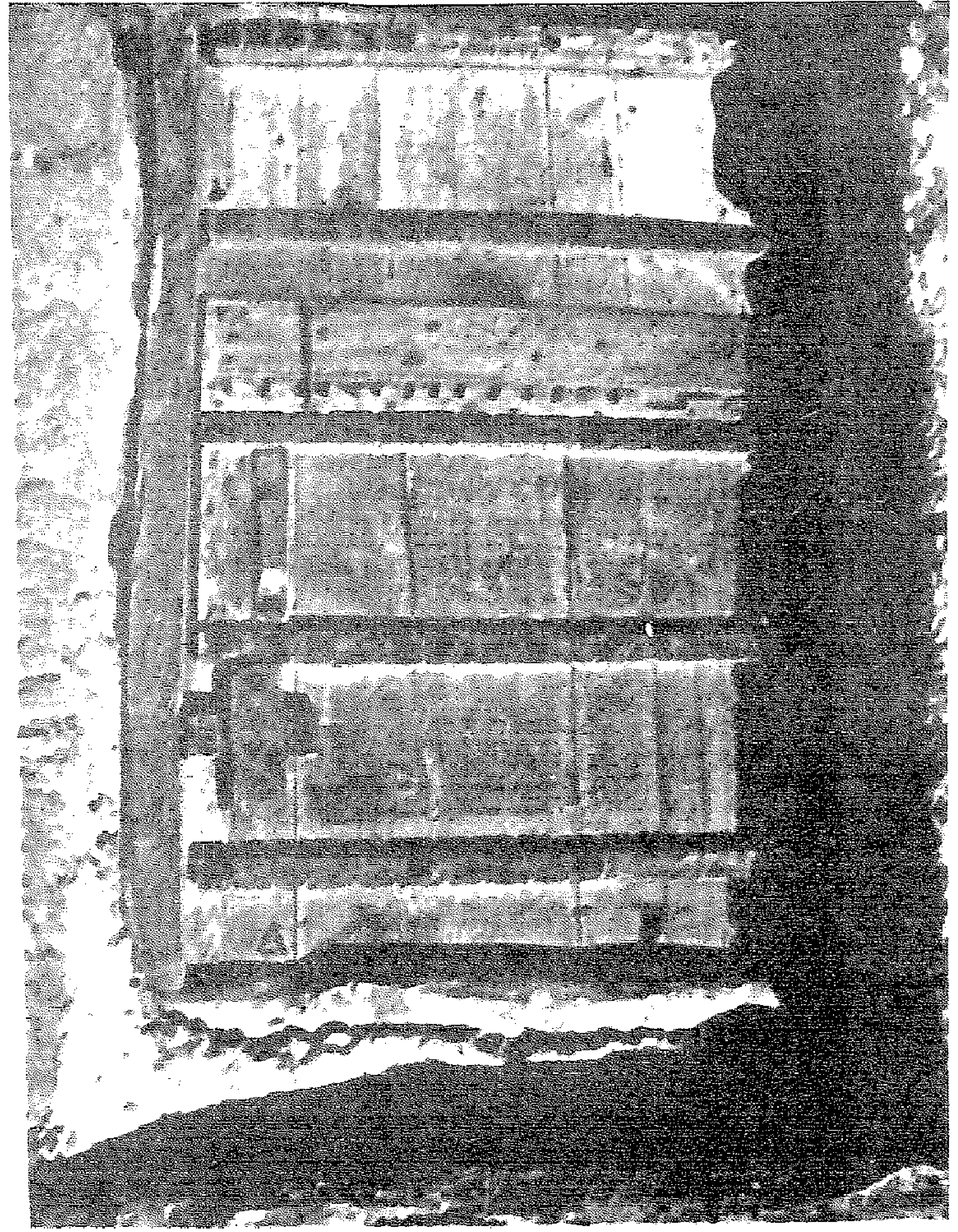
(لوحــة رقم ٤٨)
باب أحد البيــوت بمدينة ابرا

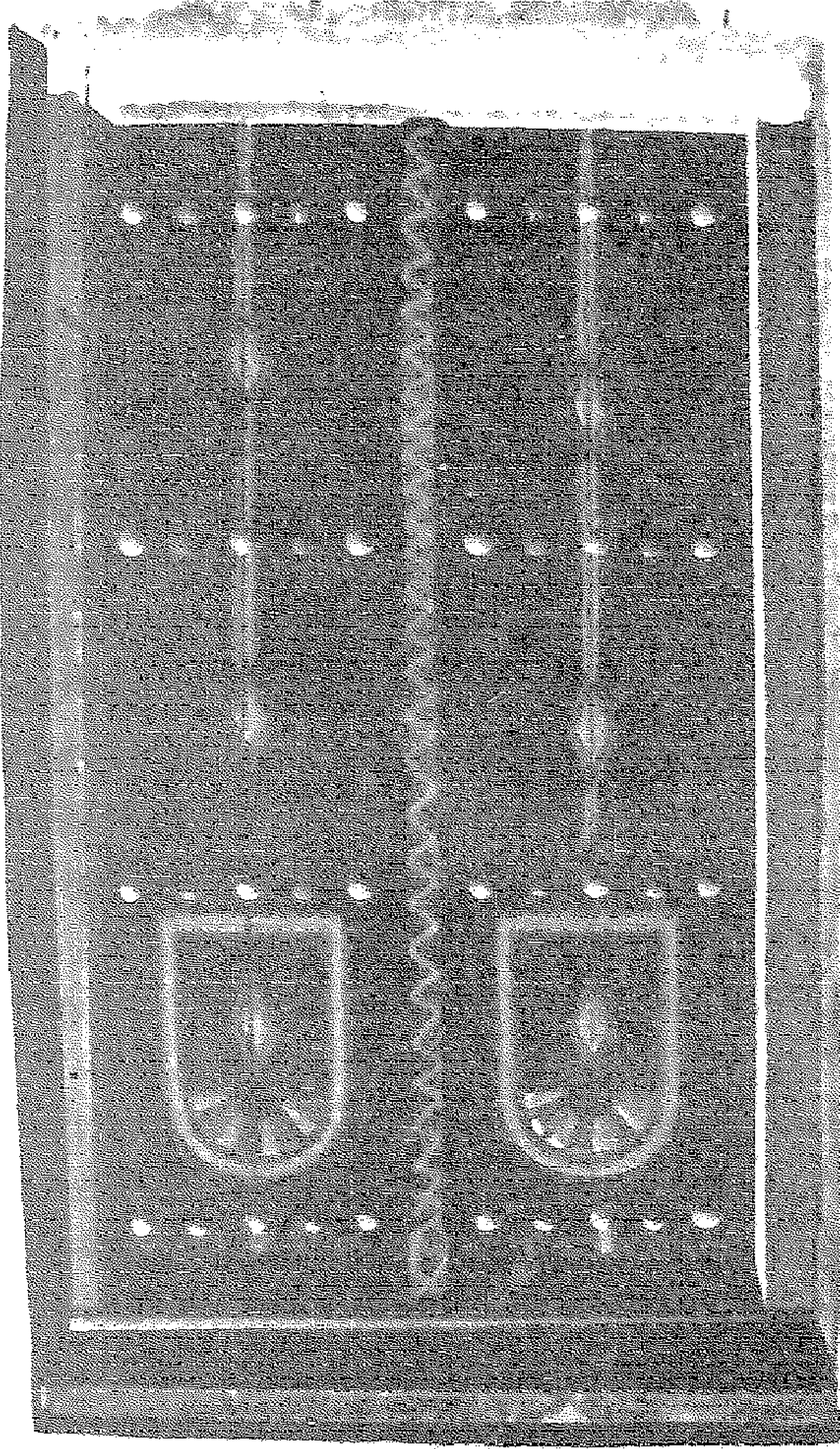


(لوحـــة رقم ٤٩)
أحد بيوت صلالة البسيطة التخطيط

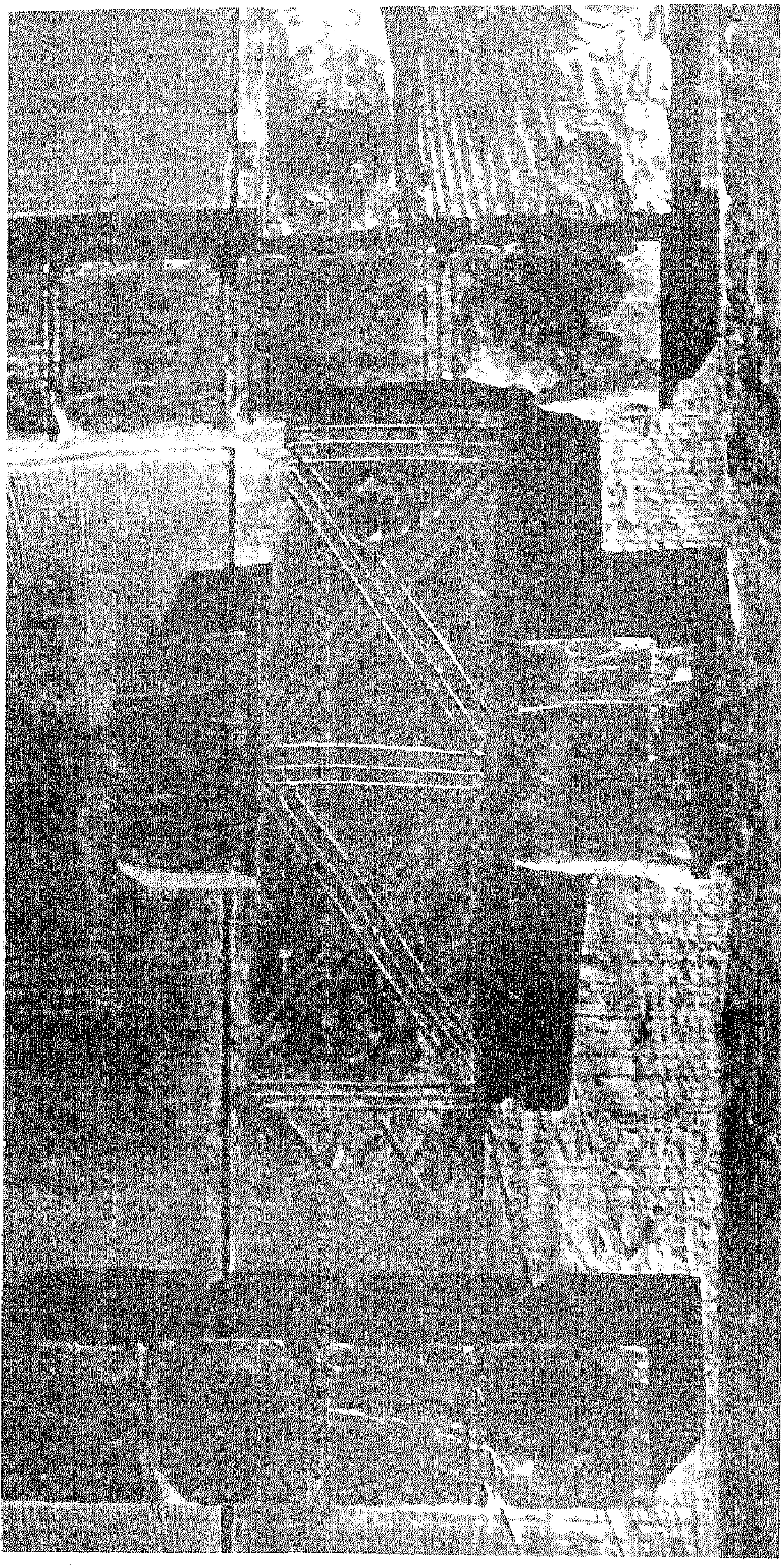


(لوحة رقم ٥٠)
احد منازل ظفار

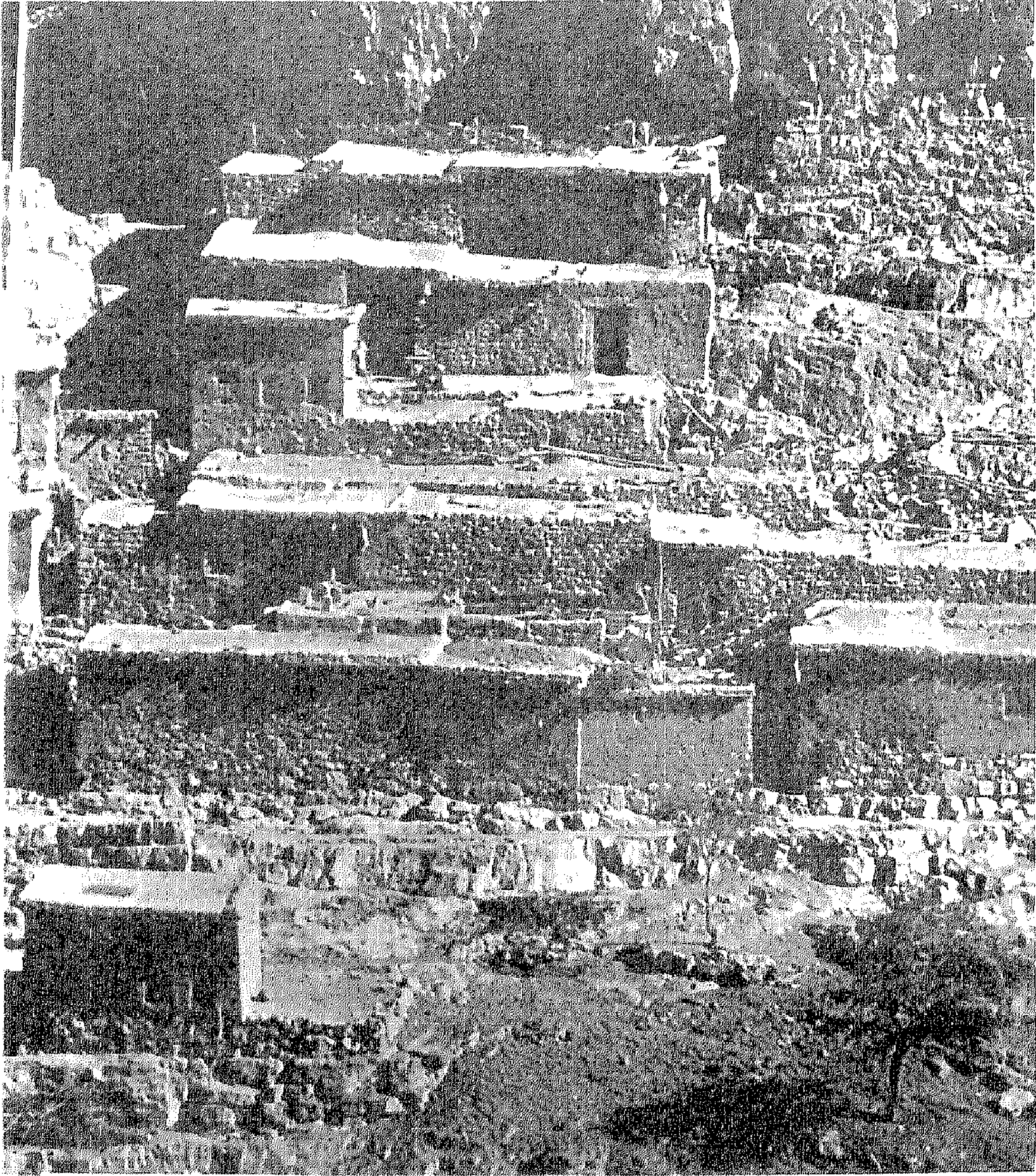




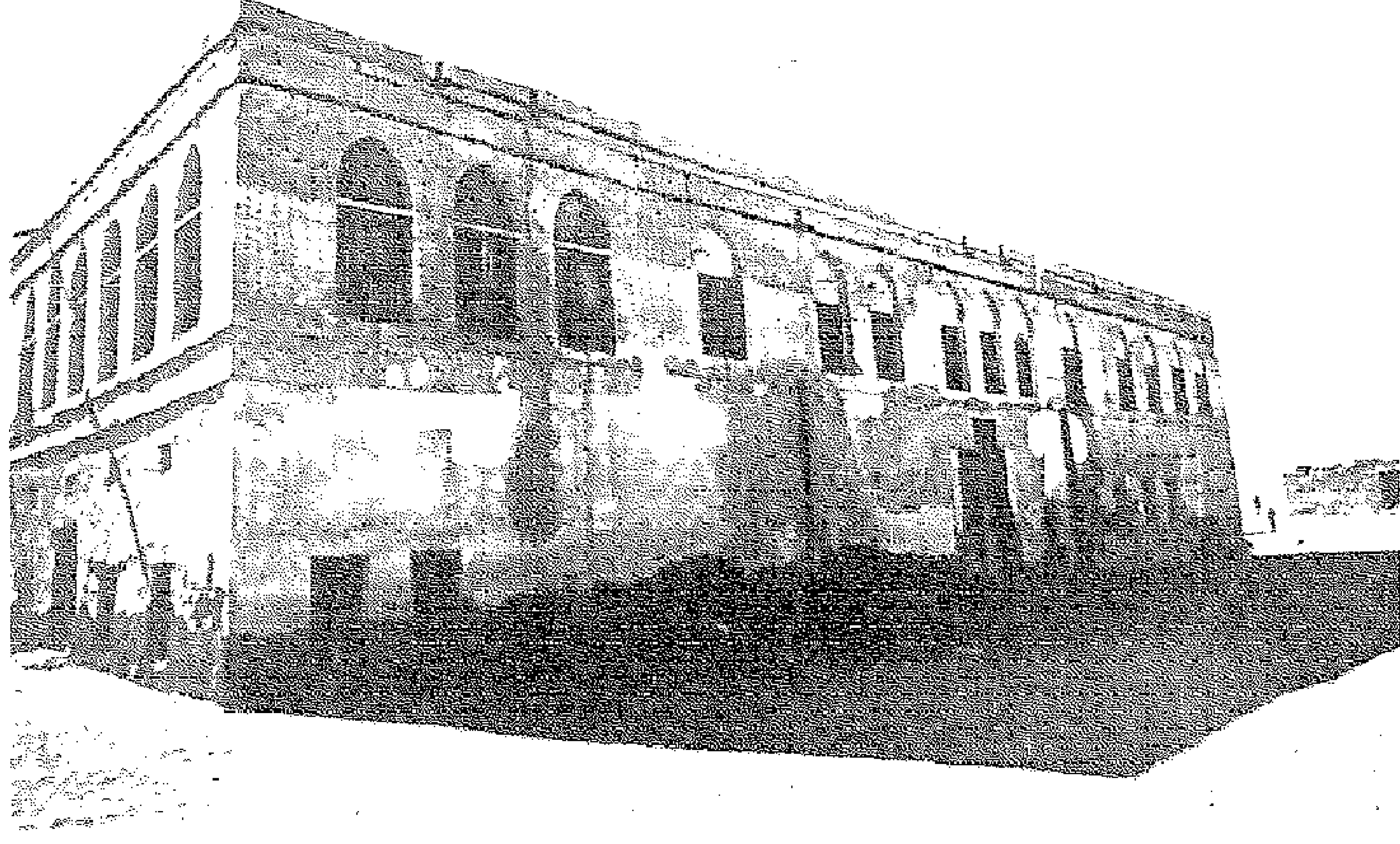
(لوحة رقم ٥١)
نوافذ وفتحات الدور والمنازل بظفار

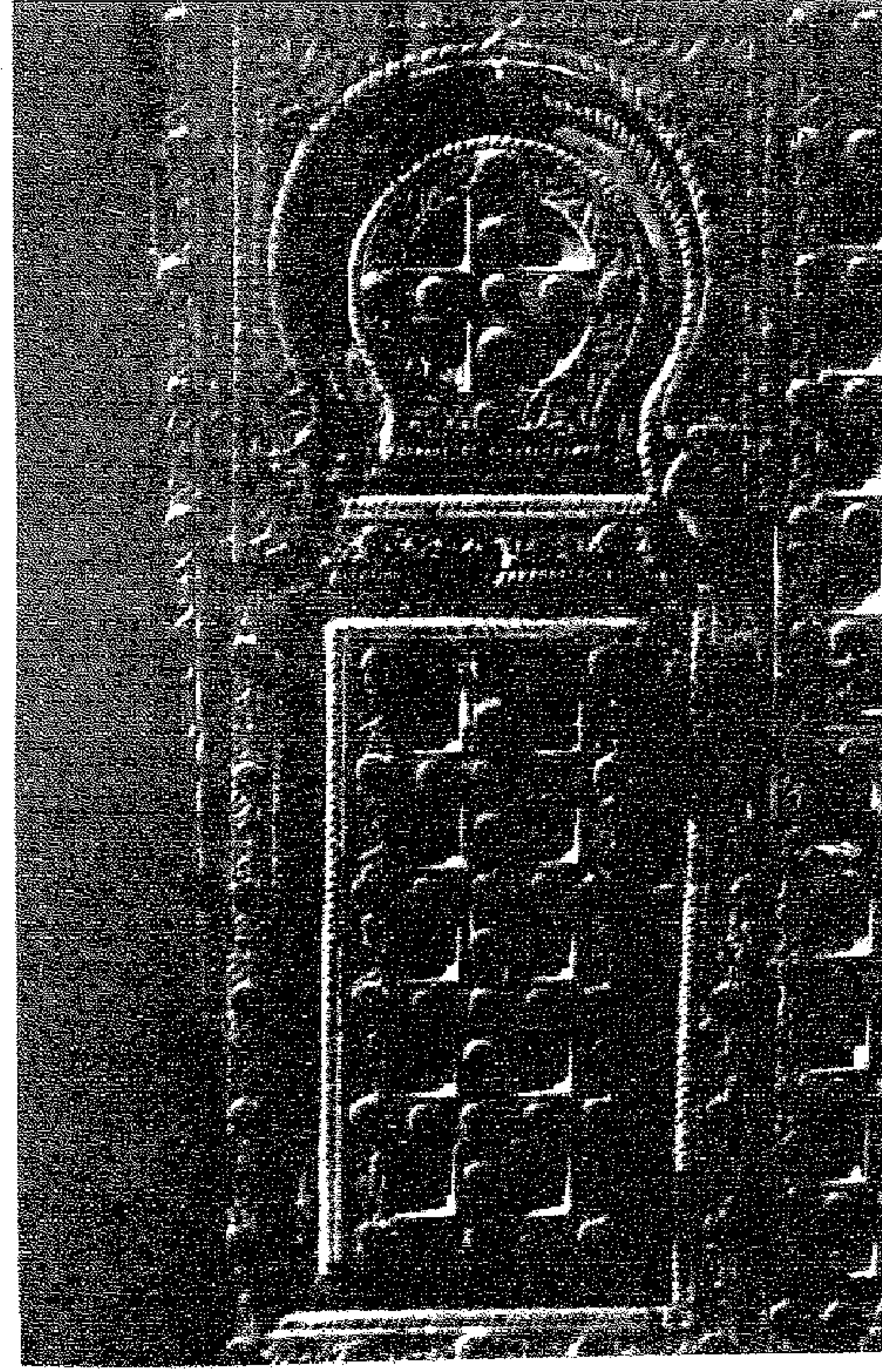


(لوحـة رقم ٥٢)
نماذج من أبواب ظفار الخشبية القديمة

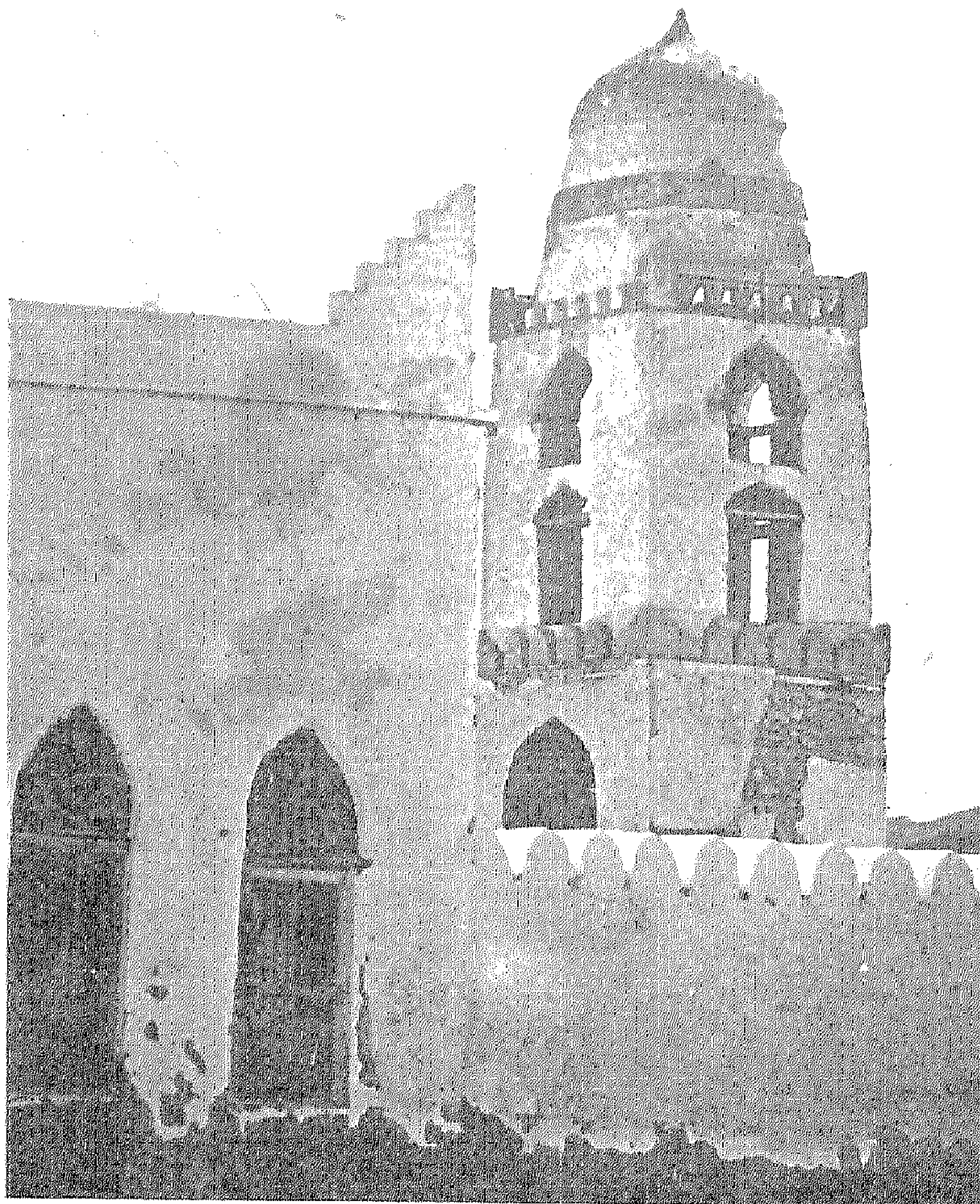


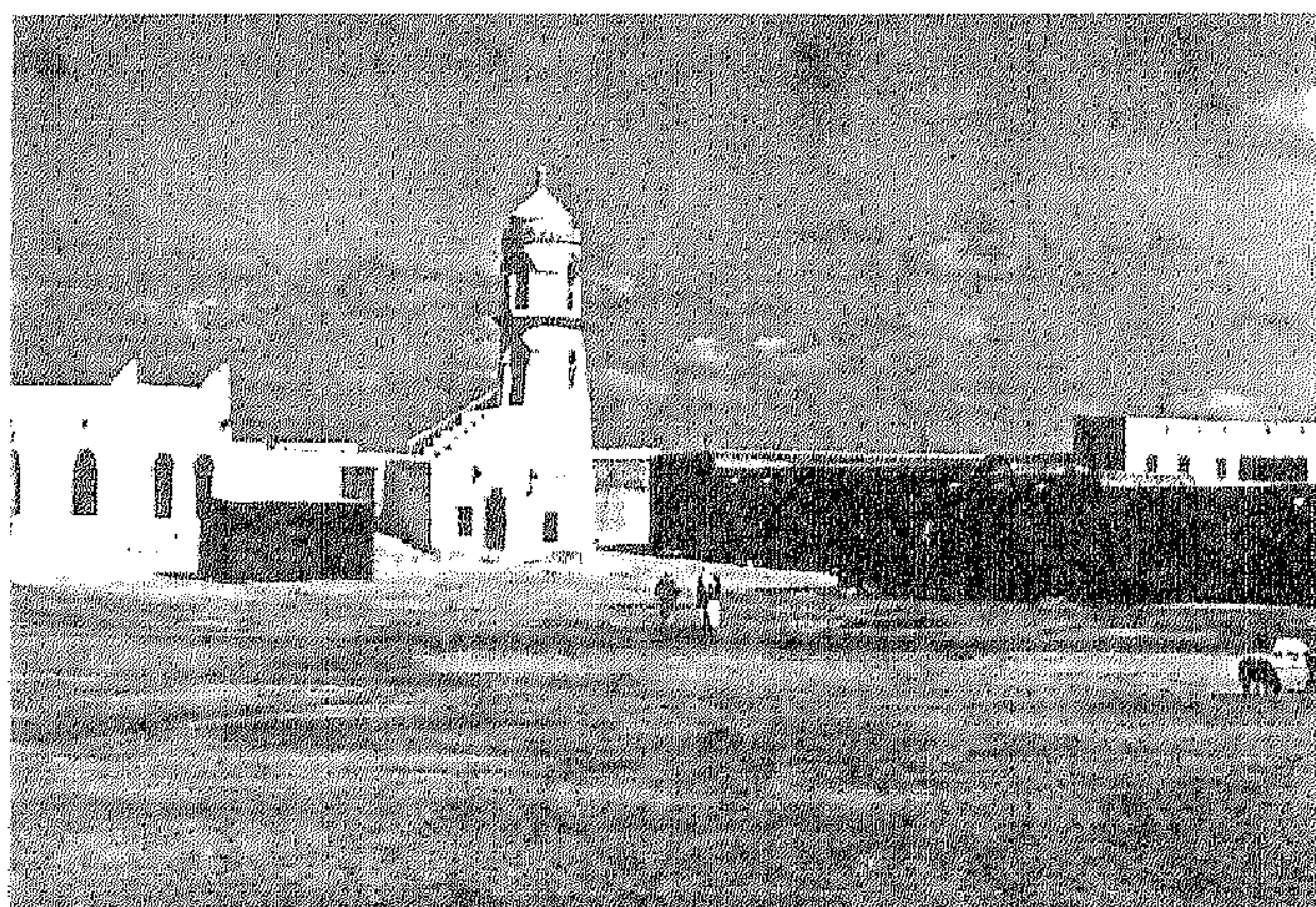
(لوحــة رقم ٥٣)
الدور المدرجة على سفح الجبل الأخضر





(لوحـة رقم ٥٤)
منازل مدينة صـــور وابوابها





(لوحـــة رقم ٥٥)
منظران لمسجد صور القديم

الحضارة الإسلامية
ودور العثمانيين فى تطويرها

للأستاذ الدكتور أحمد شلبى

هناك مقدمات مهمة لدراسة الحضارة الاسلامية ينبغى أن نبدأ بها ، هـــى :

المقـــــدمة الأولى :

ما الحضارة ؟ وهل هى الثقافة أو المدينة ؟ .

الثقافة فى اللغة هى التهذيب والصقل ، يقال ثقف الرمح أى قوّمـــه وســـواه ، ومعناها الاصطلاحى الرقى فى الأفكار النظرية ، وذلك يشمل الرقى فى القانون والسياسة ، والاحاطة بقضايا التاريخ المهمة ، والرقى كذلك فى الأخلاق والسلوك ، وأمثال ذلك من الاتجاهات النظرية .

وعلى هذا فالانسان المثقف هو الذى يستطيع أن يفصح عن انسانيته افضاحا يتحول به من شخص منساق بالغرائز والتقاليد الى شخص تحرر من عبودية الغرائز والتقاليد وأصبح يتبع فكرا سليما ناضجا ، فالثقافة ترمى الى الكشف عن آفاق الانسانية المتسامية .

والمدنية هى الرقى فى العلوم العملية التجريبية كالطب والهندســة والكيمياء والزراعة والصناعة والاختراع الآلى ، وسمى الرقى فى هذه العلوم مدنيَّة لارتباط الرقى فيها بالمدينة والاستقرار ، اذ لابد للطب من مستشفيات ولابد للهندسة من (ورشة) ولابد للزراعة من حقول تجارب وهكذا .

وعلى هذا فالمدنية تستهدف السيطرة على الطبيعة واخضاع ظروف البيئة للانسان ، ومن هنا كانت الثقافة تحريرا للانسان وتقويما له ، وكانت المدنية تعنى سيطرته على الأشياء وخلق وسائل منها لاسعاده .

ولا يستغنى الرقى فى العلوم التجريبية عن الحصول على قدر كاف من العلوم النظرية الداخلة فى نطاق الثقافة ، ولذلك نعيب الطبيب أو المهندس

الذى لا يعرف قضايا التاريخ المهمة أو اتجاهات السلوك الضرورية ، ونَصِفُه بأنه غير مثقف ، ويعد ذلك وصفا قاسيا يحاول كل انسان أن يتحاشـــاه ٠

أما الحضارة فتشمل الرقى فى المجالين جميعا ، فهى على العمـــوم **الانجازات التى تحققت للبشرية أو حققتها البشرية** ، فاذا تكلمنا عن حضارة المسلمين أو اليونان أو أوربا ، كان المقصود الانجازات التى حققها هؤلاء أو أولئك فى زمن معين ، وابراز الدرجة التى انتهى اليها هؤلاء فى درجات التقدم والتطور ، وشرح أحوال المجتمع الثقافية والفنية والعالمية والصناعية ، مع بيان طرق معيشته ، وذوقه ، وروحه العـــامة وطرق تفكيره ومســـتوياته المختلفة التى تطبعه بطابع مميَّز ٠

ولعل أحسن تعريف للحضارة هو ما ذكره ابن خلدون[1] وهو أنهـــا نمط من الحياة المستقرة ينشىء القرى والأمصار ، ويضفى على حيـــاة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة : وادارة شئون الحياة والحكم ، وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية ٠

ومن هنا اتجه القول الى أن الحضارة ارتباط بالحضر ، وهى لا تكتفى بالاستقرار والمدينة ، وانما تتطلع الى نظم أوسع تشمل عدة مدن ويعيش أصحابها متعاونين مستمتعين بهذه العلوم والفنون ٠

بيد أن فى تعريف ابن خلدون لمحة ينبغى الوقوف عندها ، فان ابن خلدون يرى أن الحضارة نمط من الحياة المستقرة ينشىء القري والأمصار ٠٠ أى أن انشاء القرى والأمصار نتيجة للحضارة وليس أصلا لها ، ومعنى هذا أن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٩ — ٢٦٠ ٠

الجماعة ترقى فكريا ثم ماديا ، أى تبدأ عندها مظاهر الحضارة ثم تستقر لتنمى هذه الحضارة ، لأن نمو الحضارة يحتاج الى استقرار لتقوم العـلوم التجريبية ، ولتشيد المعامل لتنهض الزراعة والصناعة ووسائل العمران .

واذا كانت الحضارة تشمل الثقافة والمدنية ، أى تشـمل الأخلاق والسلوك والمعارف النظرية ، كما تشمل العلوم التجريبية ، فان دولة ما مهما ضربت فى مجالات التقدم المختلفة يمكن أن تسمى انها غير متحضرة لو أنها عبثت بالقيم الانسانية ، أو كانت مستعمِرة غاشمة أو ظالمة جائرة ، فكل ذلك يتنافى مع مدلول الحضارة .

وفى ضوء هذا البيان يكون من الخير أن يتجه الباحثون لدراسـة « **الحضارة الاسلامية** » وألا يكتفوا بدراسة الثقافة الاسلامية أو المدنية الاسلامية ، لأنه فى ظل الاسلام وباسم مبادئه قامت حضارة عالية شملت الاتجاهات النظرية والاتجاهات التجريبية .

المقـــدمة الثـــانية :

عمـــان فى التـــاريخ الاســـلامى

عندما يتحدث الانسان فى مسقط عاصمة عمان[1] تندفع لنفسه خواطر رائعة عن عمان ، فان لعمان مكانة خاصة فى التاريخ العربى والتــاريخ الاســـلامى ، فان عمان هى الدولة الوحيدة بين الأقطار العربية التى كانت لها مستعمرات خارج المنطقة العربية ، مدت نفوذها لها بحد الســيف بعد أن طردت المستعمر الأوربى منها ، وبقيت عمان فى هذه البقاع برغبة سكانها لتحميهم من أطماع الغرب التى بدأت تظهر عقب طرد البرتغال •

ويتصل بهذا أن نذكر لعمان بكثير من الفخر أنها قاومت البرتغاليين بدون معونة من أحد ، وهى بهذا تعد فى صفوف الدول التى حطمت بالسيف قوى المستعمر الغاشم ، وأذلته وألزمته أحيانا أن يدفع الجزية وأحيانا أن يستسـلم •

ومن المواقف الحضارية التى تحسب لعمان دورها التجارى العظيم فى دنيا ذلك الزمان ، فقد غطئت تجارتها أكثر دول آسيا وافريقية ، وكانت لها السيطرة على أكثر بحار هذه المناطق ، كما كانت لها مراكز تجارية على جميع السواحل التى يرسو بها أسطولها التجارى العظيم ، وقد استدعت هذه الحركة التجارية النشطة تطهير ساحل ملبار من القراصنة الذين ينتمون الى مختلف الجنسيات الآسيوية والأوربية ، وهكذا سبق العمانيون الانجليز الى تلك السياسة التى ترمى الى تأمين الملاحة التجارية فى المحيط الهندى •

---

(١) القى هذا البحث فى مسقط ضمن بحوث الندوة .

المقـــــدمة الثالثة :

دور عمـــــان فى الحضـــــارة الاســـــلامية

اننى أتحدث عن الحضارة الاسلامية ، والحضارة الاسلامية من العلوم التى عنى بها صدر السلام ، ثم اختفى هذا العلم فى عصور الظـــلام ، بالضبط كما احتوى الظلام تاريخ عمان فترة من الزمن حتى أصبح الكثيرون لا يعرفون عنها الا القليل أو لا يعرفون عنها شيئا ، ولكن الجـــوهر الحـــر يستجيب لصاقله ، وسرعان ما يعود للبريق واللمعان .

وهكذا نقف على منابر عمان لنسهم مع قادة عمان ومفكريها فى حركة البعث التى تعمل بجد لتعيد هذا القطر العربى الى مكانته وعزته ، كما نقف لنسهم مع المفكرين المسلمين فى اعادة الحياة للحضارة الاسلامية ، فما أحوج المسلمين بل ما أحوج الجنس البشرى بأسره الى التعرف على هذه الحضارة التى لعبت بالأمس دورا عظيما لخدمة البشرية ، ولايزال عليها دور كبير لتقوم به فى حاضر البشرية ومستقبلها .

ومن الواضح أن الحضارة الاسلامية تتخذ أسسها من القرآن الكريم وأحاديث الرسول كما سنرى ، ولكن المفكرين المسلمين التقطوا هذه الأسس وشيدوا عليها صرح دراسة واسعة عن هذه المـــادة ، وكان لعلماء عمـــان ومفكريها فى العصـــور الأولى دور مهم أسهموا به فى بناء صرح هـــذه الحضارة الاسلامية ، وقد تنوع الدور الذى قام به العمانيون الأوائل ، ففى مجال التشريع والقضاء يقف كعب بن مسور بين القضاة المجتهدين ، وفى مجال الحرب والسلام وفنون القيادة العسكرية يتألق المهلب بن أبى صفرة ، وفى مجال الأدب وفنون الكتابة يزدهى العالم واسع الصيت أبو العباس المبرد ، وهناك علم العروض وهو برمته من وضع العالم العمانى الخليل بن أحمد الذى لم يـُعـْرَف من البحور بعده الا المتدارك ، أما فى مجال التجارة

والبحرية فقد سبق أن ذكرنا أن للعمانيين قصب السبق فيهما ، وهكذا لا يوجد ميدان حضارى لم يسهم فيه أساطين عمان وعلماؤها •

وهناك جانب حضارى كان لعمان فيه قصب السبق ، ذلك هو الجانب المعمارى ، فموقع عمان الاستراتيجى استلزم بناء كثير من الحصون والقلاع لتحمى عمان من الطامعين والمعتدين ، ولاتزال هذه الحصون شامخة تدل على براعة الذى اقترح والذى رسم والذين نفذوا •

علماء عمان يخدمون الحضارة بطريق غير مباشر :

وينبغى أن يتضح أن المسلمين الأول كانوا فى كثير من الأحوال يخدمون الفكر الاسلامى عن طريق الدراسة الجماعية ، وقد ظل الحال كذلك حتى النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى حيث بدأ يظهر العلمـــاء الذين يجمعون أفكار السابقين ويضيفون اليها من فكرهم وينسبون هذا العمل الى أنفسهم ، وان كان هؤلاء فى الحق لم يغمطوا حق السابقين ، فقد جرت عادتهم أن ينسبوا كل قضية الى الذين تباحثوا فيها وكل مسألة الى كل من أفتى فيها برأى ، وعلماء عمـــان كانوا ضمن الجماعات التى أسهمت فى النشاط الاسلامى الأول الذى كان العلماء فيه يتجاهلون أنفسهم ويهتمون بالفكر وتطويره ، وكان علماء عمان أيضا ضمن الذين ابتكروا وكتبوا فى عصور التدوين ونسبوا الكتابة لأنفسهم كما ذكرنا بعضهم من قبل •

ربما يخطر ببال أحد أن المبرد مثلا أو الخليل بن أحمد عاش فى بلاد غير عمان ، ولكن هذا شىء طبيعى فقد كانت بلاد الاسلام آنذاك وطنا واحدا لم تقف فيه حدود لتفصل بعض أجزائه عن البعض الآخر ، بل أن العلماء الموهوبين كانت تجتذبهم العواصم الكبرى ومراكز الخلافة حيث كانوا يجدون فرصا أوسع للشهرة والمجد ، وحيث كانت أعمالهم العلمية تجد وسائل أيسر للنشر والذيوع •

وعلى هذا يمكننا أن نقرر أن اصبع العمانيين عرفت طريقها الى أكثر البحوث والدراسات الحضارية بطريق مباشر أو غير مباشر •

المقـــــدمة الرابعـــة :

عمـــان وحركات التمـــرد فى عهـــد أبى بكر

أسجل هنا غيرة المؤرخين العمانيين المحدثين ، تلك الغيرة المحمودة التى تحاول أن تفسر الأحداث بما يؤكد تمسك العمانيين بالاسلام وعدم انحرافهم عنه فى أى عصر من العصـــور •

فقد أورد ابن الأثير(١) أنه بين حركات التمرد التى قامت فى عهد أبى بكر الصديق حركة قامت فى عمان بزعامة رجل اسمه ذو التاج (لقيط بن مالك الأزدى) ، وأرسل أبو بكر جيوشه التى دكت الجزيرة العربية للقضاء على هذه الفتن وكان الجيش الذى أرسل الى عمان بقيادة حذيفة بن محصن من حمير ، وأرسل أبو بكر الى عكرمة بن أبى جهل بعد أن اشـــترك فى القضاء على مسيلمة الكذاب أن يلحق بحذيفة ، ودارت معركة بين جيوش أبى بكر وبين المتمردين ، انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما ، وتسمى هذه المعركة موقعة « دبا » وقد انضم للمسلمين فيها من العمانيين بنو ناجية بقيادة الخريب بن راشد ، وبنو عبد القيس بقيادة سيحان بن صوحان •

ولكن المؤرخ العمانى السالمى يهاجم ابن الأثير وروايته ، ويرى أن كلامه باطل لا أصل له ، ويقرر أن سبب هذه الواقعة ان امرأة من بنى الحارث بن مالك بن فهد كان عليها أن تدفع الزكاة لعامل الزكاة ، ولكنها دفعت أقل مما كان يجب أن تقدمه ، فأخذ عامل الزكاة منها حق المسلمين غير مكترث برأيها فاعتبرت المرأة هذا غصبا وعدوانا ، وصرخت يا لآل مالك ، وكانت دعوة

---

(١) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ١٤٣ •

جاهلية استجاب لها بعض الناس دون تمحيص ، وصارعهم حذيفة وكان أمير الصدقات ، وقامت حرب ليست واسعة انتصر فيهـا الجـانب الاسلامى [1] .

ولم يذكر السالمى مرجعا لرأيه ،ولكن الذى يهمنا أن السالمى لم ير أن بلاده صارعت الخلافة أو خرجت على الفكر الاسلامى ، فراح يتلمس الوسائل لحرب دارت فى تلك العصور المتقدمة ، ولعل مما يؤيد كلام السالمى تلك العبارة الطيبة التى قالها أبو بكر الصديق لوفد عمان عندما قدموا عليه عقب توليته الخلافة وهذه العبارة هى :

« انكم يا معشر أهل عمان أسلمتم طوعا ، فجمع الله على الخير سملكم فقد بعث الرسول صلوات الله عليه لكم عمرو بن العاص بلاجيش ولا سلاح فأجبتموه اذ دعاكم مع بعد داركم ، وأطعتموه اذ أمركم على كثرة عددكم ، فأقام فيكم عمرو مكرما ما أقام ، وكنتم على خير حال حين أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاما حمدناكم فيه »[2] **فهذه العبارة تدل على كمال طاعة أهل عمان فى مطلع عهد أبى بكر** ، فهى تؤكد كلام السـالمى . وعلى كل حال فان كلام السـالمى فيه ما يسمى فى البلاغة العربية بحسن التعليل .

---

(١) تحفة الأعيان جـ ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

المقـــــدمة الخامســـة :

الحضارة الاسلامية هى المنقذ للمجتمع الاسلامى المعاصر

عندما تقدم للمجتمع الاسلامى صورة التصور الحضارى فى الفكر الاسلامى فاننا نقدم قاعدة انطلاق مهمة ، ونرسم خططا واضحة تحمل هداية الاسلام للسالكين ورشده للسائرين •

ومن الواضح أن العالم الاسلامى يمر الآن بفترة خطيرة ، ويعلن زعماؤه من حين الى آخر عن رغبة فى التطـــور فى المجـــالات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وأحيانا عن رغبة فى تحقيق دور أكبر للمرأة المسلمة واصلاح النظم التعليمية ، ونحن نتساءل : ما الأساس الذى سيشيد عليه هؤلاء اصلاحاتهم وتطورهم ؟ وهل سيتبنون حضارة الغرب أو الشرق ؟ •

ان الواقع يؤكد لنا أن هاتين الحضارتين عجزتا عن خلق الهدوء النفسى والأمن ، وعجزتا عن خلق الاستقرار فى الأسرة والقضاء على انحلالها الذى يزيد انتشاراً من يوم الى يوم ، وعجزتا عن القضاء على القلق الذى يدفع للوساوس والحقد والدمار ، ومن أجل هذا ينبغى أن نعود الى الاسلام ونتخذ من الحضارة الاسلامية أساسا لانطلاقنا ، وقاعـــدة لتطورنا ، وستمدنا الحضارة الاسلامية بالعناصر المهمة فى جميع المجالات التى تكفل حسن علاقة الانسان بربه وحسن علاقة الانسان بالانسان والمجتمع •

المقـــــدمة الســادسة :

الحضارة الاسلامية هبة الاسلام لكل البشر

وبادىء ذى بدء نقرر أن الحضارة الاسلامية هبة الاسلام للجنس البشرى كله ، فهى ترسم فى مجالات السياسة والاقتصـــاد والحيــاة الاجتماعية وغيرها أوضح طريق لسعادة الناس على اختلاف عقائدهم وأديانهم ، ثم ان بعض جوانب هذه الحضارة وهو جانب الحضـــارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك والموسيقى قد أسهم غـير المسـلمين فى تطـويره بقسط كبـير ومن هؤلاء جورجيس بن بختيشوع (٧٧١ م) وابنه بختيشــوع بن جورجيس (٨٠١ م) وجبريل تلميذ بختيشــوع (٨٠٦ م) ويوحنا بن ماسويه (٨٥٧ تقريبا) وحنين بن اسحق (٨٧٣) ، وقد عمل هؤلاء فى الترجمة بتشجيع الخليفة المسلم ورعايته ، وأصبح الأخيران بالتوالى رئيسين لبيت الحكمة فى عهد المأمون •

وكانت محاضرات الحضارة الاسلامية تلقى علينا بجامعتى لندن وكمبردج وكان الطلاب يتبعون ديانات مختلفة ، وطالما كانت هذه الحضارة تلاقى فى نفوس الطلاب كل اعجاب وتقدير •

ثم اننا سنرى فيما بعد أن الحضارة الاسلامية انتقلت من العالم الاسلامى الى الهند والصين وأوربا ، ثم من أوربا الى العالم كله ، وأسهمت بنصيب كبير فى خلق مايعرف بعصر النهضة ، وسنقدم فيما بعد اعترافات الغربيين بذلك •

وكل هذا يؤكد ما ذكرناه آنفا من أن الحضارة الاسلامية هى منحة الاسلام للجنس البشرى كله •

ما الحضارة الاسلامية ؟ :

بعد هذه المقدمات المهمة نخطو للحديث عن الحضارة الاسلامية ، ونبدأ بأن نتساءل : ما الحضارة الاسلامية ؟ •

فى الاجابة عن ذلك نقرر أن الحضارة الاسلامية هى الارشادات والتعاليم التى قدمها الاسلام للمجتمع البشرى ليرفع شأنه ويعلى قدره تحقيقا لقوله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم » (سورة الاسراء — الآية ٧٠) وهى كذلك الانجازات التى تحققت على يد المسلمين استجابة للدافع الاسلامى الذى حثهم على العلم والعمل لخير البشرية •

وتشمل الحضارة الاسلامية تعبيرين شائعين هما الثقافة والمدنية كما ذكرنا من قبل ، فالثقافة هى الرقى فى الأفكار النظرية كالقانون والسياسة والتاريخ والاقتصاد والأخلاق ، وغيرها ، والمدنية هى الرقى فى الأفكار العملية التجريبية كالطب والرياضة والفلك والزراعة والموسيقى وأمثالها •

واذا كان القرآن الكريم وأحاديث الرسول قد قدما فيضا من الفكر لخلق ثقافة اسلامية رفيعة الشأن ، فان هذين المصدرين أعانا على التقدم العظيم فى مجالات العلوم التجريبية بالحث على طلب العلم والمعرفة فى مختلف فروع العلم والمعرفة ثم بالحث على استغلال هذا العلم فى خدمة الانسان وعمران الكون الذى سخره الله لنا •

ومن أدلة الحث على العلم نذكر ما يلى :

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الزمر ٩) •

— انما يخشى الله من عباده العلماء (فاطر ٢٨) •

— يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (المجادلة ١١) •

— قول الرسول صلوات الله عليه : يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشـــهداء •

— والقول المأثور : اطلبوا العلم ولو فى الصين •

وليس المقصود بالعلم فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة هو العلوم الدينية فقط بل كل العلوم التى تنفع الانسان اذ لم يكن بالصـــين علوم دينية يطلبها المســلم •

ومن أدلة استغلال هذا العلم فى عمران الكون وخدمة الانسان نورد ما يلى :-

— هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه (سورة الملك — الآية ١٥) •

— وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها (سورة النحل — الآية ١٤) •

— وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعـــا منـــه (سورة الجاثية — الآية ١٢) •

— قيل للرسول أرأيت دواء نتداوى به ، هل يرد من قدر الله شيئا ؟ فقال : هو من قدر الله •

وعلى هذا فان نشاط المسلمين الذى سنراه فيما بعد فى مجال العلوم التجريبية كان بسبب هذا الدافع الاسلامى القويم •

بقى أن نذكر أن الحضارة تشمل الثقافة والمدنية جميعا ، ومن أجـــل هذا فاننا نحرص على أن نتكلم عن الحضارة الاسلامية ، ولا نقنع ولا نرتضى أن نتحدث عن الثقافة الاســـلامية كما يتجه بعض الناس أو عن المدنية

الاسلامية كما يتجه آخرون فالحضارة الاسلامية أشمل ، وهى منحـــة الاسلام لخـــير البشرية ٠

ولنخط بعد ذلك خطوة فيها بعض التفصيل لمـــا أجملناه من قبل :

« أنواع الحضـــارة الاســـلامية »

الحضارة الاسلامية ثلاثة أنواع هى :

١ ــ حضارة الدول (أو حضارة التاريخ) ٠

٢ ــ الحضارة الاسلامية الأصيلة (أو حضارة الابتكار والخلق والابداع) ٠

٣ ــ حضارة البعث (أو الحضارة التجريبية) ٠

وسنتكلم فيما يلى عن كل منها على حدة ، ولكننا نبادر فنصحح خطأ طال مداه ، **فقد كان هناك اتجاه سائد يرى أن الحضارة الاسلامية هى ما وصل له المسلمون من تقدم فى مجال العمران أو فى مجال الطب والرياضة ، وهذا خطأ واضح ، فأرقى ما قدمته الحضارة الاسلامية للبشرية هو ما أسميناه الحضارة الاسلامية الأصيلة ، وهى تلك الحضارة التى جاء بها الاسلام ولم تكن موجودة قبل الاسلام** كالنهج الاســـلامى فى السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم ٠٠٠ وبعد هذا التصحيح المهم ننتقل للحديث عن أنواع الحضارة بشىء من التفصيل :

١ — حضـــارة الدول أو حضـــارة التاريخ

حضارة الدول أو حضارة التاريخ ، هى الحضارة التى **قامت بها دولة من الدول الاسلامية لرفع شأن الانسان وخدمته** ، والحـــديث عن هذه الحضارة يلزم أن يقوم به معلم التاريخ وأن يعنى به عناية تامة ، فاذا درس تاريخ الدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية أو السعودية أو دولة بنى يعرب أو البوسعيديين ••• كان عليه أن يقف عقب الانتهاء من دراســة الأحداث وقفة كافية يشرح فيها ما قدمته هذه الدولة فى مجال الحضارة ، أى ما قدمته لخدمة المواطن بوجه خاص ، أو الانسان المسلم بوجه عام أو الجنس البشرى بوجه أعم ، ويشمل ذلك جهــود الدولـــة فى الميدان الاقتصادى (الزراعة والتجارة والصناعة) وفى ميدان التربية والتعليم ، وفى ميدان الصحة ، وفى ميدان الأمن بالداخل والأمن من العدوان الخارجى ، وغير ذلك من الميادين •

وهذا النوع من الحضارة مرتبط — كما قلنا — بالتاريخ وجزء مهم من أجزائه ، ولذلك أشرنا هنا له هذه الاشارة العابرة وسنتخطاه الى النوعين الآخرين ، اللذين يكونان الحضارة الاسلامية المستقلة الكيان •

٢ — الحضارة الاسلامية الأصيلة

(حضـــــارة الابداع والخلق والابتـــكار)

الحديث عن هذا النوع من الحضارة يشمل عدة نواح هى تبيان النهج الاسلامى فى السياسة ، وفى الاقتصاد ، وفى التربية والتعليم ، وفى الحياة الاجتماعية ، وفى السلم والحرب ، وفى القانون والقضاء ، وفى حرية التدين ، وحقوق المرأة والقضاء على الرق ، وسنتحدث فيما يلى عن اتجاهات الاسلام تجاه هذه الموضوعات :

« الاســلام والسـياسة »

قبل الاسلام كان التفكك سائدا ، وكانت القوة هى الوسيلة ليصـل الانسان الى الحكم ، وكان الحاكم هو مالك الاقطاع وصاحب الثراء ، ولم يكن هذا ملتزما بأن يستشير ، ولا بأن يتبع الاستشارة ان قدمت اليه ، ولم تكن الشعوب تستطيع عزل الحاكم ان حاد عن الحق أو ظلم ..

وجاء الاسلام فعنى بالسياسة عناية عظيمة ، ووضع لها الحدود والقوانين، وقدم للبشرية فى هذا النطاق أكثر النظم رسوخا وفائدة ، وأول ما عنى به التفكير الاسلامى فى نطاق السياسة أن ألزم قيام حكومة تدير أمور الناس وتنظم شئون المجتمع الاسلامى ، وقد أجمعت المصادر الرئيسية على ذلك ، فمن كلام الله الكريم قوله تعالى :

— يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . (سورة النساء : الآية ٥٩)

— ولو ردوه الى الرسـول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . (سورة النساء : الآية ٨٣)

ومن أحاديث الرسـول قوله :

— من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية .

— اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمّروا أحدهم .

— لا يحل لثلاثة يكونون فى فلاة من الأرض الا أمّروا عليهم أحدهم .

— ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا امام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه مجلسا امام جائر •

ومن أقوال السلف الصـــالح :

— قول أبى بكر عقب وفاة الرسول : ••• ان محمداً مضى بسبيله ، ولابد لهذا الدين ممن يقوم به •

— وقول عمر بن الخطاب : لا اسلام الا بجماعة ولا جماعة الا بامارة، ولا امارة الا بطاعة •

والحكومة الاسلامية تقوم بعمل له شقان ، الشق الأول تعليم المسلمين الأحكام والشق الثانى انزال العقوبة بمن يخالف هذه الأحكام •

وليس كل فرد مسلم يستطيع أن يكون خليفة أو رئيسا ، فقد وضع التفكير الاسلامى شروطا لمن يتحمل هذه المسئولية ، ومن هذه الشروط العدالة ، والعلم المؤدى للاجتهاد ، وسلامة الحواس ، وسلامة الأعضاء والشجاعة ، ويهتم التفكير الاسلامى اهتماما كبيرا بشرط العدالة ويراه قمة الشروط اللازمة للخليفة أو الرئيس ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة •

— اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به •

ويروى أبو عبيد تعليقا مهما لأحد العلماء على هذا الشرط ، بقوله : ان الامام العادل يُسكت الأصوات عن الله . وان الامام الجائر لتكثر منه الشكايا الى الله [١] .

ويقوم أهل الحل والعقد باختيار الرئيس ممن تتوافر فيهم شروط الخلافة ، ويسير الخليفة أو الرئيس فى حكم المسلمين على النمط الــذى حدده الاسلام وهو الشورى ، قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر »[٢] وقال « وأمرهم شورى بينهم »[٣] .

ويرى الفكر الاسلامى أن قلة مرتب العامل قد تدفعه الى الشطط ، ولذلك اتجه المفكرون المسلمون الى اعطاء العامل مرتبا فيه نوع من السخاء ، حتى يرتفع بذلك عن الشبهات وفى ذلك يقول الامام على : « ان على ولىّ الأمر أن يفسح لعامله فى البذل لتزول بذلك علته وتقل معه حاجته الى الناس . ويخاطب الامامُ على ولىَّ الأمر بقوله : أسبغ على ولاتك الأزراق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، ومَنْعٌ لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو نقضوا الأمانة » [٤] .

---

(١) كتاب الأموال : ص ٦ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
(٣) سورة الشورى : الآية ٣٨ .
(٤) نهج البلاغة : ص ٣٤٠ .

الحـكومة الاسلامية بين الحكومات المعروفة

بقى بعد ذلك أن نورد مقارنة بين الحكومة الاسلامية وبين الحكومات فى النظم الأخرى المعروفة كالحكومة الديكتاتورية والحكومة الديمقراطية ، والحكومة الثيوقراطية ، ولنبدأ حديثنا متسائلين :

— هل الحكومة الاسلامية ديكتاتورية ؟ •

— هل الحكومة الاسلامية ديمقراطية ؟ •

— هل الحكومة الاسلامية ثيوقراطية ؟ •

لن الاجابة عن هذه الأسئلة ليست عسيرة بعد ما قدمنا من دراسات ، ويمكن القول دون أى تردد أن العناصر التى أوردها الاسلام للحـــكومة الاسلامية ، والتى أوجزناها فى هذا البحث ، تقودنا الى نتيجة حاسمة ، هى أن النظام الاسلامى له طابعه الخاص ، وله مميزاته وخصائصه التى تجعله لا ينضوى تحت أى من النظم الأخرى لأية حكومة من الحكومات ، وسنسوق فيما يلى بياننا به شىء من التفصيل لهذا الاجمال •

الاســــلام والنظـــام الديكتاتورى :

ولعل أكثر النظم بعدا عن النظام الاسلامى هو النظام الديكتاتورى ؛ فعناصر النظام الاسلامى هى — كما سقناها آنفا — حق الشعب فى اختيار حاكميه وحقه فى نقدهم ، وواجب الشورى ، وحقه فى عزلهم • وهذه العناصر لايتيحها النظام الديكتاتورى •

الاسلام والنظام الديمقراطى :

وتأتى بعد ذلك الحكومات الديمقراطية ، وهى — ان صحت فيهـا الديمقراطية — قريبة الشبه بالنظام الاسلامى ، فكلاهما يجعل الاختيار أساس قيام الحكومة ، ويحتم الشورى فى الحكم ، ويبيح للشعب عزل الحكومة لو جدت ظروف تستدعى العزل • ولكن تبقى نقاط مهمة تفرق بين النظام الديمقراطى والنظام الاسلامى وهذه النقاط هى :

١ — تضع الحكومة الديمقراطية للناس مقاييس الرذائل والفضائل ، ولكن الحكومة الاسلامية لا تضع هذه المقاييس ، بل ان الشرع الاسلامى هو الذى وضعها وعلى الناس اتباعها ، وقد جعلت الديمقراطية الغربية الاستعمار فضيلة ، والتفرقة العنصرية فضـيلة ، وجعلت العـدالة مع الشـعوب المستعمرة رذيلة وهـكذا ••

٢ — تشرع الحكومة الديمقراطية للناس فى مختلف الشئون ، ولكن الحكومة الاسلامية ليس لها أن تشرع فيما شرع الله ، فيه ، فليس لها مثلا أن تغير فى نظـام الميراث الذى ورد به نص صريح ، ويكون تشريعها فيما لم يرد فيه نص دائرا فى نطاق التفكير الاسلامى العـام •

٣ — يختار الشعب رئيسه فىالنظام الديمقراطى غير مقيد بقيد ، ولكن الشعب فى الاسلام لا يجوز له أن يختار الا من اجتمعت فيه شروط معينة سبق ذكرها •

الاســلام والنظام الثيوقراطى :

بقى بعد ذلك الحديث عن الحكومة الثيوقراطية ، ويخيل لبعض الناس أن النظام الاسلامى نظام ثيوقراطى ، ومرجع هذه الشبهة أن كلا منهما له صلة بالدين ،ولكن الحقيقة أن الفرق بينهما شاسع ، لأن الثيوقراطية حكم رجال الدين الذين يدعون الصلة بالله وتقلى الوحى منه على مر الزمن ، ومن هنا لا يقبلون مناقشة أحد ، آما الحاكم المسلم فلا يتلقى وحيا من الله ويلزمه الشورى ويوضح Sir Thomas Arnold [١] هذا الفرق بقوله :

ان البابا مميز بسلطاته الروحية ، ووظائفه الدينية ، وهو يقود أرواح الناس ، وليس شخصا مسيحيا عاديا ؛ بل ان له سلطة دينية خاصة يستطيع بها أن يشرع ، وأن يغفر السيئات . أما الخليفة فلا يوحى اليه ، ولا يشرع، وليس الا منفذا لأحكام الدين ، وأن سلطة تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء ، وان الامامة فى الصلاة التى تعود الخليفة أن يتولاها كان من الممكن أن يقوم بها أقل فرد من المسلمين .

والبابا عند المسيحيين له سلطان الهى ، فهو ينفرد بتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان . فليس للمسيحى مادام مسيحيا أن يخالفه [٢] .

أما تلقى الشريعة فى الاسلام فمن القرآن والحديث بدون توسط أحد من سلف أو خلف مادام المسلم قد حصل على الوسائل الثقافية التى تؤهله للفهم ، فان لم يكن قد حصل على هذه الوسائل فما عليه الا أن يسأل العارفين بها من المسلمين ، وله أن يطالب المسئول بالدليل [٣] .

---

(١) Preaching of Jslam p. 306.

(٢) الامام محمد عبده : الاســلام والنصرانية ص ٦٧ وانظــر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(٣) المرجع السابق ص ٦٤ — ٦٥ .

تلك دراسة عن السياسة فى الاسلام اتجهنا فيها الى شىء من التفصيل للابانة والايضاح ، وسنتجه فيما يلى للايجاز حتى تظل دراستنا فى نطاق الحدود المعينة لحجم البحث .

« الاســـلام والاقتصاد »

اذا جئنا الى الاقتصاد وجدنا أن الاسلام جاءت فيه نظم اعتبرت آنذاك ثورة على الفكر البشرى الذى كان سائدا . فقبل الاســـلام كان الفقير هو الذى يدفع الضريبة للغنى من جهده أو ماله ، فاذا تردد دفع دمه فداء تردده ، فلما جاء الاسلام جعل الضريبة واجبة على الغنى لصالح الفقير ، وحدد القدر الواجب على الغنى دفعه للفقير ، ولم يترك ذلك لرغبته ، كما حدد الوقت الذى يجب أن تخرج فيه الزكاة دون تأخير ، قال تعـــالى :

— فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .
— وآتوا حقـــه يوم حصاده .

وألزم الفقير بالعمل ، فان عجز أو هرم التزمت الدولة أو الأغنياء بحاجته ، واعترف الاسلام بالملكية الفردية ، ففى تقرير الملكية الفردية مجال للتنافس الذى يسبب الخير للجميع ، واعترف كذلك بالتفاوت فى هذه الملكية قال تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق »(١) ، وقال : « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »(٢) ، وقال : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » (٣) .

---

(١) سورة النحل : الآية ٧١ .
(٢) سورة الرعد : الآية ٢٥ .
(٣) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

ويقرر علماء الاسلام أن التفاوت فى المال طبيعى جدا لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من المال كالصحة والذكاء ، ومتفاوتون فى مدى نجاح الزواج والجوار ، وفى الجمال والصـوت فكيف نمنع التفاوت فى المـــــال ؟ •

ونظم الاسلام تكافؤ الفرص لتنتقل هذه الملكية من يد الى يد ، كما وضع نظام الميراث لتفتيتها من حين الى حين حتى لا يجتمع الغِنَى فى أيد قليلة فيضر ذلك بالمجموع •

« الاســلام والتعــليم »

وفى مجال التربية أعلن الاسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية أن العلم حق للجميع ، وكان العلم قبل ذلك خاصا بالكهنة ولاحق لسواهم فى طلبه ، فارتفع هذا التخصيص بالآية الكريمة « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم »[1] فأصبح المسلمون جميعا ما بين معلم ومتعلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ولم يكن المقصود بالعلم العلوم الاسلامية فقط لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث آخر « اطلبوا العلم ولو فى الصين » والمقصود مهما بعدت الديار ومهما كان نوع العلم ، مادام مفيدا للبشرية وقد أشرنا لذلك من قبل •

واهتم الاسلام اهتماما كبيرا بالتربية الاسلامية ، وكان مفهوم التربية عند المسلمين يشمل فلسفة التربية كما يشمل النظم التعليمية ، والحضارة الاسلامية واسعة الثراء فى مجال التربية ، وهى تهتم بالانسان فى هذا

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٣ .

المجال من المهد الى اللحد ، فهناك أخلاق وعلوم تتقدم لكل جيل من الأجيال ، وقد اتسعت معاهد العلم عند المسلمين فشملت القصور وحوانيت الوراقين ، ومنازل العلماء ، والصالونات الأدبية بالاضافة الى المعاهد والجامعات ، كما كانت البادية والمسجد معهدين مهمين ، ففى البادية ازدهرت علوم اللغة العربية ، وفى المسجد ازدهرت شتى الدراسات ، واهتمت التربية الاسلامية بالكتاب اهتماما عاليا ، فأعلت قدره ، ورفعت مكانته ، كما كانت المكتبات معاهد للعلم فى كثير من البلدان .

وعنيت التربية الاسلامية ، بأن يتلقى الطلاب العلم من المعلمين ، لا من الصحف والكتب ، كما اهتمت بضرورة تقديم فن التربية للمدرس بحيث لا يكون عالما فقط ، بل بحيث يستطيع فى يسر توصيل أفكاره الى مريديه .

وتحدثت التربية الاسلامية أحاديث فياضة عن التعاون بين البيت والمدرسة فى تربية التلميذ ، وعن الاجازات العملية ، والعقوبات والجوائز والمكافآت وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص فى التعليم عند المسلمين ، وتوجيه التلاميذ حسب مواهبهم ، كما تحدث الفكر الاسلامى عن الأوقاف على التعليم ، وعن مراحل التعليم ، ونظام الداخلية بالمدارس ، والرحلات لطلب العلم ، وتعليم المرأة ، واهتم الفلاسفة المسلمون بالحديث عن رياضة الأطفال ، والوسائل التى تتخذ لغرس الخلق الطيب فى قلب الطفل الذى يمثل جوهرة نفسية ساذجة ينقش عليها المعلمون أفكارهم وثقافاتهم ، كما اهتموا اهتماما واسعا بالسلوك وبلغ من اهتمامهم به أن فضلوه على العلوم (١) .

---

(١) انظر فى ذلك « التربية الاسلامية : نظمها — فلسفتها — تاريخها » للمؤلف .

« الاسلام والحياة الاجتماعية »(*)

حفلت الحياة الاجتماعية فى الاسلام بمباحث اجتماعية مهمة ترتبط بالأسرة وبالمجتمع وبالمال ، ومن المباحث الاجتماعية التى ترتبط بالأسرة دراسات مفيدة عن الزواج ودوافعه وأهدافه ، وعن الخطبة والمهر والعقد ، وعن الأولاد والتسوية بينهم فى العطاء والمعاملة ، وعن زوجة الأب والحماة ، والختان وتحديد النسل ، والتلقيح الصناعى والتكافل بين أفراد الأسرة .

وعن المباحث الاجتماعية المرتبطة بالمجتمع ، تقدم الحضارة الاسلامية رأى الاسلام فى رعاية المال العام وحمايته ، ورأيه فى الأعياد والأفراح والمآتم والأولياء والموالد وصناديق النذور ، وفى الخمر والمخدرات والدخان، وغير ذلك من المباحث المهمة .

ومن المباحث الاجتماعية فى نطاق المال ، تقدم الحضارة الاسلامية دراسة رائعة عن الربا والبنوك ، والشركات والأسهم ، وما شابه ذلك .

وفى مجال التشريع الاجتماعى كذلك حدد الاسلام عدد الزوجات ولم يكن عدد الزوجات قبل الاسلام محددا ، ووضع الاسلام نظام الميراث الذى أنصف كل الأطراف .

(*) يراجع كتاب « الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى » للمؤلف .

« الاسلام فى مجال السلم والحرب »(*)

كان العالم قبل الاسلام يعانى حروبا مستمرة ، ومعارك متصلة ، وكانت القوة هى دستور الحياة ، فكان من حق القوى أن يأكل الضعيف ، فجاء الاسلام ووضع للسلم والحرب نظما دقيقة أنقذت البشرية من أهوال الصراع والدماء ، ومن الأسس التى وضعها أن جعل السلام أساس الحياة : قال تعالى : « يأأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين »[1] .

وأوصى بالتعاون والمودة حتى مع المخالفين فى العقيدة مادام هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين ، قال تعالى « ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »[2] .

وقال : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »[3] .

وحدد الاسلام الحرب بالدفاع ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »[4] ووضح أنه بعد قيام المعركة يمكن التوقف عن الاستمرار فيها لو عاد العدو للسلام قال تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »[5] .

(*) يراجع كتاب « الجهاد والنظم العسكرية » للمؤلف .
(١) سورة البقرة الآية ٢٠٨ .
(٢) سورة الممتحنة : الآية الثامنة .
(٣) سورة النساء : الآية ٩٠ .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .
(٥) سورة الانفال : الآية ٦١ .

وقد جاء الاسلام فى نظام الحرب بقواعد لم تعرفها البشرية من قبل ، بل لم تستطع أن تأخذ بها حتى الآن ، اذ حـــرّم قتل الشيوخ والنساء والأطفال الذين لم يشتركوا فى المعركة ، كما حرّم قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار ...

« القانون والقضـــاء فى الاســـلام »(*)

وفى مجال القانون قدم الاسلام تشريعا صالحا لكل زمان ومكان ، تشريعا عام المصدر ، أى لم تقم بعمله جماعة خصصت لذلك بالجنس أو الدم وترك لها أن تشرع للناس ، والتشريع الاسلامى كذلك عام التطبيق ، أى انه ينفّذ على الملك وعلى السوقة دون تفرقة ، وهذا الموقف كان الأول من نوعه فى تاريخ البشرية .

وقدمت الحضارة الاسلامية نظما قضائية تكفل العدالة المطلقة لكل الناس ، وتقرر مبادىء لم يكن الجنس البشرى يعرفها قبل الاســـلام ، كالمســـاواة بين المتخاصمين فى مجلس الحكم ، وكالشروط الحاسمة التى يجب أن يتحلى بها القاضى ، وكالعلنية فى القضاء ، تلك العلنية التى تجعل من الرأى العام حارسا للعدالة وقواما على الانصاف .

« حرية التدين وحقوق المرأة والقضاء على الرق »

وقرر الاسلام حرية التدين ، ولم يكن ذلك معروفا قبل الاسلام ، قال تعالى « لا اكراه فى الدين »[1] وقال تعالى يطلب من الرسول أن يقول لغير المسلمين « لكم دينكم ولى دين »[2] .

(*) يراجع كتاب تاريخ التشريع الاسلامى وتاريخ القضاء فى الاسلام للمؤلف .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة الكافرون : الآية السادسة .

وقرر الاسلام حقوق المرأة وأعطاها نصيبا من الميراث ، ولم يكن للمرأة فى العالم حقوق تذكر آنذاك ، وكان ما جاء به الاسلام أساس ما حصلت عليه المرأة من حقوق بعد ذلك .

ووضع الاسلام الأسس للقضاء على الرق الذى كان شائعا قبل الاسلام فى العالم كله ، وجاء فى ذلك قول الرسول : شر الناس من باع الناس .

تلك لمحة سريعة عن الحضارة الاسلامية اقتبسناها من الدراسات الواسعة التى كتبناها عن هذه الحضارة فى موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، وقد قدمت هذه الحضارة للمجتمع البشرى ما لم يكن معروفا وقتها ، واذا كنا ننعم بها أو ببعضها الآن فلنتذكر أن الناس عارضوا هذه الهبات الطيبة عندما جاءت ، لأنهم لم يكن لهم بها عهد ، ولكن الاسلام ظل يدافع عنها حتى استقرت واشتد عودها ، وقد اقتبسها العالم كله من الاسلام كما سنرى ذلك واضحا فيما بعد .

٣ ـ الحضارة التجريبية

« حضارة البعث والإحياء »

اذا جئنا الى الحضارة التجريبية كان علينا أن نقرر أن المسلمين انتفعوا بما كان لدى الأمم من تقدم فى هذه العلوم ، ولحسن الحظ كان التقدم فى هذه العلوم محصوراً فى الشرق الذى انتشر به الاسلام عندما جاء الاسلام ، ولهذا يتفق القول بأن الشرق منبع الحضارات ، ففى مصر وسوريا والعراق وجنوب الجزيرة العربية وفى بلاد فارس والهند نشأت أرقى الحضارات التى عرفتها البشرية قبل الاسلام ، وكانت هذه المناطق تموج بالمعرفة حين كان الاقطاع بفظائعه يغمر أوربا ، وحين كانت أمريكا لاتزال فى ضمير الغيب ، ومن أجل هذا ينبغى ــ قبل أن نتحدث عن دور المسلمين فى الحضارة

التجريبية — أن نخصص بعض الفراغ لحضارات الشرق قبل الاسلام ، تلك الحضارات التى كانت أساسا لحضارة المسلمين التجريبية .

مصـــــر :

على ضفاف النيل نشأت مدنية الفكر البشرى كما يقول المفكرون فى كل البقاع ،وترعرعت هذه المدنية حتى وصلت الى مدى عظيم ، وقد شملت الحضارة المصرية الناحية السياسية والاجتماعية والفنية والعلمية والفلكية والدينية ، وأهم العلماء من مختلف الأجناس بالحديث عن هذه الحضارة ، وكتب عنها العديد من الكتب وخاصة بعد أن استطاع شامبليون فك رموز الكتابة القديمة ، وبعد أن كشف الأثريون آثارها وفى طليعتهم ماربيت الذى عثر على بردية بولاق التى تحوى فلسفات راقية وأفكارا رائعة ، وهناك كذلك البردية المصرية الموجودة بالمتحف البريطانى تحت رقم ١٠١٧٤٥ وقد كتبت فى عهد الأسرة الثانية والعشرين وبها كذلك دراسات الهية وأخلاقية رائعة . والأهرام المصرية تدل على عبقرية هندسية ممتازة فهى بلا شك أهم معجزات العمارات القديمة ، ثم هى تدل على أفكار المصريين تجاه الحيـــاة الأخرى ، والمعابد المصرية نقش عليها ألوان من الفنون والعلوم وأحداث التاريخ ، والتحنيط المصرى معجزة لم تستطع المدنية أن تعرف كنهه حتى الآن ، ويذكر Samuel Nisenson (١) أن الآثار المصرية أكبر شــــاهد بأن مصر هى وطن الحضارة الانسانية الأولى .

الفينيقيـــــــون :

كان الفينيقيون يعيشون على ساحل الخليج ، وبنوا هناك جوانب مهمة من الحضارة ، ثم انتقلوا الى ساحل البحر المتوسط بمنطقة سوريا

---

(١) History of 100 Great Events p. II.

ولبنان وبنوا فى مقرهم الجديد مدنا كتلك التى كانت لهم على الخليج ، وبرع الفينيقيون براعة فائقة فى النشاط التجارى عبر البحار ؛ وقد استطاعوا أن ينشئوا لهم عدة مدن أو مراكز تجارية فى أمكنة مختلفة على ساحل الشمال الافريقى ، والفينيقيون أول أمة دارت حول افريقية قبل البرتغاليين بعدة قــرون •

وقد فاق الفينيقيون أمم العالم القديم فى صناعة الزجاج والنسيج والفخار ، وفى اتقان الصناعة ، كما أتقنوا صناعة المعادن منذ عصر البرونز (٢١٠٠ — ١٢٠٠ ق•م) فاستخدموا النحاس والبرونز بوفرة ، وأجادوا فن صهر الحديد ، واستخدموا الفضة على نطاق واسع ؛ وصنعوا السلاح على اختلاف أنواعه ، ومهروا فى العمارة والنحت وأعمال الزخرفة ؛ كما شيدوا كثيرا من الحصون والهياكل والقصور •

ولعل أهم تراث للفينيقيين فى حضارة العالم ؛ هو ابتكارهم الحروف الأبجدية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد اقتبس الاغريق من الفينيقيين تلك الحروف الأبجدية بين سنتى (٨٥٠ — ٧٥٠ ق•م) ، ويعتبر بعض العلماء أن انتقال الأبجدية الفينيقية الى الاغريق يعد من الأحداث البارزة التى أثرت فى مجرى حضارة العالم وقد اعترف الاغريق بهــذا الفضل ، وهم الذين نقحوا هذه الأبجدية وسلموها للرومان لتصبح أساس الأبجدية الأوربية الحديثة ، وكذلك نقل الآراميون أبجديتهم من الفينيقيين ثم أعطوها للعرب والهنود وغيرهم من الشعوب[١] •

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤ •

بابـل وآشـــور :

وفى منطقة الفراتين ظهرت الحضارة العراقية الرائعة ، ومن أعظم الشخصيات التاريخية التى تذكر فى هذا المجال الملك حمورابى الذى عاش حوالى سنة ١٩٤٠ ق٠م والذى أنشأ قانون جمورابى مما يدل على ان التقنين عرف منذ أمد بعيد فى مناطق الشرق ، بعد ما حققت مجتمعاتها درجة عظيمة من الرقى والتقدم ٠

وشهرة حمورابى لا تقف عند قانونه ، فلقد أسهم بنصيب كبير فى التقدم العمرانى ، وأقام شبكة رى واسعة تمد بالماء أكثر أرض العراق وشيد السدود والخزانات لحراسة الأرض من الفيضانات ، مما يدل على تطور أمته تطورا عظيما ٠

اليمــن وعمـــان :

وفى جنوبى الجزيرة العربية وجنوبيها الشرقى قامت خلال الألف السابقة للميلاد ممالك لعبت خلال هذه الفترة دورا رائعا فى سياسة العالم واقتصادياته فبنت أعظم السدود واحتكرت تجارة العالم ، فكان لهـا أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانى الجنوب وبين موانى الهند والصين وجزر اندونيسيا والصومال بحيث كانت التجارة العالمية شبه احتكار فى يد أبناء هذه المنطقة ، كانت كذلك تسيطر على الطرق التجارية عبر الجزيرة العربية حتى سوريا ومصر والخليج العربى ٠

فـــارس :

وفى بلاد فارس ظهر المصلح الاجتماعى زرادشت (٦٦٠ — ٥٨٣ ق٠م) واتجه فى تفكيره الى اصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية ، ويعده كثير من الباحثين داعيا الى التوحيد ، وقد اعترف بالبعث والحياة الأخرى والحساب

حيث ينتهى المرء الى نعيم مقيم أو عذاب دائم ، ثم ان بلاد فارس اقتبست كثيرا من الحضارة المصرية فى أثناء استيلاء الفرس على مصر ، ويقول الباحثون ان قمبيز تعلم الحكمة المصرية من الكاهن المصرى (أوزاموس) وان الفرس نقلوا لبلادهم كثيرا من الكنوز العلمية والفنية من مصر فغمروا بهـا بلادهم[1] .

الهنـــــــد :

وفى الهند وجدت الحضارة الهندوسية بما حفلت به من أفانين ، وفيها ظهر بوذا الذى حث على ضبط النفس وقهر الشهوات ، ودعا للمحبة الشاملة وقال بالغاء الطبقات[2] .

« قبس من حضارة مصر والشرق ينتقل لليونان »

كانت مصر وكان الشرق موطن الفكر الأول ومصدرا للحضارة الانسانية كما ذكرنا ، ومن مصر والشرق بدأت اليونان تعرف خيوط المعرفة ، ويذكر عالم المصريات الدكتور عبد المنعم أبو بكر[3] « أن مصر تعد أم الحضارة ، وأنه ما من شىء عالمى ننعم به الآن الا كان للمصريين الفضل الأول فى ابتكار أصوله ، ولم يبتدع اليونان أسس الحضارة الانسانية ، ذلك ان ما ورثوه كان أكثر جدا مما ابتكروه » ويقول علماء الحضارة ان اليونانيين كانوا الوارث المدلل لذخيرة من الفن والعلم نبتت وازدهرت بمصر قبل ذلك بعدة آلاف من السـنين .

---

(١) محمد فريد وجدى : دائرة المعارف جـ ٩ ص ٤٠ و ٤٥ .

(٢) انظر كتاب « أديان الهند الكبرى » للمؤلف ص ١٧١ وما بعدها .

(٣) صحيفة الأهرام القاهرية فى ١٩٧١/٦/١٨ .

ولنسر مع مصر مرحلة أخرى من الحديث لنرى أفكارها وهى تنتقل لليونان ، فانه ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد بدأ الطلاب الاغريق يفدون الى مصر ويلتحقون بمعاهدها ويقتبسون منها الأصول الأولى لحضـــــارتهم •

ويقول جورج سارتون : ان من السذاجة ان نفترض ان العلم بدأ فى بلاد الاغريق ، لأن الفكر الاغريقى سبقته جهود علمية عديدة فى مصر وفى بلاد النهرين ••• وكان العلم اليونانى احياء أكثر منه اختراعا ، وكفى الغربيين ســـوءا أنهم أخفوا الأصول الشرقية المصرية البابلية ، تلك التى لم يكن التقدم الهلينى مستطاعا بدونها •

ومما ساعد على اخفاء دور مصر والشرق ، ان الانتاج الثقافى فى هذه البقاع كان جماعيا لا فرديا ، اذ كانت تقوم به طبقة الكهنة ، فلما انتقل هذا الفكر لليونان دون أن ينسب لشخص معين ظهر وكأنه لا صاحب له ، وكان مفكرو اليونان يعملون أفرادا وجماعات ، فارتبطت الأفكار المهاجرة من مصر ومن الشرق بأسماء يونانية تبنتها ، فنسبت هذه الأفكار لهؤلاء المفكرين اليونان ولكن الحقيقة اتضحت بعد ذلك ، فان الدراسة بمصر وان كانت جماعية كما سبق القول ، فقد كانت هناك شخصيات لامعة ارتبطت بها أمور فكرية عالية ، ولكن هذه الأسماء طواها الزمن فلم تبرز ، ونسبت أفكارها فيما بعد الى بعض علماء اليونان ، ولم تبد لنا الحقيقة بوضوح الا بعد ما ظهرت كشوف جديدة فى العصر الحديث تضع الحق فى نصابه ، ومن هؤلاء الطبيب المصرى « أمحتب » الذى كان وحيد عصره فى الطب ، والذى كتب بحثا طبيا شاملا يحوى دراسة تشريحية للجسد كله وقد وقع هذا البحث فى يد الطبيب اليونانى أبقراط فنسبه لنفسه وأصبح يسمى « أبا الطب » وعندما اكتشفت البردية المصرية التى تحمل البحث الأصيل ،

تراجعت منزلة أبقراط الى مكانها الطبيعى ، واندفع أمحتب الى مـكان الصـــــدارة[1] .

ومثل هذا يقال بالنسبة لعالم الرياضة المصرى أحمس (١٧٠٠ ق٠م) الذى سقطت أعماله العلمية فى يد « اديوفانتس » السكندرى الافريقى (٢٥٠) ونسبت له ، حتى كان يعرف انه مخترع علم الجبر ولكن بردية أحمس ظهرت حديثا وأثبتت أنه مخترع هذا العلم وان اديوفانتس تلميذ جاء بعد عدة قرون منه ونسب لنفسه أو نسبت الأجيال له عمل أحمس الأصـــيل[2] .

وهناك باحث عاش عمره كله شديد الولاء للثقافة اليونانية ، ومع هذا فقد اعترف بدور الشرق فى الثقافة اليونانية ، ذلك هو الدكتور طه حسين الذى يقول[3] : بينما كانت الأمة اليونانية خاضعة لسلطان الشعر القصصى الذى يمثلها ساذجة جاهلة ، قليلة الحظ من النظم السياسية والاجتماعية الراقية ، كان الشرق قد انتهى الى درجات من الحضارة مختلفة وراقية لاتقاس بها حياة اليونان ، كان الساميون فى بابل وآشور قد بسطوا سلطانا ضخما ، وأسسوا حكومات قوية منظمة ، وانتهوا الى ألوان من الفن والعلم لاتزال تبهـرنا حتى الآن ، وكانت مصر قد انتهت الى مـدى عظيم من الحضارة ، وليس من شك فى أن الاتصال قد تم بين دول الشرق الراقية وبين الأمة اليونانية الساذجة ، وجد هذا الاتصال واشتد ، وبالتالى تأثرت الأمة اليونانية من غير شك بالحضارات الشرقية المختلفة ، وأخذت عن الساميين فى آسيا وعن المصريين فى افريقيا أشياء كثيرة متنوعة ، ولم تكن الأمـة

(١،٢) نقلا عن حضارة الاسلام للدكتور جلال مظهر ص ١٨ بتصرف .

(٣) قادة الفكر ص ٤٤ ، ٤٥ .

اليونانية جاحدة ولا منكرة للجميل ، وانما كانت شديدة الاعتراف بالجميل ، وربما بالغت فيه مبالغة شديدة أيضا فنسبت كثيرا من الأشياء للشرقيين ، بل نسبت مدنا مختلفة الى المصريين حينا والى الفينيقيين حينا آخر ، وعدت نفسها دائما تلميذة للأمة المصرية وغيرها من الأمم الشرقية فى الحضارة وألوان الفــن •

وكتب الدكتور Philip Hitti [1] معلقا على ما ترجمه المسلمون فى العصر العباسى من كتب يونانية ومشيرا الى الدائرة الحضارية ودور الشرق فيها وفيما يلى كلماته : وينبغى ألا نبالغ فى فضل اليونان على المسلمين ، اذ أن الثقافة اليونانية استمدت قبلا عناصرها ومقوماتها من معارف مصر القديمة وبابل ، وفينيقية ، ثم عادت هذه المعارف الى العالم الاسلامى وهى فى ثوب يونانى ، وعن طريق أسبانيا وصقلية عبرت هذه العلوم الى أوربا ، مرة أخرى هدية من الشرق الاسلامى ابان العصور الوسطى •

وقد نشر الأستاذ على أدهم فى عدد نوفمبر ١٩٧٤ من مجلة الثقافة مقالا بعنوان « مصر والاغريق » ترجم فيه فصلا من كتاب ألفه حديثا العلامة ألبرت فور ، وفى هذا الفصل يقرر ألبرت فور كثيرا من الأفكار التى أوردناها فى هذه الدراسة ، ويؤكد الاقتباس الواسع الذى أخذه علماء الاغريق من مصر •

واذا كان اليونان قد اقتبسوا من الشرق وطوروا اقتباساتهم مما أعلى شأنهم فى ميدان الحضارة فان باقى المناطق الأوربية لم تستطع لتخلفها أن تنتفع بهذه الحضارة وظلت آنذاك بعيدة عن التقدم الفكرى والحضارى •

---

(١) History of the Arabs pp. 306-307.

« نهاية الحضارات القديمة »

ودور روما والكنيسة والكهنة فى هذه النهاية

انتكست الحضارة قبل الاسلام انتكاسا شديدا ، وقضى على الحضارات التى كان الشرق يزدهر بها ، وعاد المجتمع العالمى القهقرى ، ويرجع سبب هذه النكسة العظمى الى روما من جانب والى الكنيسة والكهنة من جانب آخـــر ، فمع نهاية الاسكندر المقدونى استولى البطالسة على سوريا سنة ٣٢٥ ق٠م ثم على مصر ٣٠٥ ق٠م ، وبعد ذلك زحف الرومان فاستولوا على أوربا خلال القرنين الثانى والأول ق٠م ؛ ثم استولوا على سوريا سنة ٦٥ ق٠م ، وبعدها استولوا على مصر سنة ٣٠ ق٠م ، وبهذا خضعت أهم مناطق الحضارات فى أوربا ، وفى الشرق الى روما ، ولاقت هذه المناطق تحت الحكم الرومانى صورا من الضغط والاذلال قضت على قوة الابتكار والفكر فخبت شعلة التطور تحت نير العسف الرومانى ، ولم تستطع روما ان تحمل مشعل الحضارة بديلا لهذه المناطق التى خضعت لها ، لأن روما لم تكن فى أى عصر من عصورها مركزا من مراكز الفكر كما كانت عين شمس فى مصر القديمة ، أو أثينا والاسكندرية فى عصر ازدهار الحضارة اليونانية ٠

ثم ظهر السيد المسيح ولكن نظام الحكم الرومانى ظل وثنيا فترة طويلة حتى عهد قسطنطين (٢٧٤ — ٣٣٧م) الذى حكم من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣٣٧م وقد قام هذا الامبراطور بسلسلة من الأعمال شد بها أزر المسيحية ، فهو الذى أعلن حرية التدين فى قرار ميلانو (سنة ٣١٣) الذى نص على ألا يحرم أحد من الارتباط بشعائر المسيحية أو أية شعائر دينية أخـــرى ٠٠٠ وهو الذى دعا الى مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ ثم دخل المسيحية فى أواخر أيامه وعمد وهو على فراش الموت ولم يكتف رجال الكنيسة من قسطنطين بما قدم للمسيحية ، بل وضعوا باسمه ما سمى « منحة قسطنطين » وهى وثيقة تعلن أن الامبراطور منح البابا سلطات دنيوية كبيرة فى الولايات

البابوية التى أنشأها ، وقد ثبت للنقاد زيفها بأساليب نقدية دقيقة تعتبر أساسا لنقد النصوص فى العصر الحديث .

والمهم أن موقف قسطنطين من المسيحية جعل رجال الدين يطمعون فى مزيد من السلطة التى تتجاوز أمور الدين الى أمور الدنيا ، وقد نجح رجال الكنيسة فى ذلك ، وفى أواخر القرن الرابع استطاع أسقف ميلانو أن يعارض بعض قرارات الامبراطور تيودوسيوس الذى توفى سنة ٣٩٥م حتى أرغمه على سـحبها .

ومنذ مطلع القرن الخامس هيمنت الكنيسة على كثير من الشئون وفى مقدمتها الاتجاهات الفكرية والحضارية فى الامبراطورية الرومانية ، تلك الاتجاهات التى كانت مصرية الجذور أو فينيقية الاعراق ، فماذا كان موقف الكنيسة من هذه الحضارة ؟ .

ان موقف الكنيسة من الحضارات السابقة بنى على الاعتبـارات الآتيـة :

أولا : ان الكتاب المقدس قد حوى بين دفتيه كل ما يحتاجه الانسـان فى الدنيا والآخرة ، وأنه لذلك ينبغى أن يكون وحده أساس النظـريات والعقائد ، وأن لرجال الكنيسة وحدهم حق تفسير نصوصه ، وعلى الناس أن يقبلوا هذا التفسير دون تفكير أو مقاومة .

ثانيا : أن ما سوى الكتاب المقدس باطل ، لا يجوز الوقوف عنده أو مدارسـته .

ثالثا : رجال الكنيسة ممثلون لله فى الأرض ، ومن ثم فان لهم تعذيب من يقاوم أفكارهم واثابة من يطيعهم كما يفعل الله بالنسبة للناس تماما .

رابعا : بنيت المسيحية على المعجزات والخوارق التى جاء بها السيد المسيح ، والمعجزات والخـــوارق من طبيعتها أن تخالف قوانين الطبيعة والأسس العلمية ، ولمـــا كان رجال الدين مخلصين كل الاخلاص للمعجزات والخوارق فقد اتخذوا جانبها وحاربوا العلوم لأنها تتنافى معها •

خامسا : اتجهت النصوص المسيحية الى ترك الدنيا ، وانتظار ملكوت السموات والأرض دون مبالاة بالأجساد والأبدان والمال والمتـــاع ، ولمـــا كانت أكثر العلوم تخدم الدنيا ، فقد اتجهت أفكار رجال الدين لمعارضة هذه العـــلوم •

ومن هنا حاربت الكنيسة مختلف العلوم ، كما حاربت العلمـــــاء ، واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكرية بعد أن أخضعتها لنصوص الكتاب المقـــدس وقاومت كثيرا من الأفكار مقاومة شديدة ، وكان الطب والرياضة والفلك من النوع الأخير ، فأعدمت الكنيسة بعض كتبها وألقت بالبعض فى مغارات لا يطلع عليها أحد حتى يأكلها الزمان[١] وقد ظلت الكنيسة تتبع هذه السياسة فترات طويلة ، فلما أهلَّ عصر الحرية ولم تجد الكنيسة فى مقدورها أن تحرق الكتب أو تسجنها أصدرت القرارات التى تحرم على المسيحيين قراءة بعض الكتب التى ترى أنها تخالف الدين كما حددته ، أو الكتب التى تكشف سوءات الكنيسة ، ومن أشهر هذه القرارات قرار الفاتيكان الصادر فى سنة ١٩٢٩ والذى يحرم على المسيحيين قراءة أكثر من خمسة آلاف كتاب[٢] ، كما أصدرت قرارا بتكفير من قال بدوران الأرض •

---

(١) ابن نباته المصرى : شرح العيون ص ٦٦ ، والفهرست لابن النديم .
(٢) انظر كتاب المسيحية للمؤلف .

وهكذا قضى رجال الكنيسة المسيحية على الثروة الحضارية الضخمة التى كونها العالم طيلة عدة قرون •

وجاءت نهاية حضارة الفرس والهند على أيدى الكهنة كذلك ، أولئك الذين شغلتهم الرغبة فى متع الحياة ، فصوروا أنفسهم واسطة بين الله والناس ، وحولوا بوذا الى اله ، كما صوروا مذهب زرادشت الذى كان يرى النار رمز الصفاء فجعلوا النار الها مقدسا ، وجعلوا أنفسهم خدم هذا الاله لينالوا من القرابين ما يحقق لهم ما يصبون اليه من نعيم الدنيا •

وهكذا استغل هؤلاء الناس الأديان فانحرفوا بها ؛ وبدل أن تكون مشاعل نور جعلوها وسائل للجهل والظلام •

وقد كان رجال الدين من قسس وكهنة متعاونين فى ذلك مع الملوك والأمراء ، وقد رأى هؤلاء وأولئك أنيحاربوا العلم وينشروا الجهل لتسهل عليهم قيادة شعوبهم ، فالشعوب الجاهلة سهلة القياد ، أما الشعوب المتعلمة فتعرف حقوقها ، وتطالب بها ، وتدافع عنها •

ومن الأمور المفجعة ان بعض الكنائس ظلت تمارس هذه النقائص حتى العهد الحاضر ، وأبرز مثل لذلك الكنيسة الأثيوبية التى كانت تملك ٣٠٪ من مساحة الأراضى المزروعة بالحبشة ، ولا تدفع عنها ضرائب وتجبى مع ذلك الصدقات والنذور من المعدمين والفقراء التعساء والجهلة ، وحتى تنعم الكنيسة الأثيوبية بهذا الثراء سكتت على الامبراطور وأسرته وأمرائه الذين كانوا يملكون ٥٠٪ من الأراضى ، والذى تبقى بعد ذلك منحه الامبراطور لكبار الموظفين الملكيين والعسكريين وبعض زعماء القبائل وكان الامبراطور ينعم بهذا الثراء الخارق ، ويقيم أعياد ميلاد سخية لكلابه ، بينما الشعب يتضور جوعا ويتساقط بسبب قلة الغذاء والكساء •

وقد ظلت الكنيسة تمارس هذا الباطل وتغمض الطرف عنه حتى هبت ثورة الجيش الأثيوبى عام ١٩٧٤ فوضعت حدا لهذا الضلال ، ولكنها للأسف اتجهت لضلال آخر هو الشيوعية والالحاد ، وهو كذلك محاولة مدّ سلطانها ظلما الى أرض ليست حبشية ، وذلك لون من الاستعمار الجديد نحاربه بكل الوســائل .

« المسلمون وحركة البعث والاحياء »

انتفع المسلمون بما كان لدى الأمم السابقة من تقدم فى العـــلوم التجريبيه ، فقد اتصلوا بالأقطار التى نمت فيها الحضارة القديمة مثل العــراق والشــام ومصر ، وتم للمسلمين فتــح أكثر هذه الأقطــار ، واهتم العصر العباسى الأول بالحضارة والعلم ، فشيد الخليفة هارون الرشــيد بيت الحكمة ببغداد حوالى سنة ٨٣٠م واهتم ابنــه المأمــون بهذا المجمــع العلمى وألحــق به مرصدا ومكتبة حافــلة ، وجذب له العلماء والمترجمين والطلاب ، وفى هذا المعهد ترجمت امهات الكتب فى مختلف الموضوعات الى اللغة العربية ، وكان المأمون يعطى للمترجمين زنة ما يترجمونه من الذهب الخالص .

وأكثر هذه الكتب كانت الكنيسة ـــ كما ذكرنا آنفا ـــ قد وضعته فى دهاليز مظلمة رطبة تحت الأرض ليأكلها الزمان ، وكان المأمون يشترط عند توقيع الهدنة مع الروم أن يسلموا للمسلمين هذه الكتب التى كتبها اقليدس وجالينوس وأبقراط وأرشميدس وسواهم من المفكرين وأحضر المسلمون مجموعات من الكتب من البلاد التى استولوا عليها كالشام ومصر وفارس ، ومجموعات من قبرص ومن الاسكندرية وعكفوا عليها يترجمون ويعلقون ويشرحــون[1] .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٣ .

ويقـول Philip Hitti [١] انه بينمـــا كان الرشيد والمأمون يخرجان كنوز الفلسفة القبطية واليونانية والفارسية ، كان معاصروهم فى أوربا من أمثال شارلمان وسادة مملكته يتعثرون فى كتابة أسمائهم •

وانتقل المسلمون من الترجمة والتعليق الى الابتكار والخلق ، ومن بين عشرات الأوربيين الذين اعترفوا بمكانة المسلمين فى هذا المجال نقتبس من واحد منهم كلمانه ، يقول Bulus [٢] : ان المســلمين أخــذوا كثيرا من علوم البيزنطيين والمصريين والهنود والفرس ، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم الى لغتهم زادوا عليها وحوّروا فيها وصبغوها صبغة جديدة ، ولم يكن العرب مترجمين فقط أو معلقين بل انهم اخترعوا كثيرا ، ففى الفلك اخترعوا الاسطرلاب لقياس الارتفاع ، واستطاعوا أن يعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الاذناب ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفى الطب استطاع المسلمون أن يكشفوا مرض الجدرى الذى لم تعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة فى كشف صنوف الأدوية ، وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للاعجاب والتقدير ، ونجحوا بهذا فى تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيماوية الجوهرية التى نقلت الى أوربا •

وفى مجال الحضارة العمرانية حقق المسلمون أهدافا عالية ، ففى التجارة عنى المسلمون بالطرق والجسور والأسواق والأمن ، وفى الزراعة وجهوا عناية كبيرة الى الرى واصلاح الأرض وشق الأنهار والترع والأفلاج ، وقد استطاعوا بذلك أن يقيموا دورة ثلاثية للزراعة فى كثير من البلدان ، ومن أخلد ما حققه المسلمون فى نواحى العمران المنشآت البنائية العظيمة

---

(١) History of the Arabs p. 312.

(٢) The Influence of Islam Chapter XI.

من مدن وقصور ومساجد وقلاع ومدارس ومستشفيات ، ولايزال الكثير منها باقيا حتى اليوم ينطق بعظمة هذه الأجيال ، كالجامع الأموى بدمشق ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، ومدرسة نور الدين زنكي بدمشق وقصر الحمراء بغرناطة وغيرها •

الحضـــــارتان :

وهكذا عندما كانت الحضارة الاسلامية الأصيلة تصل الى قمة مجدها كانت الحضارات التجريبية القديمة تدب فيها الحياة من جديد ، وتعاونت الحضارتان على اعلاء شأن المسلمين ، وفى ظل هاتين الحضارتين كان العالم الاسلامى يقف وحده فى دائرة الضوء بين دول العالم •

الحضـــارة الاســـلامية

تنتقـــل الى الهنـــــد والصـــين وأوربا

امتد نشاط المسلمين الى الهند فى عصر مبكر ، ثم امتد كذلك الى الصين ، والتقى المسلمون بالأوربيين فى الأندلس وفى صقلية وفى مناطق الحروب الصليبية بالشام ومصر ، وكان لهذا اللقاء نتائج حضارية مهمة ، فقد عرفت الحضـــارة الاســـلامية الأصيلة والتجريبية طريقها لهـــذه البقـــــاع •

ويتحدث كثير من الباحثين عن انتقال الحضارة الاسلامية الى أوربا ويغفلون الهند والصين ، ولعل ذلك بسبب النشاط الأوربى الذى أفاد افادة كبيرة من هذه الحضارة وجعلها أساس نهضته ، ثم نقلها فى فتوحاته الى آسيا وافريقية وأمريكا ، ومن أجل هذا تستحق أوربا مزيدا من الدراسة فى هذا المجال ، فقد التقى الأوربيون بالمسلمين فى أسبانيا وصقلية ، وجذبت

الجامعات الاسلامية كثيرا من الطلاب الأوربيين فالتحقوا بها ، وتلقوا من المسلمين صورا من الفكر فى مختلف المجالات ، وأجاد الكثيرون من الطلاب الأوربيين اللغة العربية ، وافتتنوا بالفكر الذى تلقوه من أساتذتهم المسلمين ، فترجموا لذويهم عقب عودتهم لبلادهم ، ومن أشهر المترجمين الأوربيين :

John of Seville - Adlard of Bath - Gerald of Cremone - Afonso X.

وعن طريق الحروب الصليبية التقى الأوربيون فى الشرق بالمسلمين فى حرب أحيانا وفى حالة هدنة أحيانا أخرى ، فرأوا ما أذهلهم من فكر حضارى ، كما رأوا صورا من العادات والأخلاق الاسلامية بهرتهم فراحوا يقتبسون منها .

وهكذا كانت هذه الأمكنة مراكز فكرية عرض فيها الشرق أفكاره الحضارية واقتبست أوربا من فيض هذه الحضارات .

يقول Hearnshow [١] : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، لقد بُهت الأوربيون أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التى رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

ويقول الاستاذ سديو : تكونت فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف فى التاريخ لدى العرب ، وظهرت اختراعات ثمينة تشهد لهم بالنشاط الذهنى الرائع ، وجميع ذلك تأثرت به أوربا بحيث يمكن القول بأن العرب كانوا أساتذة الأوربيين فى جميع فروع المعرفة ،

---

(١) علم التاريخ ص ٦٢ من الترجمة العربية للأستاذ العبادى .

ولقد حاول الأوربيون أن يقللوا من شأن العرب ، ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها ، ولا مفر من الاعتراف بها •

كيف انتقلت الحضارة التجريبية والحضارة الأصيلة :

تلقى الغرب من الشرق نوعى الحضارة اللتين سبق أن أوضحناهما ، أى الحضـــارة الأصيلة الفكرية والحضـــارة التجريبية ، ومن الطبيعى أن الغرب كان أسرع استجابة فى العلوم التجريبية التى يدق الدليل على صحتها كل عقل ، لأنها مادية محددة ، ولأنها لا تتنافى مع التقاليد والطبقية المنتشرة بالغرب ، بل قد تساعد الطبقات العليا وتمكن لهم فى السلطان ، فالتقدم فى الطب مثلا ينتفع به السادة أكثر مما ينتفع به العبيد ، ومثل هذا يقال عن الانتفاع بالفنون المعمارية والفلك والرياضة والموسيقى وغيرها •

أما العلوم الفكرية كالاعتراف بالشورى التى جاء بها الاســـلام فى النظام السياسى ، والاعتراف بحق الفقير فى مال الغنى ، والخضوع للاخلاق التى فرضها الاسلام ••• فانها تضر السادة لحساب العبيد ، اذ تنفـــع المحكوم وتقلل من سلطان الحاكم ، ومن أجل هذا قاومت الطبقات العليـــا هذه الاتجاهات وتباطأت فى تقبلها •

وهذا هو السر فى أن الغرب سرعان ما أقبل على العلوم التجريبية وترجم علماؤه قوائم طويلة من الكتب العربية الى اللاتينية فى مختلف هذه العـــــــــلوم •

أما الحضارة الاسلامية الأصيلة فقد ظلت صامدة ، تدافع عن نفسها وتشرح فوائدها للمجتمع البشرى ، وقاومها الغربيون ، ولكنهم بمرور الوقت أخذوا ينهزمون أمامها ويقتبسون منها يوما بعد يوم ، فتمرد الكثيرون منهم على الدكتاتورية ، واعتنق جماهيرهم اتجاهات الاسلام فى الشورى وفى

العدالة الاجتماعية ، والتقطت المرأة حقوقها ووجدت بين الرجال من يدافع عن هذه الحقوق ، وقابل عبيد الغرب أحرار الشرق فى الحروب الصليبية فتمردوا على العبودية ولم يعودوا الى نطاقها بعد أن عادوا الى بلادهم ..

ومر الزمان ، وجاء عهد ادعت أوربا فيه أنها مصدر الديمقراطية ، وأن الاشتراكية من صنعها ، وأنها تقدمها هدية للمجتمع البشرى ، كما ادعت العمل لالغاء الرق وتحرير الأرقاء ، ومنح المرأة حقوقها ... وساعد على هذا الادعاء أن الشرق كان قد انتكس وبعد كثير من قادته عن الاسـلام وروحه ، فهيأ هذا للغرب أن يتغلب على العقول البسيطة التى لا تعرف عمق الحضارة الاسلامية ولا أبعادها .

« اعترافات الغربيين »

ومع هذا فقد كان أكثر علماء الأوربيين منصفين ، فاعترفوا بفضل المسلمين عليهم ، وسنقتبس لمحات قصيرة مما كتبه بعض هؤلاء المفكرين :

يقول Gosiph Calmith : فى اللقاءات بين المسلمين والأوربيين قدم المسلمون عنصر التأثير والانتاج وتلقى العالم المسيحى الأثر والفكر •

ويقول العالم الفرنسى فوربيل : ان الاجماع يعزو الى العرب كل ما كان يبدو خلقيا بالاعجاب فى الفنون والعلوم •

ويقول غوستاف لوبون[1] : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة ، واذن فليست المسيحية كما يظن بعض الناس فى الغرب هى التى أنصفت المرأة بل الاسلام • ومع هذا فان استفادة الصليبيين من علوم العرب كانت أقل مما يجب • ويعلل ذلك بقوله : ان الجيوش الصليبية كانت جاهلة ، ولم تكن تبالى بالمعارف ، ومن أجل هذا كانت عنايتها أكثر فى ميدان البناء والعمران والصناعة أكثر منها فى ميدان الفكر والفن •

ويقول أناتول فرانس : إن أشأم يوم فى التاريخ هو يوم معركة بواتيه فى فرنسا حين تقهقرت العلوم والفنون والحضارة الاسلامية أمام بربرية الفرنجة •

ويقول Kirk [2] : ان للحروب الصليبية أهمية لا تقدر فى

---

(١) حضارة العرب ص ٣٣٨ •

(٢) A Short History of the Middle East p. 71.

تاريخ الثقافة بأوربا ، بسبب ما كان لها من عظيم الأثر فى تفتيح أذهان الناس الى مستوى الحضارة فى الشرق الأوسط ، ذلك المستوى الذى كان يفوق حضارة الغرب بكثير ، ولم تفد بلاد شرق البحر المتوسط من معارك الصليبين شيئا يذكر اللهم فى بعض المنشآت والخطط الحربية .

ويقـــــرر Emerton [1] إن الثقافة التى حصـــل عليهـــا الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ودفعتهم قدما الى عالم الحضارة وكان الأوربيون يسمعون من القسس أشياء كثيرة عن المسلمين ، ولكن هاهم المسلمون أصبحوا فى مرأى العين بالنسبة للصليبيين ، فوجدوا فيهم انسانية عالية ، وشرفا وشجاعة ، ووفاء بالوعد ، وغير ذلك من الصفات التى لم يكونوا يسمعون بها وهم فى ديارهم ، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الانسانية فى الأوربيين ، ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات بال عنـــدهم .

ويقول الدكتور فيليب حتى[2] : ان الفرنجة تأثروا كثيرا بجيرانهم المسلمين فى اللباس ، فقـــد أقلعوا عن لباسهم الأوربى وتعلقوا بالأزيـــاء الشرقية التى كانت أدعى الى الراحة ، واكتسبوا شيئا من الذوق الشرقى فى الأطعمة والأغذية ، وآثروا لسكناهم البيوت الشرقية الطراز .

ويقـــول Richard Coke [3] : ان أوربا لتـــدين بالشىء الكثـــير لأسبانيا العربية فلقد كانت قرطبة سراجا وهاجا للعلم والمدنية فى فترة كانت عواصم أوربا خلالها لاتزال ترزح تحت وطأة القذارة والبدائية ، وقد

---

(١) Midiaeval Europe p. 393.

(٢) History of the Arabs p. 781.

(٣) The City of Peace.

هيأ الحكم الاسلامى لأسبانيا مكانة جعلها الدولة الوحيدة فى أوربا التى أفلتت من عصور الظلام .

ويقـول Gourge Sarton: حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر فى القرون الوسطى ، وكانت اللغة العربية أعظم اللغات خلال هذه العصور فلقد كتبت بها المؤلفات القيمة غزيرة المادة شديدة الأصالة ، وكان على أى باحث يريد أن يعرف ثقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية ، وقد فعل ذلك كثيرون من غير العرب(١) .

ويقول ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الثقافية عدة قرون(٢) .

---

(١) نقلا عن حضارة الاسلام للدكتور جلال مظهر .

(٢) نقلا عن حضارة الاسلام للدكتور جلال مظهر .

اختفــــاء مادة الحضـــــارة الاســـــلامية
من المناهج الاســـلامية

هذه الحضارة الاسلامية التى أوجزنا الحديث عنها ، والتى كانت من أبرز المواد وأنفعها فى حلقات الدراسات الاسلامية ، قد اختفت من الحلقات والمعاهد والمدارس منذ عصور الظلام ، فكليات العلوم السياسية الآن لا تدرس النهج الاسلامى فى السياسة ، مع أن هذه الكليات تدرس الاتجاهات السياسية المختلفة حتى تلك التى ثبت فشـــلها كالنازية والفاشية ، وكليات الاقتصاد والتجارة لا تدرس النهج الاقتصادى فى الاسلام مع انها تدرس كل النظم الاقتصادية حتى تلك التى ثبت خطرها وخطؤها كالشيوعية ، وكليات التربية تدرس كل النظم التربوية فى العالم ولا تدرس النهج الاسلامى فى التربية والتعليم والسلوك ، وكليات الخدمة الاجتماعية لا تدرس النظم الاجتماعية فى الاسلام ، والكليات العسكرية لا تدرس الفكر الاسلامى فى الشئون العسكرية ، ذلك الفكر الذى حقق أسمى ألوان النجاح فى المعـــارك التى سيطر عليها الفكر الاسلامى •

فاذا ذهبنا الى الكليات العملية وجدنا الطلاب فى كليات الطب لايعرفون شيئا عن جهود الرازى وعلى بن العباس والبغدادى وعمار الموصلى وابن الهيثم وابن البيطار والزهراوى وابن سينا ، وربما كان الطلاب فى الغرب يعرفون عن هؤلاء أكثر مما يعرف الطلاب المسلمون •

وفى كليات الهندسة لا يعرف الطلاب المسلمون ما قدمه ثابت بن قرة والخوارزمى وعمر الخيام وأبو جعفر الخازن ••• من ابداع فى مجال الأرقام واستخراج الجذور ، وعلم الجبر والهندسة التحليلية وحساب المثلثات •

وفى كليات العلوم لا يعرف الطلاب ما حققه المسلمون من كشوف فى مجال العلوم كما لا يعرفون الأسماء اللامعة فى هذا المجال مثل جابر بن حيان والرازى والبيرونى وابن الهيثم •

ولا يعرف الطلاب فى كليات الزراعة ما وصل له أسلافهم فى بغـداد وقرطبة والقاهرة عن الحدائق والتجارب الزراعية ودراسة الأعشاب وعلم الحيوان وبالتالى لا يعرفون شيئا عن الجاحظ وابن زكريا وابن البيطـار والدميرى المصرى •

وقل مثل هذا بالنسبة للموسيقى والجغرافيا وعلم الفلك •

ويتساءل الانسان : لماذا اختفت هذه العلوم من المناهج الاسلامية ؟ •

والجواب عن ذلك يتضح مما يلى :

اختفى النهج الاسلامى فى مجال السياسة لأن هذا النهج يهتم بالشروط التى يلزم أن تتوافر فى الخليفة أو الرئيس ويـُلـزِم الخليفة أو الرئيس بالشورى خلال حكمه ، ويجيز عزله عند الاقتضاء ، ولا يقبل التوارث فى الحـــكم •

وكل هذه المبادىء ضد رغبة الحكام ، فقاوم هؤلاء هذا الاتجاه الذى يمثل ركنا مهما من أركان الحضارة الاسلامية وكانت وسيلتهم للقضاء عليه ابعاده عن المناهج حتى لا يعرفه جيل الطلاب ويختفى يوما بعد يوم •

واختفى النهج الاسلامى فى مجال الاقتصاد لأن الثراء كان فى أيدى أصحاب النفوذ ، ولم يـُرِدْ هؤلاء أن يدفعوا حق الفقير وحق الدولة ، فاتجهوا الى محاربة الاتجاهات الاسلامية الاقتصادية ، وبالتالى تعطـل

جانب مهم من جوانب الحضارة الاسلامية ، وقنع الباحثون بالحديث عن الزكاة مع أن الزكاة جزء قليل من الالتزامات التى يلتزم الأغنياء بها تجاه الفقراء وتجاه الصالح العـام[1] •

واختفى النهج الاسلامى فى مجال الرق ، ذلك النهج الذى يقضى على الرق تبعا لقوله تعالى « حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعـد واما فداء »[2] • وقوله عليه السلام : « شر الناس من باع الناس » وكان اختفاء النهج الاسلامى استجابة لرغبات القصور التى حشدت بالغوانى والرقيقات فلم تسمح هذه القصور بتعليم ما يتنافى مع متع السـادة ولذائذهم •

واختفى النهج الاسلامى فى موضوع السلم والحرب الذى أوجزناه آنفا ، لأن شعار الحرب غلب على القوم ، ولأن الزعماء كانوا يتوقون للنصر بأى ثمن ، كما كانوا يسعون للغنائم ، فأزالوا من المناهج ما يخالف رغباتهم فى هذا الاتجاه •

وهكذا اختفت من المناهج الاسلامية أنواع الحضارة الاسلامية ، وعاما بعد عام وقرنا بعد قرن خلت المعاهد الاسلامية من الحديث عن هذه الحضارة التى هى مفخرة الاسلام والمسلمين ، ولم يبق من الحضارة الا قدر شاحب كالاشارة الى قصر الحمراء بغرناطة أو الجامع الأزهر بمصر ، أو الجامع الأموى بدمشق ، أو كالتغنى بالحضارة الاسلامية التى زحفت من الأندلس ، أو من فلسطين الى أوربا فعلمتها علوما أهملها أصحابها الأصليون ، وقنعوا منها بالذكريات •

---

(١) انظر فى ذلك كتاب السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى للمؤلف •
(٢) سورة محمد — الآية الرابعة •

وفى مطلع النهضة الفكرية بالعالم الاسلامى اتجهت الدول الاسلامية لارســـال المتخرجين المتفوقين من جامعاتها لاستكمال دراستهم العليا فى أوربا فجلس الطـــلاب المسلمون يتلقون مناهج البحث وصور النقـــد والمقارنة ••• عن المستشرقين ولم يكن المستشرقون حريصين على ابراز الحضارة الاسلامية الأصيلة أو احيائها ، فتركوها فى الظلام ، ولكنهم لم يستطيعوا اخفاء النظم الاسلامية وهى المؤسسات التى أقامها المسلمون عبر التاريخ لتنفيذ الحضارة كالجامعات والمكتبات والمستشفيات والمناصب لأن هذه النظم كانت حقيقة واقعة ، وكانت من الشـــهرة بحيث لم يمكن تجاوزها ، فدرسوا لنا فى أوربا منهجا عنوانه « النظم الاســـــلامية » Islamic Institutions وعاد المبعوثون المسلمون فألّفوا فى النظم الاسلامية ، ولم يقربوا من التأليف فى الحضارة الاسلامية •

وكان اخفـــاء الأوربيين للحضارة الإسلامية مقصـــودا ، لأن بعض المستشرقين عرفوا سمات الحضارة الاسلامية وأشاروا اليها اشارات عابرة فى بحوثهم كما فعل Emerton, Kirk, and Calmith وغيرهم ولكن أحدا منهم لم يعمل على التنقيب عليها وعرضها كاملة ، وهو الدور الذى حاولت أن أقـــوم به •

ووجد بين المسلمين بل بين المفكرين من يقول ان عصر صدر الاســـلام كان مشغولا بالدعوة ، وان العصر الأموى اتجه للفتوحات والتوسع ، ولم تزدهر الحضارة الا فى العصر العباسى • وهذا رأى يتجه الى أن الحضارة الاسلامية هى حصيلة الترجمات الى اللغة العربية وبخاصة فى بيت الحكمة ، وهو رأى ضعيف نشأ عن عدم التعرف على الحضارة الاسلامية الأصيلة التى تحدثنا عنها والتى قدمها القرآن وأحاديث الرسول فى مطلع الاسلام ، ولم يكن دور بيت الحكمة الا شديد الارتباط بالحضارة التجريبية ، أما الحضارة الاسلامية الأصيلة فقد بدأت مبكرة كما شرحنا من قبل •

وعندما اختفت الحضارة الاسلامية الأصيلة اختفت أيضا حضـــارة البعث وحضارة الدول ، فقد تراجع المسلمون ، ولم يهتم زعمـــاء الدول الاسلامية بتقديم شيء منها للشعوب ، وقنع الحكام بالأنانية وأن يعيشوا لأنفسهم لا للناس .

وهكذا أصبحت الحضارة الاسلامية مجرد ذكرى ، بل عاداها كثيرون ممن لا يعرفونها لأن الجاهل بالشيء لا يدافع عنه ، ولأن ظهور هذه المادة بفروعها المختلفة يثير المنافسة والحقد لدى بعض المدرسين الذين يرون أن العلوم الاسلامية المعروفة لهم هي وحدها التي تمثل الاسلام .

احيـــاء الحضارة الاســـــلامية

اذا كان المسلمون الأوائل قد التقطوا آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول المتصلة بالجوانب الحضارية وشرحوها وعلقوا عليها حتى كونوا فيها دراسات واسعة تبرز نهج الاسلام في السياسة والاقتصاد والتعليم والسلم والحرب وغيرها ...

واذا كان المسلمون الأوائل قد استطاعوا أن يبعثوا الروح في الحضارة التجريبية التي اشترك في خلقها علماء الشرق واليونان قبل الاسلام ...

واذا كانت عصور الظلام قد أخفت جهود المسلمين في المجالين وأضاعت مادة الحضارة الاسلامية من المناهج الاسلامية في كل المعاهد والكليـــات الاســـــلامية ....

اذا كان ذلك كله قد حدث ، فان واجب عصرنا الحاضر أن يقف وقفة حاسمة لبعث الحياة من جديد في الحضارة الاسلامية ، ووضع هذه المادة في مكانها المناسب في المدارس والكليات والجامعات كمادة تعلي قدر الاسلام وتفتح الطريق لرقي العالم الاسلامي في حاضره ومستقبله ، فكما كانت الحضارة الاسلامية للماضي فانها للحاضر والمستقبل .

وواجب العصر الحاضر — فى تقديرى — يتمثل فى جانبين :

الجانب الأول : أن يقدم الباحثون والمفكرون المسلمون دراسات عن جوانب الحضارة الاسلامية كلها بلغة العصر وخطة العصر ، ويسعدنى أننى أسهمت فى هذا الجانب بموسوعة النظم والحضارة الاسلامية التى تتكون من عشرة أجزاء غطت كل جوانب الحضارة الاسلامية أو أكثرها .

الجانب الثانى : أن تقوم وزارات التربية والتعليم فى العالم الاسلامى باحياء مادة الحضارة الاسـلامية ووضعها فى مكانهـا المناسب بالمدارس والجامعات ، وتخصيص الساعات الكافية لدراستها ، وفى هذا المجال يسعدنى أن أقدم اقتراحا لمنهج الحضارة الاسلامية فى المستويات المختلفة لدور العلم بالعـالم الاسـلامى :

توزيع المناهج على مراحل التعليم

مراحل التعليم الحالية فى العالم الاسلامى متشابهة أو متقاربة ، انها المرحلة الابتدائية ، فالاعدادية ، فالثانوية ، فالجامعة ، وقد تكون هذه المراحل ذات طابع اسلامى خاص كالأزهر بمعاهده وكلياته ، وقد تكون عامة كالمدارس والجامعات التابعة لوزارات التربية والتعليم العالى ، وعلى هذا فنحن أمام المراحل التالية بوجه عام تقريبا :

١ — مدارس التعليم العـام .

٢ — مدارس التعليم الدينى ويكثر أن تسمى معاهد .

٣ — الكليات والمعاهد العليا الاسلامية .

٤ — الكليات والمعاهد العليا العامة .

وسنقترح ما يصلح من الحضارة الاسلامية لكل مرحـلة من هذه المراحــــل :

مدارس التعـليم العـــام :

ابتداء من التعليم الاعدادى يعرَّف التلاميذ بالحضارة الاسلامية وأنواعها اجمالا ، وانها أفادت البشرية كلها ، وقدمت حلولا للقضـــايا الانسانية المهمة ، وفى التعليم الثانوى يزيد قدر المعرفة الذى يقدم للتلاميذ ، فيعرفون شيئا من التفاصيل عن جوانب الحضارة الاسلامية فى أهم فروعها أو فى كلها ، وتكون مادة الحضارة الاسلامية مادة عامة مثل مادة الجغرافيا والتاريخ أى تقدم لكل التلاميذ أيا كانت أديانهم ، فالحضارة الاسلامية هبة الاسلام لكل البشر ، وقد كانت تدرس لنا فى أوربا مع اختلاف أديان الطــلاب •

مدارس التعليم الدينى (المعــاهد) :

تأخذ الحضارة الاسلامية فى هذه المعاهد قدرا أكبر من العناية وساعات أطول من تلك التى تخصص لهذه المادة بمدارس التعليم العام ، ويعطى طلاب هذه المعاهد قدرا كافيا من التفاصيل ومزيدا من تطبيق الســلوك الاســـلامى ، لأن هذه المعاهد هى التى تهيىء لدعاة المستقبل وحمل لواء الفكر الاسلامى فيما بعد •

الكليات والمعاهد العليا الاسلامية :

ان الكليات والمعاهد العليا الاسلامية فى أمس الحاجة لتغيير مناهجها تغييرا شاملا ، فطلابها هم فى المستقبل حملة راية الاسلام ، وشارحو فكره ، والألسنة المدافعة عنه ، وبقدر ما ننجح فى اعدادهم بقدر ما ينجحون فى تأدية مسئولياتهم •

ثم ان هؤلاء الطلاب هم الذين مسهم الضر فى موضوع المناهج أكثر من الطلاب فى الكليات الأخرى ، فطالب الطب يتطـــور منهجه وكذلك طالب الهندسة والآداب ، وكثيرا ما توجد قنوات تصل بين هذه الكليات ونظيراتها فى الغرب ، أما الطالب فى الكليات الاسلامية فلايزال يعانى من رواسب الأجيال المظلمة ، مما أبعد المناهج فى الكليات الاسلامية عن جادة الصواب .

ومن أجل هذا فان منهاج هذه الكليات يجب أن يتغير تغيرا واسعا ، ليس فقط باضافة الحضارة الاسلامية ، بل أيضا باضافة علم مقارنة الأديان الذى اختفى كذلك فى عصور الظلام ، وكذلك بتصحيح مسار العلوم التى انحرف مسارها كالفقه والتفسير واللغة العربية على ما شرحنا فى مكان آخـــــر[1] .

واذا كنا هنا نتحدث عن الحضارة الاسلامية ونتجه لحصر الحديث فى دائرتها ، فاننا نذكر أن الطالب فى الكليات والمعاهد الاسلامية يجب أن يدرس الحضارة الاسلامية بكل أقسامها وأنواعها دراسة شاملة تحليلية ، ليعرف ماذا قدم الاسلام للجنس البشرى فى مجال السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية ونحوها ، كما يدرس النظم الاسلامية وهى المؤسسات التى انشأها المسلمون لتطبيق الحضارة ، فقد أنشأ المســلمون مناصب ومؤسسات مختلفة لتطبيق الفكر الاسلامى فى المجالات السابقة ، ووضعوا لها نظما وقوانين وشروطا مهمة ، وذلك كمنصب الوزير والوالى .... ، وكالمستشفيات والمكتبات والمدارس والمراصد ...

ويجب أن تقسم الدراسات الحضارية على سنوات الدراسة وان تعطى عددا من الساعات لاستيعابها والتمكن منها .

---

(١) انظر كتاب « تاريخ المناهج الاسلامية » للمؤلف .

الكليات والمعاهد العليا العامة :

ان الكليات والمعاهد التى ليست متخصصة فى الدراسات الاسلامية بالعالم الاسلامى يتحتم تزويدها بما يرفع مدارك طلابهـا فى الاتجاهات الاسلامية ، فليس من العدل أن يترك الطبيب والمهندس والمحاسب بالبضاعة القليلة الى تعلمها عن الاسلام قبل الجامعة ، ولذلك أرى أن نتدارك ذلك بالطريقتين التاليتين :

أولا : تدرس الحضارة الاسلامية كلها بشكل مجمل فى جميع الكليات والمعاهد العليا ، وتكون دراستها للمسلمين وغير المسلمين ، كما ذكرنا من قبل ، ويكون ذلك فى الفرقة الأولى •

ثانيا : بعد الفرقة الأولى يدرس بكل كلية أو معهد أحد جوانب الحضارة الاسلامية الذى يناسب تخصص هذه الكلية ، وتكون دراسة هذا الجانب بشكل مفصل شامل ، على النحو التالى :

١ — يصبح النهج الاسلامى فى شئون السياسة والحكم مادة مهمة فى كليات العلوم السياسية •

٢ — يصبح النهج الاسلامى فى الاقتصاد مادة رئيسية بكل كليات التجارة والاقتصاد •

٣ — تصبح التربية الاسلامية مادة رئيسية بكل كليات التربيـة ومعـاهدها •

٤ — تصبح الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى مادة رئيسية بكليات الخدمة الاجتماعية •

٥ — يصبح الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الاسلامى مادة مهمة فى كل الكليات العسكرية بالعالم الاسلامى •

٦ — تصبح النظم القضائية فى الاسلام بما فى ذلك الحسبة والنظر فى المظالم مادة رئيسية فى كليات الحقوق والقانون والشرطة •

٧ — تصبح الحضارة الاسلامية مادة أولى فى المعاهد والكليات التى تعد الدبلوماسيين المسلمين ورجال الاعلام ؛ وتعد موظفى العلاقات العامة حتى يستطيع هذا أو ذاك فى هذه المناصب الخطيرة أن يعرّف بالاسلام ويتحدث عنه كلما جاءت مناسبة •

٨ — فى الكليات العملية يتعرف الطلاب على ما قدمه المسلمون من جهود فى مواد تخصصهم ، كما يتعرفون على الأسماء اللامعة التى أسهمت فى خدمة هذه المواد واذا كان ما قدمه المسلمون من جهد فى الطب أو الصيدلة أو الزراعة أو الجغرافيا أو غيرها أكثر من أن تجمعه هذه العجالة ، فان بعض الأسماء اللامعة ينبغى أن نذكرها هنا مرتبطة بأشهر ما ارتبطت به من مواد التخصص مثل :

فى الطب والصيدلة : الرازى — على بن العباس — ابن سينا — ابن زهر — الزهراوى •

فى العلوم : جابر بن حيان — الكندى — ابن الهيثم •

فى الرياضة : عمر الخيام — الخوارزمى — الخازن •

فى الفلك : الفزارى — البيرونى — البتانى •

فى الموســــــــيقى : سعيد بن مسجح ــ ابن محــرز ــ الموصلى ــ اخوان الصفا ــ الطوسى •

فى علم الاجتمــــاع : ابن حزم الأندلسى ــ ابن خلدون •

فى الجغرافيـــــــــا : المقدسى ــ الاصطخرى ــ الزرقالى ــ الادريسى •

حاضر العــالم الاســلامى :

اذا كنا ندعو لاحياء الحضارة الاسلامية فلسنا نقصد أن نقف عندها فى حاضرنا ، ولا أن نتغنى بها وحدها ، وانما نستفيد منها على الوضع التــــــالى :

أولا ــ ندرك أن أجدادنا خدموا الفكر البشرى ولاشك أن مواهب الأجداد تتسرب للأحفاد ، فمن واجب الأحفاد أن يجتهدوا ليحققوا فى الحاضر والمستقبل ما حقق أجدادهم فى الماضى •

ثانيا ــ لقد اقتبس العالم من الشرق مرتين كما رأينا آنفا ، فلا مانع أن نقتبس من الغرب بعض ما يفيد من المبتكرات التى كان أساسها البعيد من جهدنا ، على أن نطور ما نقتبسه بحيث يصبح لنا فى يوم من الأيام كيان ابتكارى مستقل •

ثالثا ــ ندرك أن حضارتنا الاسلامية متطورة ، وعلى المسلمين أن يضيفوا للفكر الاسلامى فى السياسة والاقتصــاد وغيرهما ما ينمّى هذه الحضارة بحيث لا نصبح أتباعا لمــا يســمى الديمقراطية أو الاشتراكية ، فإن عندنا أساس هذه القيم •

عمـــان أولا وأخـــيرا :

لقد خصصنا عمان فى مطلع هذا البحث بكلمة ، ونريد فى الختام أن نسجل أمنية هى أن تبدأ عمان بتحقيق هذا الهدف ، حتى تشرق شمس الحضارة الاسلامية فى العصر الحديث من هذا القطر الذى حقق شيئا فى الماضى فى دنيا السياسة ، فليحقق فى الحاضر شيئا فى خدمة الحضـــارة الاســـلامية •

واعتقادى أن عمان التى حققت الكثير من التقدم فى السنوات العشر الأخيرة جديرة أن تضم مفخرة احياء الحضارة الاسلامية الى مفاخرها الحـــديثة •

دكتور أحمد شلبى

— * —

مراجع البحث

المراجع العربية :

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ الحديث الشريف .

٣ ــ كتب الفقهاء .

٤ ــ بحوث علمية فى الصحف والمجلات .

٥ ــ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

٦ ــ د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى عشرة أجزاء .

٧ ــ د. أحمد شلبى : موسوعة الحضارة الاسلامية عشرة أجزاء .

٨ ــ د. أحمد شلبى : سلسلة مقارنة الأديان أربعة أجزاء .

٩ ــ جلال مظهر : حضارة الاسلام .

١٠ ــ حامد بن صالح العلوى : تاريخ حضرموت .

١١ ــ إبن خلدون : المقدمة .

١٢ ــ السالمى : تحفة الأعيان .

١٣ ــ د. طه حسين : قادة الفكر .

١٤ ــ الأستاذ العبادى : علم التاريخ « الترجمة العربية لكتاب Hearnshow » .

١٥ ــ عباس العقاد : الديمقراطية فى الاسلام .

١٦ ــ ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز .

١٧ ــ الامام على بن أبى طالب : نهج البلاغة .

١٨ ــ غوستاف لوبون : حضارة العرب .

١٩ ــ إبن نباته المصرى : سرح العيون .

٢٠ ــ ابن النديم : الفهرست .

المراجــع الأجنبيــة :

٢١ —	Bulus :	The influence of Islam.
٢٢ —	Emerton :	Mediaeval Europe.
٢٣ —	Kirk :	A Short History of the Middle Eeat.
٢٤ —	Dr. Philip Hitti :	History of the Arabs.
٢٥ —	Richard Coke :	The City of Pesce.
٢٦ —	Sumuel Dinsinson :	History of 100 great events.
٢٧ —	Thomas Arnold :	Preaching of Islam.

دور عُمان
فى نشر الإسلام فى شبه القارة الهندية

الأستاذ الدكتور مير ولي خان المسعودي

١ ـ كلمة شـاملة عن عمـان :

لاشك أن عمان لعبت دورا هاما فى الحضارة العربية وليس أدل على ذلك من حصونها وقلاعها وأفلاجها القائمة حتى الآن . كما أنهـا ليست حديثة العهد بالحضارة وانما هى عريقة الحضارة وأصيلة الثقافة ، ذلك أنها كانت تتمتع منذ آلاف من السنين بالحضارة والثقافة وكانت حياة أهلها حياة رضا ونعمة ورفاهية كما وصفها ابن خلدون فى مقدمته حيث قال :

هى من ممالك جزيرة العرب والجزيرة تشتمل على اليمن والحجاز والشحر وحضرموت وعمان وهى خامسها : اقليم سلطانى منفرد ، شرقيها الخليج ، وجنوبيها بحر الهند ، وغربيها بلاد حضرموت ، وشمالها البحرين : وهى كثيرة النخل والفواكه ، وبها مغاص اللؤلؤ ، سميت بعمان بن قحطان ، أول من نزلها بولاية أخيه يعرب ، وصارت بعد سيل العرم للأزد ، وجاء الاسلام ، وملوكها بنو الجلندى ...

ويقول المسعودى فى مروج الذهب : وسنجار قصبة من بلاد عمان (يريد بها صحار) ولعل اسمها كان كذلك فى لسان العجم .

ويقول الأندلسى الشريشى : صحار سوق عمان مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مرساها فرسخ فى فرسخ ، وبلاد عمان ثلاثون فرسخاً ، ما ولى البحر سهول ورمال ، وما تباعد حزون وجبال ، وهى مدن منها مدينة عمان ، وهى حصينة على الساحل ، ومن الجانب الآخر مياه تجرى الى المدينة ، وفيها دكالين وأشجار .

وعمان كثيرة النخل والبساتين ، وضروب الفواكه ، والحنطة والشعير ، والأرز ، وقصب السكر ، وفى الأمثال : « من تعذر معه الرزق فعليه بعمان » .

وفى عمان الجبل الأخضر « ويقال له رضوى » وهو من عجائب الدنيا ،

مملوء بالفواكه من الرمان والعنب والجوز والخوخ والمشمش والبوت والنمت وغيرها من أشجار الجبل ، وفيه من الرياحين كالورد والزعفران والآس والنرجس وغيرها •

وقد سئل بعض أهله عن وصفه فقال : هو جبل عظيم الارتفاع ، صعب الامتناع ، فى وسط عمان ، أهله فى رفاهة وأمان لا يخافون جور شيطان •

وعمان بلاد بها أنهار وقصور وحياض ورياض ، وبساتين بها كروم وتين وتوت وجوز وخوخ ولوز ومشمش ورمان وفواكه ألوان ، محصنة حدائقهـا بالورد والياسمين ، وحشيشـها الزعفران الثمين ، والفوذنج والسنداب والنرجس المشبه بعيون الكعاب محفوفة بالآس كأنها الجنة فى القياس ، اختصت بالكرْم والتفاح ، والشجر المعطر النفاح •

يقـال : « وان حللت فى أقفارها اكتفيت عن جنى أثمارها بكثمل النمت ، والبوت شفاء وقوت ، تسفح عن هذا الجبل تسعة أودية ، وكل واد به له طريق مؤدّية ، وعلى أبوابها قرى لبنى ريام أحاطوا به كالأكمام بالثمر ، والهالة بالقمر ، حامين لأبوابه من طلابه » •

٢ ـ استقرار العرب فى عمـان :

يقال ان دخول العرب الى عمان قد حدث قبل الاسلام بألفى عام ، بعد ما أرسل الله على سبأ سيل العرم ، اذ خرجت الأزد منها الى مكة وأرسلوا روادهم فى النواحى ، يرتادون لهم الأمكنة ، ثم تفرقوا من هنالك الى الأطراف ، وخرج مالك فى جملة من خرج الى السراة ثم منها الى عمـان •

وفى مروج الذهب للمسعودى : أن مالكاً سـار من اليمن مع ولد جفنة ابن عمر بن عامر مزيقيا ، فسار بنو جفنة نحو الشام ، وانفصل مالك

نحو العراق ، فملك على مضر بن نزار اثنتى عشرة عاماً ؛ ثم ملك بعده ابنه جذيمة • قال : وقد كان ملك جذيمة من مشارف الشام الى الفرات من قبل الروم ، وكانت داره بالموضع المعروف بالمضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا ، قال : وأقام جذيمة ملكا فى زمن ملوك الطوائف خمساً وتسعين سنة ، وفى ملك أزد شير بابل وسابور الجنود بن أزد شير ثلاثا وعشرين سنة ؛ فكان ملكه ثمانية عشرة سنة ومائة •

وجاء فى الأنساب أن أول من لحق بعمان من الأزد مالك ابن فهم بن كعب ابن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد •

وكان سبب قصة خروجه عن قومه الى عمان ، أنه كان له جار ، وكان لجاره ذلك كلبة وكان بنو أخيه عمرو بن فهم بن غانم يسرحون ويروحون على طريق بيت ذلك الرجل ، وكانت الكلبة تنجهم وتفرق غنمهم ، فرماها رجل منهم بسهم فقتلها ، فشكا جار مالك اليه ما فعل بنو أخيه ، فغضب مالك وقال : لا أقيم ببلد يؤذى فيهـا جارى ، ثم خرج مراغماً لأخيـه عمرو بن فهم •

وقال أبو حاتم السجستانى عن أبى عبيدة عن أبى اليقظان ، قال : سبب خروج مالك بن فهم عن قومه بعد تفرقهم فى البلاد حين آخرجهم سيل العرم من جنتى مأرب — ونزلوا بالسراة — أن داعيا لمالك بن فهم خرج بغنم ، وكان فى طريقهم ثنية فيها كلب عقور لغلام من دوس ، فشـدّ الكلب على راعى مالك فرماه الراعى بسهم فقتله فتعرض صاحب الكلب لراعى مالك فخرج من السراة هو ومن أطاعه من قومه ، فجعل لا يمر بقبيلة من قبائل العرب من معد وغيرهم من اليمن الا سالموه ووادعوه لمنعته وكثرة عســاكره •

وتقدم فى قبائل الأزد ومن معه من أحياء قضاعة الى أرض عمان فوجد

بعمان « الفرس » من جهة الملك دارا بن دارا ، وهم يومئذ أهلها وسكانها .
والمتقدم عليهم « المرزبان » عامل ملك فارس . فعند ذلك أنزل مالك بن فهم من كان معه من الحشم ، والعيال ، والنساء ، والأطفال الى جانب « قلهات » من شدا أرض عمان ، ليكون أمنع لهم ، وترك عندهم من الخيل والرجال من يحفظونهم .

ثم سـار هو ببقية عساكره وصناديد رجاله ، وقد جعل على مقدمته ابنه هناة بن مالك فى ألفى فارس ، حتى دخل ناحية الجـوف ، فعسكر بالصحراء وأرسل الى الفرس — والمتقدم عليهم يومئذ « المرزبان » عامل الملك على عمان — يطلب منهم النزول فى قطر من عمان ، وأن يفسحوا له ، ويمكنوه من الماء والكلأ ، ليقيم معهم . فأتمروا بينهم وتشاوروا فى أمره حتى طال ترديد الكلام والتشاور بينهم ، ثم أنهم أجمع رأيهم على صرفه ، وأن لا يمكنوه مما طلب ، وقالوا : لا نحب أن ينزل هذا العربى معنا ، فيضيق علينا أرضنا وبلادنا فلا حاجة لنا فى قربه وجواره .

فلما وصل جوابهم الى مالك ، أرسل اليهم أنه لابد لى من المقام فى قطر من عمان ، وأن تواسونى فى الماء والمرعى ، فان تركتمونى طوعا نزلت فى قطر من البلاد وحمدتكم ، وان أبيتم أقمت على كرهكم ، وان قاتلتمونى قاتلتكم ، ثم ان ظهرت عليكم قتلت المقاتلة ، وسبيت الذرارى ، ولم أترك أحداً منكم ينزل عمان أبدا ، فأبت الفرس أن تتركه طوعا ، وجعلت تستعد لحربه وقتـاله .

ثم ان « المرزبان » أمر أن ينفخ فى البوق الذى يؤذن فيه بالحرب ، وأن يضرب الطبل ، وركب فى جنوده وعساكره ، وخرج من صـحار فى عسكر جم ، فيقال انه كان فى زهاء أربعين ألفا ، ويقال ثلاثين ألفا ، وخرج معه بالفيلة وسار يريد الجوف فى لقاء العرب ، فعسكر بصحراء سلوت وبلغ ذلك مالكا ومن معه ، فركبوا جميعا ، وكانوا فى زهاء ستة آلاف فارس

وراجل ، وعلى مقدمته ابنه هناة فى ألفى فارس من صناديد الأزد وفرسانها ، فأقبل فى تلك الهيئة حتى أتى صحراء سلوت ، فعسكر بازاء عسكر « المرزبان » •

ثم مكثوا يومهم ذلك الى الليل ، ولم يكن بينهم حرب ولا قتال ، ثم ان مالكا بات ليلته تلك يعبىء أصحابه يمنة ويسرة وقلباً ، ويكتّب الكتائب ، ويوقف فرسان الأزد مواقفهم ، فولى الميمنة هناة بن مالك وولى الميسرة ابنه فراهيد بن مالك ، وسار هو فى القلب فى أهل النجدة والشدة من أصحابه •

وبات « المرزبان » يعبىء ويكتّب كتائبه حتى اذا أصبحوا تواقفوا للحرب ، وقد استعد كل واحد من الفريقين ، وركب مالك بن فهم فرسا له ، أبلق ، وظاهر بين درعين ، ولبس عليهما غلالة حمراء ، وتكمم على رأسه بكمة حديد ، وتعمم عليها بعمامة صفراء ، وركب معه ولده وفرسان الأزد على تلك التعبئة ، وقد تقنعوا بالدروع والبيض والجواشن ، فلا يبصر منهم الا الحدق •

والتحم الفريقان ودارت رحا الحرب على « المرزبان » وتغلب مالك بن فهم عليه فى هذه المعركة الحاسمة وأظهر فيها بسالته وكفاءته وقتل فيها « المرزبان » وهزم الجيش الفارسى أبشع هزيمة ، فكتب الفرس الى الملك دارا بن دارا وأعلموه بقدوم مالك بن فهم ومن معه الى عمان وقتله لقائده « المرزبان » فى جل قواده وعسكره ، وما كان من شأنه ، وأخبروه بما هم فيه من الضعف والعجز ، واستأذنوه فى التحمل اليه بأهلهم وذراريهم الى فارس •

فلما بلغ ذلك الملك « دارا » غضب غضباً شديداً وداخله القلق ، وأخذته الحمية لمن قتل من أصحابه وقواده ، فعند ذلك دعا بقائد من عظماء مرازبته

وأساورته ، وعقد له ثلاثة آلاف من أجلاء أصحابه وشجعان مرازبته وقواده وقدمه فيهم ، وبعثهم مددا لأصحابه الذين بعمان ، فتحملوا الى البحرين ، ثم تخلصوا الى عمان ، وكل هذا لم يدر به مالك بن فهم • فلما وصلوا الى أصحابهم أخذوا يتأهبون للحرب •

فعند ذلك زحف عليهم مالك بن فهم فى خيله ورجاله ، وسار حتى وطىء أرضهم واستعدت الفرس لقتاله ، ومعهم الفيلة ، فلما قربوا من عسكره عبأ أصحابه راية راية وكتيبة كتيبة •

جعل على الميمنة ابنه هناة بن مالك وجعل على الميسرة فراهيد بن مالك وقام هو وبقية أولاده فى القلب ، والتقوا هم والفرس فاقتتلوا قتالاً شديداً ودارت الحرب بينهم كأشد ما يكون مليًا من النهار ، ثم انكشف الفرس وكان معهم فيل عظيم فتركوه ، فدنا منه « هناة » فضربه على خرطومه فولى وله صياح وتبعه « معن بن مالك » فعرقبه فسقط •

ثم ان الفرس ثابوا وتراجعوا وحملوا على الأزد حملة رجل واحد ، فجالت الأزد جولة ونادى مالك : يا معشر الأزد اقصدوا الى لوائهم فاكشفوه من كل وجه ، وحمل بهم على الفرس حملة رجل واحد حتى كشفوا اللواء ، واختلط الضرب ، والتحم القتال ، وارتفع الغبار ، وثار العجاج حتى حجب الشمس ، فلم تسمع الا صليل الحديد ووقع السيوف ، وتراموا بالسهام فتضعضعت ، وتجالدوا بالسيوف فتكسرت ، وتطاعنوا بالرماح فتحطمت ، وصبروا صبرا جميلا ، وكثر الجراح والقتل فى الفريقين •

ثم لم يكن للفرس ثبات فولوا منهزمين على وجوههم ، فاتبعهم فرسان الأزد يقتلون ويأسرون من لحقوا وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ولحق فراهيد سفندار بن مرزبان وكان من أعظم قواد العجم ، فطعنه فأرداه عن فرسه ، ثم علاه بالسيف فقتله •

وسارت فرسان الأزد ومن خف من أبطالهم فى أثار العجم لا يلوون على سلب ولا غيره يومهم ذلك كله يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل ، فما أفلت منهم الا من ستره الليل ، فتحمل من بقى منهم من تحت ليله ، وركبوا فى السفن وعبروا الى أرض فارس ، واستولى مالك بن فهم ومن معه على سوادهم ، فاستباحهم ، وغنم أموالهم ، وسجن من الأسرى خلقاً كثيراً ، فمكثوا فى السجون زمانا ، ثم أطلقهم ومن عليهم بأرواحهم ، وكساهم ووصلهم وذودهم ، وحملهم فى السفن الى أرض فارس ، واستولى على عمان فملكها وما يليها ، وساسها وسار فيها سيرة جميلة .

٣ — دخول أهل عمان فى الاسلام :

لقد استجاب أهل عمان الى دعوة الاسلام طوعا ورضا وهذا دليل قاطع على رصافة عقول أهل عمان ، كما أنه حجة بالغة فى أن السيادة فى عمان كانت سيادة رشيدة تدير الأمور بعقل ورشاد بدل عاطفة وطيش ذلك أنهم عندما رأوا أن الدعوة الاسلامية دعوة حقة تدعو الناس الى الصراط المستقيم والدين القويم لبوا لها واعتنقوا الاسلام دينا لهم بدون أية معارضة أو مقاومة .

لذلك بقى أهل عمان أعزاء مقربين الى النبى صلى الله عليه وسلم وارتفع مقامهم فى أعين الصحابة والمسلمين . وقال الواقدي بهذا الصدد : ان النبى صلى الله عليه وسلم كتب الى جيفر وعبد ابنى الجلندى الأزدى بعمان وبعث عمرو بن العاص بن وائل السهمى بكتابه اليهما .

وكان كتابه صلوات الله عليه صحيفة أقل من الشبر فيها : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابنى الجلندى السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوكم بدعوة الاسلام أسلما تسلما ، فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، وانكما ان أقررتما بالاسلام بقيتما على ما أنتم عليه من سلطان .

وكان أبىّ بن كعب هو الذى أملى الرسول عليه هذا الكتاب وطوى الرسول الصحيفة وختمها بخاتمه المبارك ، وكان نقش الخاتم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

قال : فقدم عمرو بن العاص بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى عبد وجيفر ابنى الجلندى بعمان ، فكان أول موضع دخله من صـــحار « دستجرد » وهى مدينة بنتها العجم فى صحار فى مهادنتهم لبنى الجلندى ، فنزل بها وقت الظهر ، وبعث الى بنى الجلندى وهم فى بادية عمان ، فكان أول من لقيه عبد بن الجلندى .

وكان عبد بن الجلندى أحلم الرجلين وأحسنهما خلقاً ، فأوصل عمراً الى أخيه جيفر بن الجلندى بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فدفعه اليـــه مختوما ففضّ خاتمه وقرأه حتى انتهى الى آخره ثم دفعه الى أخيه عبد فقرأه مثل قراءته .

ثم التفت الى عمرو فقال : ان هذا الذى تدعو اليه من جهة صاحبك أمر ليس بصغير ، وأنا أعيد فكرى فيه وأعلمك ، وأنه استحضر جماعة الأزد وبعثوا الى كعب بن برشة العودى فسألوه عن النبى صلى الله عليه وسلم فقـــال :

الرجل نبىّ وقد عرفت صفته ، وسيظهر على العرب والعجم ، فأجاب الى الاسلام وأسلم هو وأخوه فى ساعة واحدة ، ثم بعث الى وجوه عشائره فبايعهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وأدخلهم فى دينه ، وألزمهم تســليم الصدقة ، وأمر عمراً بن العاص بقبضها على الجهة التى أمره بها النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم بعث الى « دُبى » وما يليها الى آخر عمان ، فما ورد رسول جيفر على أحد الا وأسلم وأجاب دعوته .

هكذا أسلم أهل عمان واعتنقوا الدين الحنيف برحب الصدر ، فأخلصوا فيه منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا . لقد رأت عمان تيارات عديدة وحملات شديدة فى مختلف العصور ولكنها صمدت لتلك التيارات وواجهت بثبات جميع تلك الحملات حتى استطاعت أن تشخص معالمها وتسجل تاريخها وحضارتها مساهمة بذلك فى توسيع الحضارة العربية الى خارج الجزيرة العربية ، الى جانب قيامها بنشر الثقافة العربية فى أنحاء العالم كله .

٤ — قيام عمان بنشر الحضارة والثقافة العربية فى شبه القارة الهندية وبلاد السند :

لقد قامت عمان بدور فعال فى نشر الحضارة والثقافة العربية فى شبه القارة الهندية بصفة عامة ووادى السند بصفة خاصة ، ذلك أنه كانت التجارة رائجة بين ماغان (عمان) ودلمون (البحرين) وملوحة (وادى السند) منذ زمن بعيد ، وكان تجار عمان وما يليها من البلدان العربية يقومون بالتجارة فى مختلف بلاد الهند والسند عن طريق البحر فجلبوا معهم العادات والرسومات العربية من الكرم والشهامة والفروسية وغيرها من العادات الشائعة فى العرب .

هذا قبل ظهور الاسلام ، ولما ظهر الاسلام قام هؤلاء التجار يدعون الناس فى مختلف بلاد الهند والسند الى الدين الاسلامى وابتناء الخلق الاسلامية الطيبة ، وكانت القوافل التجارية تتنقل بين ماغان ودلمون وملوحة بصفة مستمرة ، وفى عام ٧٠٠ ق.م نشطت تجارة البهارات والعطور والأخشاب النادرة بين ماغان وملوحة الى أبعد الحدود التجارية ، وتوغل التجار الى داخل الهند والسند حتى وصلوا الصين فلم يكن همهم ، الى جانب التجارة ، غير نشر الثقافة العربية والتعاليم الاسلامية .

وقد استوطن البعض منهم فى بلاد السند حتى أنى سمعت أن هناك

قرية من قرى السند يتحدث أهلها باللغة العربية غير أن عربيتهم محرفة الى درجة أنه لا يستطيع الانسان أن يفهمها وان كان عربيا قحا ، وهذا دليل قاطع على أن عمان لعبت دورا هاما فى نشر الحضارة العربية فى داخل عمان حيث استولى مالك بن فهم على عمان وطرد الفرس منها وبذلك خلصها لازدهار الحضارة العربية •

كما قام أهل عمان وخاصة تجارها ينشرون الحضارة والثقافة العربية ويدعون الناس الى الدعوة الاسلامية والى تعاليمها الغراء فى مختلف بلاد الهند والسند وبذلك يجدر القول بأن عمان قامت بدور هام فى حضارة العرب داخل البلاد العربية وخارجها وخاصة بعد سيل العرم فى اليمن ، اذاً أنها أصبحت مركزا هاما من حيث موقعها الجغرافى ، لأنها بقيت قاعدة لنشر الثقافة العربية فى بلاد الهند والسند والصين وأفريقيا ، وهى حصن منيع للحضارة العربية فى الخليج العربى ومهد أصيل للتراث العربى فى هذه المنطقة ، ومنبع عذب للثقافة العربية للدول المجاورة كباكستان وايران ، ولازالت عمان تعد باباً بحريا لدول الخليج شرقاً وغرباً •

محتويات المجلد الثانى

للتجليد والطباعة
٦ شارع البراموني - عابدين - القاهرة ت : ٩١٤٨٨١